
دار عام الفين
باريس



قصة

المدفع العملاق

انطلاقة حرب الخليج



وليم لوثر

قصة

المدفع العملاق

انطلاقة حرب الخليج

ترجمة
فؤاد حطيط

دار عام الفين
باريس

الطبعة الأولى 1992

كلمة المؤلف

هذا الكتاب ، رغم أنه ليس سيرة ذاتية ومجاز بها ، قد استفاد كثيراً من التعاون الوثيق لأفراد عائلة بول المقربين . إنهم أناس محبون ودافئون ، ومهما يمكن قوله عن تصرفات د. بول - خصوصاً في الأيام الأخيرة لحياته - فإن لديه سبباً ليكـون فخوراً جـداً بعائلتـه . أود أن أشكر ، بشكـل خاص ، مكيشيـل بـول للساعات الطويلة التي أمضاها متذكراً والده بموضوعية مدهشة ، وأحياناً بتبصر أخّـاذ . بعض الجلسات امتـدت طويـلاً بعد منتصف الليـل . أرملة د. بول ، ميمي ، هي امرأة بأوهام قليلة . كانت قادرة على رؤية أفضل ما في جيـري ، وبقيت وحيدة مع ذكريات عن أوقات عصيبة .

وهناك آخرون كثيرون يجب شكرهم . غوردون بول ، الذي كان يرغب كثيراً بالتعرف على أخيه ، والذي لم ينجح بذلك بفعل ظروف مأساوية ؛ أخت جيري الكبرى ، بيرنيس ، التي تثبت أن النفس التي لا تقهر هي بالوراثة ؛ دونالد فليبسـون ، الذي قـام وبـلا كلل ببحث متعب في الأرشيف الـوطني لكنـدا ؛ د.ألفرد. جي . راتز الذي اهتم بذكريات صديق قديم إلى حد تسجيلها كلها ؛ العديد من الموظفين السابقين لدى (SRC) الذين ما يزالون يعيشون حول هاي ووتر ، كويبك ، ونورث تروي ، فيرمونت ، العاملون في المكتبة في نورث باي وترينتون ، أونتاريو؛ ساره ايغلين التي قامت ببحث أصيل في بريطانيا ؛ سيـد صيني في لندن ؛ د. كريستوفر كاولي ، الذي عمل بشكل وثيق مع د. بول على المدفع العملاق ؛ ومونيك جامينى ، مسـاعدة د. بـول الخاصـة في بلجيكا . بالإضافة إلى ما تقدم ، هناك نصف دزينة من الموظفين السابقين لدى (SRC) في بلجيكا الذين طلبوا عدم ذكر أسمائهم لأسباب أمنية ، وعلى الأقل عدد موازي من

المصادر المخابراتية طلبوا الشيء نفسه لأسباب مفهومة . ولكثيرين لم يرد ذكرهم أعلاه : مرة ثانية ، شكراً لكم .

على الجانب الشخصي ، ما كان ممكناً إكمال هذا الكتاب لولا التفهم والدعم غير المحدود من زوجتي جوانا. ايرنست ومارتا هيلين قدما تشجيعاً لا غنى عنه ، وجون بيرس ، رئيس تحرير « دوبلداي » كندا قدم وقتاً وجهداً وأفكاراً أكثر بكثير مما يفرضه الواجب

وليـام لاوثـر
واشنطن ، آذار 1991

ملاحظـة

عند الكتابة لأصدقاء كان د. بول يوقع باسم «Jerry» لكن اسم التنصير له هو«Gerald» ، وبهدف الوضوح استخدمت تهجئة «Gerry». وأيضاً أشرت إلى شركة بول في كل مكان ورد ذكرها بـ «SRC» (سبايس ريسرش كوربوريشن) رغم أنها متعددة الأسماء بشكل محير مثل «SRC-Q» (كـويبك) و «SRC-I» (انتـرناشيـونال) . هنـاك طرق عـديدة لتهجئـة الأسماء العـربية الـواردة وقـد استخدمت الأكثر قرباً من طريقة النطق العربي . أما بالنسبة للدولار : فالمبالغ التي تطلق في كندا هي بالدولار الكندي ، والتي في الولايات المتحدة بالدولار الأميركي . وفي صفقاته التجارية العامة في بلجيكا ، كان بول يتعامل بالدولار الأميركي .

تمهيد

أحلام لا يمكن أن تموت

كان جيري بول خائفاً . كان خائفاً من شقته الخاصة ، ولسبب وجيه . فقد كان شخصٌ ما يدخل إلى بيته المرتب ، المؤلف من غرفة نوم واحدة ، عندما يكون خارجاً ، ويترك آثاراً واضحة عن عمد ليعرف أنه كان موجوداً .

كانت أشياء صغيرة في البداية . وفي إحدى الليالي ، كان يشاهد فيلم فيديو مُستأجراً عندما قاطعه رنين الهاتف . كانت المكالمة بهدف الطلب منه الإسراع في العمل لحل مشكلة يواجهها الجيش الصيني بنظام مدفعية جديد ، وعلى أثرها قرر بول تمضية بقية الليل في العمل ، على الحسابات المطلوبة بإلحاح . وعندما عاد من المكتب في الليلة التالية ، وجد أن الشريط قد أُخرج من جهاز الفيديو ، وأُرجع إلى بدايته . وأُعيد وضعه بترتيب في غطائه على طاولة جانبية .

كان أمراً غريباً . أعاد ترتيب الأحداث . كان يستمتع بمشاهدة الفيلم عندما رنّ الهاتف ، فكبس زر التوقف المؤقت للڤيديو ونهض للرد على المكالمة . استغرق الحديث وقتاً طويلاً لأنه تناول تفاصيل . بعدها أطفأ جهاز الڤيديو تاركاً ، عن قصد ، الشريط بداخله ليتمكن لاحقاً من متابعة الفيلم من حيث وصل . لكن الآن ، والشريط قد أُرجع وأُعيد إلى غطائه ، فقد أحس بقشعريرة خوف تسري في أوصاله . كان أمراً صغيراً جداً ، وغير مؤذ أبداً ، لكن شيئاً بداخله لم يدعه يتوقف عن التفكير به .

اتصل بالسيدة التي تتولى تنظيف الشقة ليتأكد من أنها لم تأت في ذلك اليوم . ثم اتصل بالمرأتين اللتين تملكان مفتاحاً للشقة ؛ مونيك جاميني ، «فتاة»

الجمعـة » ، وهيلين غريغـوار ، المرأة التي يعتبـرهـا « صـديقتـه المميـزة » . مونيك ، التي تشتري له قمصانه وتدير مكتبه الخاص ، أكّـدت ما كان يعرفـه سلفاً ؛ فقد كانت تعمل طوال النهار وكان المفتاح معها . وكما توقع فإن أحداً لم يردّ عندما اتصل بهيلين ـ التي كسرت جدار الوحدة التي عـانى منها بـول منذ انتقلت زوجته ، ميمي ، للعيش في قارة أخرى ـ لأنها كانت خارج البلاد منذ ثلاثة أيام ولن تعود قبل اليوم التالي .

كانت تلك مجرد البداية . إذ بعد حادثة الفيديو تكاثـرت الإزعاجـات . واستمرت الأحداث الغريبة في شقته ، في بروكسل ، وأخذ الأثر المتروك عن عمد يصبح أكثر وضوحاً . هؤلاء الأشخاص ليسوا لصوصاً ، لأنهم لا يسرقون شيئاً . وخمّن بول أن هدفهم هو توجيه رسالة إليه ؛ كانوا يريدون تحطيم إحساسه بالأمان . كانت حربـاً نفسية ، وقـد دفع الغمـوض ببول للعـودة إلى استخدام الحبوب المنومة ، واهتزت أعصابه .

للدكتور جيرالد فنسنت بول سمعة دولية في عالم السلاح . كان يوصف بأكبر عالِم مدفعية في هذا القرن . إنها تجارة لا ترحم ، وقد عاش مع الخطر لسنوات ، لكن لم يواجـه شيئاً كهـذا من قبل . ولم يكن بمقـدوره الاستعانـة بالشرطة ، لأنهم قد يطرحون أسئلة كثيرة لا يريد أن يجيب عليها . كـان يزداد إيمـاناً بـالقضاء والقـدر لكن ذلك لم يـوقف إحساسـه بـالخـوف . كـان هـذا الإحساس موجوداً عندما استيقظ صباح ذاك الإثنين من صيف 1989 . وبالرغم من انقضاء ثلاثة أسابيع على آخر حادث غريب حصل له ، إلاّ أن الخوف ظل ينمو . وإذ أقفل باب الشقة وراءه ، وزرّر معطفه الواقي من المطر ، وعلق حقيبته القماشية السوداء الثقيلة ، التي يضع فيها أوراقه ووثـائقه ، على كتفـه ، شعر بالفرح لأنه يغادر شقته .

كان صباحاً ممطراً في بروكسل ، وقد جهد بول، ذو الوزن الزائد قليلاً والمتوتر كثيراً ، لحشر نفسه وراء مقود الفولكسفواكن ، طراز 1980 ، التي كان قد استخدمها ابنه ميشيل كسيارة للعائلة . وأكثر ما كان بول يحب في هذه السيارة الستايشن أنها تبقى عابقة برائحة أحفاده .

طريقة قيادة الدكتور بول منحته شهرة خرافية في مكاتب « شركته » التي

تحمـل اسماً عـالي المقام : سبـايس ريسرش كـوربوريشن (شـركـة أبحـاث الفضاء) ، التي يرأسها منذ عشرين عاماً ، والتي كان قد بناها لتصبح واحدة من أهم الشـركات العلميـة للأبحـاث والتطويـر ، في العالم في مجـال المدافـع الضخمة . كان بول ، الكندي الأصل ، يعتبر أن كل سائقي أوروبا ، عموماً ، والبلجيكيين خصوصاً ، هم « مجانين خطرون » . لكن لحظة يكون على الطريق يصبح أكثر جنوناً من أي منهم . فقد كان شيئاً عادياً عنده أن لا ينتبه للإشارات الضوئية ، أن يغيّر طريقه بدون إعطاء أي إشارة ، أو ببساطة أن يتوقف في منتصف أوتوستراد إذا ضل طريقه ، وهذا ما حصل له كثيراً في الآونة الأخيرة .

كان د. بول قادراً على العيش في عقله الخاص المتقـد منغلقاً عن بقيـة العالم . كانت خدعة تعلمها في طفولته عندما كان يحس بالحاجة للهرب من ألم الإحساس بأنه غير محبوب . الخوف والخيبة ، الحنين والحاجة يمكن إبقاؤها بعيداً لساعات عندما يشغل عقله في تحليل مسألة . وبقدر ما تحتاجه المسألة الرياضية والعلمية من وقت ، يظل د. بول قادراً على إقامة حائط لإبعاد الحقائق العاطفية التي لا يستطيع مواجهتها . وعندما يكون وراء هذا الحائط ، يجب أن لا يجلس وراء مقود السيارة .

لم يتمكن بول أبداً من التمتع بالعيش في بروكسل . فكونها واقعة بشكل مزعج وسط بلجيكا جعلها كثيفة التلوث ، وكان بول يعتبر أن التلوث سبب أوجاع رأسه المتكررة . في بعض الأيام كانت السماء تبدو وكأنها ستقع على المدينة . كما كانت هناك أيضاً تلك الهيئة المشؤومة للمباني الضخمة التي تأوي قيادتي المجموعة الاقتصادية الأوروبية وحلف الأطلسي (ناتو) ، وحشان بيروقراطيان أعطيا بلجيكا فرصة إدعاء امتلاكها نفوذاً دولياً . لكن ، لم تكن صدفة أن بول اختار بروكسل مقراً لعمله .

كانت بلجيكا مركزاً عالمياً لتجارة الأسلحة ، وهي مشهـورة بذلـك منذ القرون الوسطى . لديها تقليد في صنع وبيع وتصدير الأعتدة الحربية ، بالحماسة نفسها التي لديترويت في صنع وبيع وتصدير السيارات . وبالنسبة للزبـائن فإن القيود التي لا يمكن تجاوزها معدودة جداً . وبكلام لبق ، فإن الحكومة البلجيكية كانت سخية في شهادات « المستخدم الأخير » . وتصدّر بلجيكـا أكثر من 90 بالمئة من إجمالي إنتاجها الحربي . والبنادق البلجيكية كانت أول الواصلين إلى

كوبا بعد تسلّم كاسترو السلطة ، كما استخدمت الأسلحة البلجيكية ، من المسدسات إلى الصواريخ ، من قبل الطرفين المتقاتلين في معظم الحروب الإقليمية والأهلية منذ الستينات .

كانت بروكسل المكان المناسب لازدهار أعمال بول .

حسب كلمات جون بايك ، خبير القذائف والصواريخ في اتحاد العلماء الأميركيين ، كان بول « أكبر عبقري » مدفعية في جيله . . . وارنر فون برون تكنولوجيا المدافع الكبيرة . لكنه عبقري مدفعية وُلد في جيل كان ، قد اكتشف الصاروخ وفقد اهتمامه بالمدفعية . وكانت مهمة بول أن يعيد للمدفعية ريادتها ، التي كان يؤمن ، أنها قد استحقتها في سجلات تاريخ الحروب .

على مدى العقود الثلاثة الماضية ، عمل بول على تثوير المدفعية من خلال تصميم مدافع وقذائف ، ذات مدى أبعد وقدرة تدميرية أكبر ودقة إصابة أكثر من أي شيء موجود في ترسانتي الناتو والاتحاد السوفياتي . فقد كانت مدافعه التي أوقفت التقدم الشيوعي في أنغولا وأنقذت قوات جوناس سافيجي ، التي تدعمها الولايات المتحدة ، في أواسط الثمانينات ، ومدافعه أيضاً التي حطمت وشتّتت الموجات البشرية للجنود الإيرانيين الذين هاجموا العراق عام 1987 . الصين استخدمت مدافعه لحماية حدودها الشمالية المتوترة مع الإتحاد السوفياتي .
وفي الستينات بنى أكبر مدفع في العالم أطلق منه قذيفة ارتفعت 180 كلم في السماء ، أي أكثر مرتين مما بلغته أي قذيفة أخرى .

الأن ، كان د. بول يعمل على نظام مدفع يعتبره أهم بكثير . في الواقع ، إنه في هذا اليوم الممطر ، في بروكسل ، كان متوجهاً لإجراء تجربة إطلاق نموذج لهذا المشروع ، الحلم بالنسبة له ، الذي يحمل اسماً رمزياً : «مشروع بابل » .

في الواحدة والستين من العمر ، وبالرغم من أنه سافر كثيراً إلا أنه لم يتعلم أبداً أن يترك لنفسه وقتاً كافياً للوصول إلى المطار بلا عجلة . كثيراً ما فاتته الرحلات ، وكاد أن يحصل ذلك في هذا النهار . كانت مسّاحات الزجاج تعمل بأقصى سرعتها ، أكثر مرتين مما تحتاجه لمسح المطر (كان بول يحب الآلات

لكن لم يكن لديه الصبر لتعلم كيفية استخدامها) ولم يكن في وارد إزعاج نفسه في محاولة ضبط المسّاحات على السرعة المناسبة للمطر الخفيف المتساقط . كان رجلاً لا يغير عادته ، انطلق بسيارته بسرعة عبر الطريق الخاص ، وتجاوز أحواض الشجيرات المزهرة والحدائق الطبيعية التي تحيط بمجمع « شيريدريو » السكني ، الذي يتألف من ثلاثة أبنية، يسكن في إحداها ، باتجاه الشوارع الملتوية والساحات الضيقة لضاحية « أوسل » الجنوبية الأنيقة ، وصولاً إلى « الحلبة » ـ أوتوستراد متعدد اتجاهات السير ـ يلتف حول المدينة . إحتاج د. بول لخمس وعشرين دقيقة للوصول إلى مطار بروكسل الدولي ، ولم يكن متبقياً لإقلاع رحلة « سابينا » المتجهة إلى فرانكفورت غير ثلاثين دقيقة . نزل من السيارة تاركاً إياها وسط خط السير الرئيسي . والمفتاح ما يزال بداخلها والمحرك دائراً ، علق حقيبة الوثائق المنتفخة على كتفه واختطف حقيبة الثياب من على المقعد الخلفي وسار متمايلاً إلى داخل المطار .

على مدخل بوابة « الانطلاق » اتصل هاتفياً بمونيك جامينى ، كانت مونيك الرومانسية وذات العيون البرّاقة في الأربعين من العمر ، تحب بول إلى حد كبير ، كمثل الكثير من النساء اللواتي عرفنه . تتقن الإنكليزية بطلاقة ، مع القليل من اللهجة البلجيكية مما جعل انكليزيتها أكثر تحبباً وإغراءً . لكن بول كان يصر على التكلم معها بالفرنسية ، وقد احتاجت لسنتين لتفهم لغته الفرنسية ، التي كانت خليطاً من قواعد اللغة التي تُلقن في المدارس الثانوية ومفردات من كويبك (مقاطعة كندية ينطق سكانها بالفرنسية) بعيداً عن تأثير أي لهجة أوروبية . (تقول مونيك إنه في إحدى المرات دُعي بول للظهور على شاشة التلفزيون البلجيكي ، وكانوا يناقشون التفاصيل خلال تناول الغداء ، فهب ثائراً وغادر المكان لأن المنتج أصر على أن وجود مترجم أمر ضروري) . الآن ، وقد أصبح إقلاع طائرته وشيكاً ، طلب من مونيك أن تترك كل شيء وتستقل سيارة تاكسي إلى المطار لتعيد سيارته . لن تجد صعوبة في إيجادها ، قال لها ، لأنها كانت تسد الطريق . وقبل أن يُتاح لها وقت للموافقة ، كان قد أغلق السماعة وذهب مسرعاً عبر الممر الضيق إلى الطائرة ، وكان كتفه ينوخ تحت ثقل الوثائق في حقيبته القماشية . في أغلب الأحيان ، كان الراكب الأخير الذي يصعد إلى الطائرة .

في الحقيبة القماشية كل الرسوم والحسابات والعقود المتعلقة بمشروع « بابل » والنموذج الأولي « بابل الصغير» . كان بول يأخذها معه حيث يذهب ، فهي تكون بأمان ، كما كان يعتقد ، عندما تكون أمام عينيه . ليس قط لأن أشخاصاً مجهولين كانوا يدخلون شقته ، بل لأنه كان يشك أيضاً بوجود جواسيس داخل مكتبه يلاحقونه . بالنسبة لرجل أعمال عادي ، فإن هذا النوع من المخاوف يمكن اعتبارها « جنون الإرتياب » . لكن د. بول كان منغمساً في مسألة تثير اهتمام العالم ، وصفقات أسلحة لواحدة من أكثر المناطق حيوية في العالم . بالتأكيد لم يكن يتخيل أشياءً .

عندما حطّت الطائرة في فرانكفورت ، انتقل بول إلى طائرة تابعة للخطوط الجوية العراقية في رحلة تستغرق خمس ساعات ونصف الساعة إلى بغداد ، وقد جلس على أحد مقاعد الدرجة الأولى بصفته ضيفاً مكرماً لصدام حسين . وكما أخبر مونيك لاحقاً ، فإنه لم يشعر بالأمان إلاّ عندما أغرق نفسه في المقعد الوثير الواسع في الطائرة العراقية .مسح وجهه بمنشفة ساخنة معطّرة .وأخذ يفكر بتلك المفارقة . فالمفترض أن يكون العراق جمهورية . . . ، يحكمها . . . ، لكن بول لم يكن بحاجة للحبوب للنوم في العراق ، فهناك كان يحس بالأمان . في الغرب كان يشعر بالتهديد والخوف .

كان صدام حسين رجلاً طموحاً وذا هاجس بأن يصبح « سيف العرب » . ويؤمن بأن القدر قد رسم له دوره ليسيطر على العالم العربي مثلما فعل المصري جمال عبد الناصر قبل جيل . كان يرى نفسه على رأس قوة عربية عظمى تسيطر على جزء كبير من الإمدادات النفطية للعالم . إحدى المجلات الأميركية وصفته بـ « أخطر رجل في العالم » . ويقدّر بعض المحللين في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (C.I.A) أنه أنفق خلال الثمانينات حوالي خمسين بليون دولار في أسواق السلاح العالمية ، مما جعله أكبر مشترٍ للسلاح . وبشكل خاص ، كان يخزّن مواداً كيماوية وبيولوجية في حين كان يقوم بجهد ، شبه يائس ، ليجعل العراق قوة نووية . وبالفعل ، فإن تقدمه في شراء تكنولوجيا الأسلحة النووية المحظورة ، من الخارج ، كان مدهشاً إلى حد أن الخبراء الأميركيين الذين توقعوا قبلاً أنه بحاجة لعشر سنوات لامتلاك قنبلة نووية أعادوا حساباتهم فأصبحت

الفترة لا تزيد عن خمس سنوات . فامتلاك 10 بالمئة من احتياط النفط العالمي كان يوفر لصدام تمويل مغامراته العسكرية التي لا تعرف إلاّ القليل من الضوابط . وكما أصبحنا نعرف الآن ، فقد كان المستشارون العسكريون لصدام حسين قد رسموا بالفعل خططاً احتياطية لغزو الكويت .

عندما كان المهندسون ، الذين يعملون مع بول ، وهم مخلصون له ، يجتمعون في بار انكليزي قرب بيرلايمنوت (الاسم الرسمي لمقر قيادة المجموعة الأوروبية الاقتصادية) كانوا يتحدثون عنه بودّ واصفين إياه بـ « محبّ الغرائب » . وهذه التسمية ليست مغلوطة بالتأكيد . لنأخذ « مشروع بابل » على سبيل المثال . إنه مشروع لبناء مدفع ضخم جداً ذي قدرة هائلة . الماسورة بطول 156 متراً ـ أي مرة ونصف طول ملعب كرة قدم ـ ومع مؤخرة المدفع وآلية استيعاب الإرتداد سيكون طوله الإجمالي 200 متر . الفوهة بقطر متر واحد ، مما يعني القدرة على إطلاق قذائف بحجم برميل النفايات الصناعية . ويمكن أن تكون القذائف ذات دفع صاروخي مساعد ، وستكون كبيرة وقوية بما يكفي لوضع قمر اصطناعي ، وزنه 50 كلغ ، في المدار حول الأرض . مؤخرة المدفع كبيرة بحجم مطبخ ، بارتفاع أربعة أمتار ونصف المتر ، وواسعة بما يكفي ليسير شخصان في داخلها . وإذا لم يكن المدفع العملاق سلاحاً بحد ذاته ـ كان مدفعاً لإطلاق الأقمار اصطناعية ـ إلاّ أنه كان فاتحة حقبة جديدة في مجال المدفعية ، لم تكن موضع اهتمام قبلاً إلاّ في الروايات الخيالية العلمية . وكان الهدف الأبعد لبول هو بناء بطاريات من هذا المدفع تكون قوية بما يكفي لإطلاق قذائف عابرة للقارات . ويمكن أن تكون القذائف ذات الدفع الصاروخي المساعد مجهزة بأنظمة توجيه مُصغرة جداً تجعلها دقيقة الهدف إلى درجة إصابة مبنى على بعد 3200 كلم . وكان بول قد عرض بالفعل نظاماً كهذا على الولايات المتحدة والقيادة العليا للناتو ، لكن هؤلاء الناس الحذرين من غلو بول ، كانوا ينتظرون رؤية مدى نجاح مشروع « بابل » قبل طلب إجراء المزيد من الدراسة . ذلك أنهم كلهم كانوا على علم ، بواسطة استخباراتهم ، بمشروع بابل . وحده الرأي العام ، الذي يمكن أن يعترض ، أبقي في العتمة .

المدفعية ، التي أعتبرها جوزيف ستالين « إله الحرب » ، قتلت أناساً في

ميادين القتال خلال هذا القرن أكثر من أي سلاح آخر . وفي مقابلة قصيرة ، أعجبت بول ، قال أرام باكشيان جونيور ، الذين تولى سابقاً إعداد خطابات الرئيس رونالد ريغان : « في الحقيقة ، ما من أحد في المختبرات أو الكليات العسكرية يستطيع أن يكون أكيداً حيال الاتجاهات الجديدة التي يمكن أن يسلكها فن الرمي البعيد القديم العهد » . لكن حتى باكشيان كان سيندهش بالتأكيد من أفكار بول .

كما توقع بول ، لم تجد مونيك أي مشكلة في العثور على السيارة ، إذْ كانت ما تزال مكانها وسط الطريق مسببة ازدحاماً خانقاً وضجيجاً من نفير السيارات التي ضاق سائقوها ذرعاً . لكن بالنسبة لمونيك كان ذلك هو الإحراج الأخير . فخلال الشهرين الماضيين قصدت المطار مرتين في مهمة « بحث وإنقاذ » عندما أضاع سيارته كلياً ، ناسياً أين أوقفها ، والعاملون في المكتب يتبادلون قصصاً مرعبة عما رآه بعضهم ممن قبلوا أن يوصلهم بول بسيارته . كانت مونيك مصممة على استغلال غيابه لتقوم في الأسبوع المقبل ببيع السيارة ، والتأكد مستقبلاً من وجود شخص جاهز لتوصيله إلى حيث يريد الذهاب . ستتحمل مسؤولية ذلك ، لكنها كانت تعرف أن الأمر لن يكون سيئاً لأنه لا يستطيع أن يحنق على شخص طويلاً ، إلاّ إذا بدر من هذا الشخص ما يدل على استخفافه به .

كان د. بول قليل الاهتمام بهندامه ـ غالباً ما يكون قيمصه متدلياً فوق حزامه ـ لكن كانت لديه لمسة أناقة . الشعر الأسود المجعد الذي كان له في شبابه أصبح معظمه فضي اللون وخفيفاً جداً . وفي كل صباح كان يمشط الخصلات الطويلة على الجهة اليسرى من رأسه إلى فوق باتجاه اليمين بأمل إخفاء بقعة الصلع في الوسط . وكانت عيناه الزرقاوان الواسعتان ما تزالان تتّقدان بطريقة جذابة . وحتى الذين لا يعرفون شيئاً عن دراساته المعقدة والمحيرة المتعلقة بالمدفعية والهاوتزر والقذائف الايرودناميكية الملساء ، لم يكن صعباً عليهم تصديق الفكرة الشائعة بأن د. بول هو عبقري . وعندما كان يتقدم بالسن كان الإنحناء في كتفيه ، إلى الأمام ، يزداد وضوحاً ، وقد تكرست لديه قناعة بأن ملامحه تشبه ثوراً مقاتلاً وأن لديه عناده .

كان جيرالد بول ذا شخصية متناقضة أشبه بكاهن سكير . رجل معقد ،

وبطريقة ما لم يكن قادراً على الانتباه لذلك التصادم بين كلماته وأفعاله . مناهض للشيوعية بتطرف ، لكنه عمل لدى حكومة جمهورية الصين الشعبية وحاضر في جامعاتها . مدافعه قتلت المئات بل الآلاف من الأشخاص ، ومع ذلك لا يستطيع تحمل رؤية الدم ، وقد أمضى ساعات يسير بين قبور ضحايا الحرب العالمية الأولى البلجيكيين يقرأ الكلام المكتوب على الأضرحة ويتأسف على خسارة هذا العدد الكبير من الشباب .

كريم ومتعاطف مع الأصدقاء ، ويصبح حاد اللسان عندما تكون أفكاره العلمية موضوع تساؤل ، أو عندما يلتقي شخصاً غير كفؤ . غير صبور وسريع الغضب إذا كان تلامذته بطيئي التعلم ، لكنه قد يجلس ودون أي مقابل طوال الليل مع مهندس شاب يحتاج للمساعدة في تطوير فكرة . وبالرغم من تعامله مع حكومات على مستوى وزراء إلاَّ أنه كان ساذجاً ، تقريباً كطفل ، في فهم الشؤون الدولية .

ورغم كونه مشاكساً وغير منضبط ، إلاّ أنه كان يحظى بإخلاص العاملين معه مثلما كان يخلص لهم . بعض مساعديه ، مثل نائب رئيس سبايش ريسرش كوربوريشن ، لويس بالاسيو ، بقي معه ثلاثين عاماً . وفي عام 1980 اهتزت الشركة بفعل فضيحة نقل تقنيات مدفعية إلى أفريقياالجنوبية ، فعرض بالاسيو أن يذهب إلى السجن بدلاً من بول . لقد شعر أن الحجز قد يكون مدمراً لبول ، وكان مستعداً ، بل سعيداً ، أن يكون كبش المحرقة . العرض رُفض لكن أصالة بالاسيو لم تُنسى أبداً .

كان بول طيب القلب بحيث لم يكن قادراً على طرد أي شخص من العمل ، حتى لو ارتكب أشنع الأخطاء . عندما ترك ستيف أدامس ، وهو مهندس رئيسي ، الشركة للعمل لدى حكومة جنوب أفريقيا عام 1978 ، غضب بول حتى كاد يبكي . شعر أنه تعرض للخيانة . لكن بعد أربع سنوات ، احتاج أدامس لعمل فأعاد بول استخدامه في الشركة . كان يتعامل مع الكل ، من حملة شهادات الدكتوراه المتغطرسين إلى عاملات التنظيف ، بالطريقة نفسها . كان مرحاً يحب تدبير مقالب ظريفة مدروسة ، وأكثر ما كان يفرحه هو أن حفيدته ساره ، من ابنه ميشيل ، كانت تسميه « جدي المهرج » . وفي كل عيد ميلاد كان

يحضر لها شيئاً له علاقة بالمهرجين . « كان ذلك الشيء الذي يمنحه أكبر سعادة في الحياة » يقول ميشيل .

لكن جيرالد بول لم يكن في مزاج مؤات للمزاح في الآونة الأخيرة ، منذ أن « بدأوا بغزو » شقته .

بالتأكيد كانت هذه « الغزوات » ثقيلة الحضور في ذهنه وهو يطير من فرانكفورت إلى بغداد . كان في طريقه إلى شمال العراق الجبلي ، إلى موقع عسكري ناءٍ يخضع لحراسة عسكرية مشددة ، يبعد حوالي 50 كلم عن مدينة « نينوى » الأثرية ، التي كانت قبل 2700 سنة عاصمة أقوى امبراطورية في العالم . كان بول ذاهباً إلى هناك بصفته ضيفاً على صدام حسين ، الذي يدّعى أنه . . . وريث نبوخذ نصّر الأسطوري ، ملك البابليين القدماء . لم يكن الرابط بين صدام والعصور القديمة رابطاً من صنع الخيال ، فأسلوبه لم يكن يختلف عن أسلوب القدماء الذين كان معجباً بهم . على نصب تذكاري حجري ، ما يزال موجوداً في « نينوى » كتب أحد الحكام الآشوريين مفتخراً : « ثلاثة آلاف أسير أحرقتهم بالنار . لم أترك أي رهينة حيّاً . قطعت أيدي وأقدام البعض . قطعت أنوف ، أذان وأصابع آخرين . قلعت عيون عدد كبير من الجنود . العذارى أحرقتهم بما يشبه المحرقة » .

في ذلك الوقت لم يكن بول يصدق أياً أو شيئاً من الاتهامات التي تطلق ضد صدام ، معتبراً إياها حملة إعلامية ينسقها أعداء العراق ، الذين كانوا كثيرين . الحرب المدمرة مع إيران كانت قد انتهت منذ شهور قليلة ، وقد تحول الغرب فجأة من دعم العراق إلى إدانة وضعه الشاذ . ولم يثق بهذا التغير السريع في السياسة ، وظن أنه مجرد « سياسات قذرة » .

عندما اتصل العراقيون أول مرة بجيرالد بول عام 1987 كان بحاجة ماسة للعمل . وما أثار دهشته هو أنهم وافقوا على كل ما اقترحه ـ نظاما مدفعية تقليديين ، والأهم بالنسبة لبول ، فكرة المدفع العملاق . فمنذ عام 1967 كان يتوق لإيجاد داعم للمدفع العملاق . حاول بيع هذه الفكرة تقريباً لكل شخص تصور أنه قد يكون مهتماً : الناتو ، البنتاغون ، كندا ، الصين وحتى إسرائيل . وكما بدا فإن أحداً لم يكن مستعداً لإنفاق المال على مدفع يمكنه إطلاق أقمار

اصطناعية . لكن العراق أحب الفكرة . رأى فيها صدام مشروعاً يؤمن له وهجاً ومنزلة ومستشاروه العسكريون كانوا يتلذذون بفكرة امتلاكهم أكبر مدفع في العالم . حتى لو لم يكن المدفع سلاحاً بحد ذاته ، لكن عدواً لا يمكن أن يشعر بالأمان ضمن مداه ، غير المحدد ولكن الواسع جداً بالتأكيد .

مقابل طلبيات المدافع المستعجلة والموافقة على تنفيذ مشروع المدفع العملاق ، وافق بول أيضاً على مساعدة العراقيين في ميادين أخرى . وقد أصبح الآن واثقاً من أن أعداء العراق قد اكتشفوا ذلك . وبالتأكيد هذا هو سبب « الغزوات » الغامضة على شقته وترك أدلة واضحة . كان يتلقى تحذيراً . شخص ما يقوله له أن يتخلى عن الصفقة مع العراق . لكن بالرغم من إرتعابه إلا أنه لم يكن قادراً على ذلك لأن ليس لديه زبائن مهمين ، ولم تكن هناك عقود كبيرة تساعد شركته على الاستمرار. . . ثم إنه كان يكبر بالسن ـ قد تكون هذه فرصته الأخيرة لبناء المدفع العملاق . على الأقل فإنه حتى الآن ما زال مستعداً لتحمل المخاطر ـ واستخدام الحبوب عندما يعصى عليه النوم بسبب القلق .

ما لم يكن يدركه عندما وصل إلى مطار صدام الدولي ، في بغداد ، هو أن العراقيين كانوا بصدد استغلال زيارته لتوريطه أكثر في مخططاتهم الأكثر سرية وخطورة .



الجزء الأول

ومضات وعتمات

1

الدرب الذي أوصل جيرالد بول إلى العراق كان طويلاً وشاقاً . ولن يكون غريباً جداً التخمين بأن جزءاً من الشحنة العاطفية التي أوصلته إلى هناك قد تجمعت بداخله منذ طفولته . ذلك أنه بدأ حياته مع كل المزايا التي لأوليفر تويست . كانت طفولته أشبه ما تكون خارجة من روايات ديكنز . وبعد خمسين سنة كانت ما تزال تسكنه ، حتى وهو وسط صفقاته الدولية للأسلحة . « توابيت . . . هذا ما أتذكره من الطفولة . . . توابيت » قد يقول . ما كان جيري يريده هو قبول الآخرين به . كان بحاجة للإحساس بأن ثمة مَنْ يحتاج إليه . وصدام حسين كان بحاجة إليه .

ولد جيري في نورث باي ، أونتاريو . على بعد 350 كلم شمالي تورونتو. تقع نورث باي على طول « طريق نيبسينغ » الذي يسلكه تجار الفرو . كانت مركزاً رئيسياً للفرو ، أغلبية سكانها بريطانيو الأصل مع وجود كبير لكنديين من أصل فرنسي . كان بول على طرفي هذا الانقسام .

كان الابن التاسع لجورج ال .توسانت بول ، محامي مدمن على الكحول ، ولزوجته الكاثوليكية جيروترود لابروس . كانت بداية مفرحة إن لم نقل مبشرة بالسعادة . لم تكن جيرترود تعرف شيئاً تقريباً عن والدها ، وهو منقب عن الذهب يتكلم الفرنسية يدعى نابوليون . كان نابوليون مشهوراً محلياً لما يُحكى عن قيامه بعبور البحيرات الكبرى بواسطة قارب صغير . وذلك في أواخر 1870 ، تابعاً الأنهار وصولاً إلى داكوتا الشمالية ، حيث قاتل هنود الـ « كري »

وأصيب بسهم في ساقه . بفضل هذه المغامرة الجريئة ، إضافة إلى أحلامه بوجود عروق سميكة من الذهب تنتظر فقط من يضع يده عليها في البراري التي لم تطأها قدم الإنسان بعد ،تمكن نابوليون من أسر قلب إيزابيل باركر ، من أهالي منطقة غلينغاري . وقد استقر الإثنان في نورث باي ثم ترك نابوليون زوجته وذهب يسعى وراء الحظ في الأدغال وعاش بين هنود الغوغوين المحليين . حاولت إيزابيل الإنضمام إليه ، وبقيت حوالي سنة في معسكره ، على جزيرة وسط بحيرة نائية ، غير أنها لم تستطع تحمل ظروف هذه الحياة ؛ ذباب أسود وشتاء قاس والعيش داخل كوخ لا يوجد فيه مرحاض . لم يجد نابوليون الذهب أبداً ، وأصبحت زياراته إلى إيزابيل في نورث باي نادرة . وعند نهاية القرن كانت إيزابيل قد أنجبت أربعة أطفال . في تلك الفترة تقريباً انقطع نابوليون كلياً عن زيارتها ، وقد سمعت إيزابيل أنه يعيش مع امرأة هندية .

ولدت جيرترود عام 1893 ، وكانت البكر . ولأن العائلة كانت تكافح لتأمين لقمة العيش ، فقد تركت مدرسة الراهبات في سن الخامسة عشرة للعمل في مكتب جورج ال .توسانت بول ، وهو محامي غير بارع كان قد انتقل من تورنتو . تزوجا في شهر شباط/ فبراير 1909 في كاتدرائية القديسة ماري للروم الكاثوليك . كانت جيرترود في السادسة عشرة من العمر ، وجورج في الخامسة والثلاثين .

انغليكاني غير ممارس ، كان جورج يفتخر بتبجح بأنه سليل عائلة موالية للإمبراطورية ، وكان مؤمناً بأن عائلته قد حاربت إلى جانب البريطانيين أثناء الثورة الأميركية ، في الثمانينات من القرن السابع عشر ، حيث استقرت قرب كرينتون ، على الشاطىء الشمالي لبحيرة اونتاريو . وبرغم ضغوط عائلة لابروس رفض التحول إلى الكاثوليكية .

كان جورج قد تخرج من مدرسة « أوسغوود هول » للقانون عام 1898 ، وبعد ست سنوات من العمل في مؤسسات قانونية قرر أن يجرب حظه مستقلاً ، كمحامي دفاع عن المجرمين ، في نورث باي ، جيث رأى فرصة هامة ليبني لنفسه اسماً . كان يطارد المحاكم الجوالة ، شمالاً وغرباً وشرقاً ، مغطياً منطقة تمتد لخمسمائة كلم في كل اتجاه ، وكان زبائنه من المنقبين وناصبي الأفخاخ

وعمال المناجم والمستوطنين الذين لم يكونوا قادرين على دفع فواتيرهم .

الطفل البكر لآل بول كانت بيرنيس التي ولدت بعد تسعة شهور من الزواج . وعلى مدى ثماني عشرة سنة أنجبت جيرترود ثمانية أطفال غير بيرنيس : هنري ، أزموند ، أودري ، سلايد ، فيفيان ، رون ، فرانك ، وجيرالد فنسنت الذي ولد في 9 آذار/ مارس 1928 . دخل الصغير جيرالد إلى عالم غير آمن مالياً . كانت أسواق البورصة قد بدأت بالإنهيار ، وقبل أن يتم سنته الثانية دخل العالم فترة الكساد الكبير .

خلال السنوات كان جورج قد انتقل من مكتبه الأصلي العتيق ، شبه المهدم ، إلى مبنى أكثر فخامة ، وكان يشق طريقه في السياسة بين عامي 1920 و 1925 كان عضواً في مجلس إدارة المدرسة . وفي عام 1923 كان مرشح المحافظين عن قرية ستورجيون فالس الصغيرة في الانتخابات المحلية لمقاطعة أونتاريو . وقد هُزم بفارق كبير على يد الليبرالي زوتيك ماغيو « الفرنسيون هم الذين هزموني » قال شاكياً « لقد كان هناك الكثيرون منهم » .

وإذ أوشك العقد الثاني من هذا القرن على الانتهاء حتى كان الكساد قد ضرب نورث باي ، فانهارت أعمال بول . في ربيع 1930 حمّلت جيرترود عائلتها وأثاثها في قطار متجه إلى تورنتو ، حيث كان جورج موعوداً بعمل لدى صديق ثري . استأجروا بيتاً في شارع روشتون ، في منطقة هادئة يسكنها أناس من الطبقة المتوسطة ، وفي نهاية الصيف كانت جيرترود حبلى من جديد .

« بدت أمي سعيدة بإنجاب الطفل ، لكنني لم أكن سعيدة ، كنت أعتقد أن ذلك كثير جداً » تقول بيرنيس ، التي كانت في ذلك الحين ، في الواحدة والعشرين من العمر ومتزوجة . ولد غوردون في 27 شباط/ فبراير 1931 . وتقريباً بعد الولادة مباشرة ارتفعت حرارة جيرترود كثيراً فأعيدت إلى المستشفى . تدهورت حالتها وتوفيت في 1 نيسان/ إبريل 1931 . تقول بيرنيس : « كان تعفن دم . كان لدى الطبيب امرأتان ، أمي وسيدة أخرى ، وكلتاهما توفيتا . أبي كان يقول دائماً إن الطبيب لم يعقم أدواته » . وهكذا أصبح جورج ، وهو في سن السابعة والخمسين ، وحيداً مع عشرة أطفال ، خمسة منهم تحت سن الثانية

عشرة ، ولأنه لم يكن رجلاً حازماً وذا إرادة قوية ، فلم يكن قادراً على تدبير شؤون هذه العائلة الكبيرة .

أنقذت العائلة مؤقتاً بفضل أخت جورج العانس ، لورا ، وهي ممرضة تعرف كيف تمسك بزمام الأمر . وقد أصرّت أن ينتقل جورج وأطفاله للعيش معها ؛ كانت تسكن في بيت آل بول ، بيت قديم الطراز سقفه من القرميد الأحمر ، يقع في دونداس ستريت ويست ، في ترينتون .

كان جيري يتذكر العمة لورا بصفتها « أمه الثانية » . لقد حافظت على تماسك العائلة في وقت صعب للغاية . كان جورج قد ترك عمله في تورونتو ولم يستطع إيجاد بديل يعتاش منه في ترينتون . فبدأ يجلس في البيت طوال النهار ، يشرب الكحول . في آب/ أغسطس 1932 اعتلت صحة العمة لورا وفي يوم عيد الميلاد ، من السنة نفسها ، توفيت بالسرطان . « دفنت أمّين قبل أن أبلغ الخامسة من العمر » قال بول .

لم يكن ممكناً أن يسد جورج الفراغ الذي تركته لورا . ورغم كونه متعلماً إلا أنه لم يشجع أطفاله على البقاء في المدارس . كانت بيرنيس قد تزوجت . فخرج الثلاثة الأكبر سناً للعمل والاهتمام بأنفسهم ، أما الستة الباقون فكانوا يتنقلون للعيش لدى سلسلة من الأقرباء يتوزعون بين وينيبيغ ومونتريال . في كانون الأول/ ديسمبر 1934 تزوج جورج روز جان بليكير ، أرملة في السابعة والخمسين من العمر ، وكانا يعرفان بعضهما من أيام المدرسة الثانوية . جرى الاحتفال في سيمكوى قرب شواطيء بحيرة أريي . لم يحضر أي من أبناء جورج العشرة ، كما لم يرد ذكرهم في الإعلان الذي نُشر عن الزواج . كانوا قد أصبحوا فعلياً يتامى . حتى أصغرهم ، غوردون وجيري ، لم يتلقيا أبداً من والدهم بطاقة معايدة أو هدية في أعياد الميلاد وفي أعياد ميلاديهما . « الواضح أن روز لم ترغب بأن يتعبها أولاد امرأة أخرى، وقد جاراها والدي في ذلك» يقول غوردون.

لم يذكر جيرالد بول والده أبداً في حياته لاحقاً ، لكنه كثيراً ما تحدث عن والدته . حاول إيجاد صورة لها ليحملها في محفظته ، وكان يأخذ بالبكاء لمجرد التفكير بالمصير الذي لاقته .

« في كل أول نيسان/ أبريل كان يتحدث عن موت والدته » يتذكر ابنه ميشيل . كانت خمس وثلاثون سنة كاملة قد انقضت على وفاة جيرترود ، وكان ميشيل ووالده مسافرين إلى الصين لإتمام صفقة سلاح . الرحلة تستغرق تسع عشرة ساعة ، وكان د. بول يشرب الخمر . خيم صمت طويل وبدا الرجل الأكبر سناً وكأنه بدأ يثمل عندما مال فجأة صوب ابنه وقال : « اليوم . هل تعرف ما هو التاريخ ؟ » عرف ميشيل جيداً ما كان والده يتحدث عنه ، لكنه قرر أن يمازحه . فأجاب : « أجل إنه الأول من نيسان/ إبريل » . ألح والده « أجل ، لكن هل تعرف ما هو هذا اليوم ، ما هو الأول من نيسان ؟ » قال ميشيل : « حسناً إنه يوم كذبة الأول من نيسان ، ولكن . . . » قاطعه د. بول وقد بدا عليه الغيظ : « لقد أخبرتك مرات عديدة . إنه اليوم الذي توفيت فيه جدتك . إنها مسجّاة في قبر بلا شاهد يعرّف بها، في تورونتو» وترقرقت الدموع من عيونه . ومع ذلك لم يرد ميشيل أن يدع والده يفلت باسترساله في العاطفة ، التي بدأ ينغمس فيها . « قررت أن أكون قاسياً قليلاً مع والدي . وهكذا قلت له إنه أمر محزن أن تُدفن بدون حجر أو أي شيء يدل على قبرها ، وسألته لماذا لا يعود إلى هناك ويبحث عن القبر ويضع حجراً عليه » . عند ذلك صمت بول من جديد . « لم يكن يريد سماع تلك الفكرة العملية ، لأنه كان شخصاً عاطفياً جداً . كان يستلذ في إبقاء الحنين بداخله » .

بعد فترة قصيرة من وفاة العمة لورا انتقلت بيرنيس ، التي كانت قد أنجبت طفلين ، إلى قرية صغيرة على شاطىء بحيرة شاربوت ، على بعد 60 كلم شمالي كينغستون ، حيث يعمل زوجها في منجم صغير للمَيْكة (مادة شبه زجاجية يمكن أن تشطر إلى رقاقات تستعمل عازلاً كهربائياً) . وعلى عكس والدها ، كانت بيرنيس قادرة على تحمل المسؤولية فأخذت معها أخوتها الصغار : رون ، فرانك وجيري .

كونهم عاشوا أشبه بالغجر ، في بيوت لم يكن مرغوباً بهم عموماً ، فات الأولاد الكثير من الدراسة . لكن بيرنيس أدخلتهم إلى المدرسة في أيلول/ سبتمبر 1935 . لم يكن المال متوافراً ، وبالكاد تمكنت بيرنيس من إطعام أخوتها خلال فصل الشتاء ، وكان جيري قد بلغ الثامنة من العمر .

في هذه الأثناء كان أخو جيرترود الأصغر ، فيليب لابروس ، يتقـدم في عمله في المكتب الكندي لشركة برونسويـك، شركة أميركية تعمـل في مجال تجهيز قاعات البولينغ والبلياردو . كانت الشركة قد نقلته إلى وينيبيغ وهناك التقى فيليب ، اللطيف والمعسول الكلام ، أديت كيلي ، وهي امرأة بارعة في السيطرة على كل ما تصادفه أمامها . تزوجت أديت فيليب في أواخر العشرينات من هذا القرن . رزقا طفلين لكن كليهما ولدا بعاهات خطيرة فماتا بعد وقت قصير من ولادتيهما . وبعد الولادة الثانية أخبرت أديت بأنها لن تستطيع الحمل ثانية . في هذا الوقت ، نقلت الشركة فيليب إلى مونتريال . كان الكساد ما يزال في ذروته عندما ابتاعت بطاقة في السويستيك الايرلندي (السويستيك: ضرب من المراهنة على الخيل يكسب فيه الرابح مجموع أو معظم الأموال المراهن بها) وربحت حوالي 175 ألف دولار . في عام 1935 كان مبلغ كهذا يساوي ثروة . فـإذا استثمر بطريقة حكيمة لكان كافياً لفيليب وأديت للعيش براحة بقية العمر .

اشتريا بستان غلين سان لورنس للتفاح ، الذي تبلغ مساحته 16 هكتاراً ويطل على النقطة التي يلتقي فيها نهر سان لورنس ببحيرة أونتاريو ، حوالي ستة أميال شرقي كينغستون .

في الصيف الأول بعد امتلاكهمـا البستان كـان التفاح بحاجة للقطف ، فانطلق فيل وأديت شمالاً إلى بحيرة شاربـوت وأحضرا رون وفـرانك وجيـري معهما . رون وفرانك كرها ذلك جداً . ففي حين كان العم فيل متساهلاً بعض الشيء ، كانت العمة أديت لا تفـوّت فرصة للإنتقاد وإخبارهم بـالتفصيل عن والدهم « الشائن » . أخبرتهم أنه سكير وأنه أسـاء معاملة والـدتهم ، وأنها إذا أساؤوا التصرف سترميهم خارجاً ليعودوا سيراً على أقدامهم إلى شاربوت . رون وفرانك استاءا وأصبحا مشاكسين . أما جيري ، لكونه أصغر منهما وأكثر طوعاً ، سعى جـاهداً للحصـول على رضاهـا .

عند انتهاء الصيف أُعيد الأولاد الثلاثة إلى شاربوت . وقالت أديت لبيرنيس أنها ستكون سعيدة إذا ما عاد جيري للعيش معهما في البستان . لم تحب بيرنيس الفكرة لأنها لم تكن تحب أديت . شعرت أن أديت تريد طفلاً لأنهـا لم ترزق بطفل . لكن أديت لم تكن تهتم فعليـاً بالأطفـال بقدر مـا كانت مهتمـة بفكرة

الأطفال . « أرادت أديت طفلاً لا يشكل لها أي مشكلة » تقول بيرنيس . « لم تكن تريد أي تعقيدات كما لم ترد أي التزام » . كانت الأوضاع في شاربوت تتدهور ، وهكذا أجبرت بيرنيس على التفكير بعرض أديت ، ومع ذلك فإنها نحت جيري جانباً وسألته ما إذا كان يريد فعلاً العيش مع العمة أديت. مأخوذاً بالاهتمام والحب والعاطفة ، التي لم يذقها فعلياً منذ وفاة أمه ، وأيضاً-لرغبته بإسعاد الآخرين ، قال جيري أنه إذا أرادت العمة أديث أن يعيش معها فالأمر جيد بالنسبة له .

وهكذا أعطت بيرنيس مكرهة موافقتها وانتقل جيري للعيش مع آل لابروس . بعد ذلك لم يعد قريباً أبداً من عائلة بول . وكانت العمة أديت تسعى للتأكد من ذلك .

بعد سنوات ، عندما سُئلت أن تتذكر كيف أتى جيري معها ، قالت أديت أنها عندما أرجعته إلى شاربوت عند انتهاء الصيف وجدت حقيبته فارغة . كان يريد العيش معها إلى درجة أنه ترك ثيابه وراءه . بعد ذلك ، كيف كان بإمكانها أن تفعل شيئاً غير إرجاعه معها ؟ .

جيري لم يكن على علم بذلك ، لكنه في السنة التي ذهب للعيش مع فيل ، الخنوع ، وأديت المتسلطة ، فقد جده . ففي ذاك الشتاء مات نابوليون متجمداً من الصقيع في معسكره على الجزيرة . وكإبنته دُفن نابوليون في قبر بلا شاهد .

2

سجّل فيل وأديت لابروس جيري ، البالغ من العمر ثماني سنوات ، في مدرسة ريفية تتألف من غـرفتين ، وذات سقف قرميـدي ، ولا تبعد كثيـراً عن البستان . كان العم فيل قريباً من أخته جيرترود وكان الآن يفعل ما باستـطاعته لجعل طفلهـا سعيداً . كان يمسك بيد جيري ويأخذه في نزهات داخل البستان . العمـة أديت أيضاً ازدادت حـرارتها تجـاهه لكن ليس إلى حـد احتضـانـه بين ذراعيها . وكان جيري يتذكر كيف أنها كيفت ودّهـا نحوه . إذا أبلى جيـداً في المدرسة كانت تمدحه ، لكن إذا كانت علاماته غير جيدة خيم صمت مدة ساعات داخل البيت .

في موضوع واحد لم تتساهل العمة أديت، هو أقرباء جيري من عائلة بول . كانت لا تحبهـم ، كما كانوا لا يحبونها . بالنسبة لها كان والد جيري هو « الوغد الأكبر . إنجاب هذا العدد الكبير من الأطفال هو الذي قتل جيرترود » . هذا ما كانت تقوله ، ثم على أي حال ما شأن رجل بسنه ليتزوج من فتاة عمرها ست عشرة سنة ؟ وعندما تبلغ ذروة انفعالها كانت تستحضر ما حصل بتفصيل إلى حد أن فيل كان ينفجر بالبكاء . عند ذلك كانت أديت تميل صوبه قائله « توقف عن العويل » . جيري كان شاهداً على كل ذلك . يقول ميشيل بول : « أعتقد أن العمة أديت زرعت بعض القصص المرعبة . وربما هذه القصص أدت غايتهـا جيداً . ليس فقط أنه ما عاد يريد أن يربطه شيء بوالده ، بل أنه حتى لم يقم بأي محاولة للإتصال بإخوته وأخواته . وهذا الموقف حمله في داخله طوال حياته » .

لم تترك العمة أديت جيري ينسى كم هو محظوظ لعيشه في البستان . قالت إن والده لا يريده ، وبيرنيس لا تستطيع إعالته ، ولـولا كرمهـا لعاش في ميتم

ربما . بعد سنوات كان جيري ما يزال يتذكر أنه إذا عصى العمة أديث كانت تهدده بإرساله « بعيداً » .

العم فيل كان متفهماً ودافئاً ، لكن لم يكن ليعارض زوجته أبداً . مثل والد جيري ، لم يكن فيل رجلاً يأخذ موقفاً ويتشبث به . كبر جيري بين نساء قويات ورجال ضعفاء .

ربما لم تكن العمة أديت بديلة مناسبة عن الأم ، لكنها ذات تأثير كبير . كانت مستبدة ذات خلفية محافظة تتمحور حول آراء قوية تعبر عنها كحقائق غير قابلة للنقاش . كانت لديها نظريتان مفضلتان ، كلتاهما تركتا تأثيراً كبيراً على هذا الصغير الذي تتحكم به .

النظرية الأولى هي أن الشيوعيين شياطين متجسدين خرجوا للسيطرة على العالم . وفي أي وقت يمكنهم إرسال أي شخص يجرؤ على التعبير عما في فكره إلى مناجم الملح . بعض أسوأ حملات التطهير التي قام بها ستالين ، كانت تأخذ مجراها في ذلك الحين ، وقد وفرت لها الصحف الكثير من الذخيرة . كانت أديث حازمة وآمرة إلى حد أن جيري ، على ما يبدو ، قد بلع كل ذلك بدون سؤال .

النظرية الثانية تتعلق بمكافآت العمل . الذين يشقون بالعمل هم الذين يثرون ، في حين أن المشاغبين والمتسكعين ينتهون إلى العوز والفقر . لتوضيح ما هو جليّ ، كانت أديت تقول له إنها وفيل يعيشان في بستان قديم جميل ، في حين يعيش أفراد آل بول ، عديمي النفع ، في حالة مزرية . ولا يمكن معرفة السبب الذي كان يمنع جيري من تذكيرها بأنها ربحت أموالها في اليانصيب .

اكتشف جيري مبكراً أن الطريقة الأكيدة لكسب رضى العمة أديت هي أن يكون متفوقاً في صفه . وهكذا ، وفي سبيل كسب ودها ، أصبح تلميذاً متألقاً . لكنه ، وهو الذي يعيش في ظل عمته القوية ، أصبح أيضاً انطوائياً وهادئاً ، لا يتكلم إلّا عندما يوجه إليه سؤال . لم يكن في الجوار أطفال . فكان جيري يقضي ساعات لوحده ، في غرفته ، يقرأ وينجز فروضه ويحدق ببستان التفاح . يقول أكبر أبناء جيري ، فيليب : « شعر والدي بوحدة قاسية . هذه العزلة تركت علامة عميقة في شخصيته » .

أحلى فترة لجيري خلال الأسبوع كان يوم السبت ، عندما كانت العائلة تذهب إلى كينغستون للتسوق في الصباح وتمضي فترة بعد الظهر مع شقيق أديث بوب كيلي وزوجته وأطفاله المراهقين : جسي (19 عاماً) غوردون (18 عاماً) وبوب (16 عاماً) . وسط آل كيلي وجد جيري ثلاثة أبناء عم يأخذونه بالأحضان ويرحبون به في عالمهم الدافىء والآمن .

جسي اعتبرت جيري يتيماً مسكيناً فسعت جهدها لجعله مدللاً على الأقل لنصف يوم في الأسبوع . من الطبيعي أن لا يكون هناك الكثير مما يمكن أن يفعله غوردون وبوب مع ولد في الثامنة من العمر ، لكنهما بضغط من جسي امتنعا عن أي ارتباط بعد ظهر كل سبت ليبقيا في المنزل ، وما كانوا يفعلونه هو الكلام ، وفي المطبخ الدافىء في كينغستون خلال شتاء 1936 قام جيري بالكثير من الإصغاء وهو جالس قرب جسي على صوفا قريبة من المدفأة . وبينما كان الثلج يتراكم عالياً بالخارج ، شعر جيري بالدفء وبأنه مرغوب فيه من قبل أبناء عمه الأكبر سناً .

لم يرَ جيري أيّاً من أفراد عائلة بول قبل الصيف التالي ، عندما جاء شقيقاه رون وفرانك مع زوج بيرنيس لزيارته . كان جيري وراء البيت يتحدث مع غوردون كيلي . أرشدتهم العمة أديت إلى الطريق ونادت لجيري : « جاء أبناء عمك الريفيون » . هذه الملاحظة صدمتهم بعمق وتوقعوا أن يفعل جيري شيئاً ما ، لكنه كان خجولاً جداً في ترحيبه بهم وبدا غير مبال حيال الطريقة التي تكلمت بها العمة أديت . فغادروا بإحساس أنه أصبح في صفها . الآن أصبح واحداً من لابروس . وقد انقضت عشر سنوات قبل أن يروه ثانية .

في خريف عام 1938 ، بينما بدأ توزيع أقنعة الغاز في لندن ، ونيفيل تشامبرلين يحاول استرضاء هتلر ، خطط فيل وأديت لتمضية الشتاء في فلوريدا . وكان جيري ، بالطبع ، يشكل عائقاً لهما ، وكان الجواب ، كما قررت أديث ، تسجيله في مدرسة داخلية . وفي كينغستون توجد كلية ريجيبوليس وهي ثانوية يسوعية تضم قسماً للطلاب الداخليين ، ومعروفة بنظامها الصارم وبمستواها الأكاديمي العالي . الفكرة أسعدت فيل لأنه كان دائماً يشعر بالذنب تجاه ابن أخته ، الذي عُمّد كاثوليكياً ، لكنه لم يربَّ حسب الأصول الدينية . برغم أن

أديت قد تحولت إلى الكاثوليكية عندما تزوجت فيل إلاّ أنها سرعات ما تخلت عن هذا المذهب ، وبفضل تأثيرها أهمل فيل واجباته الدينية . وقد أُخبر جيري أن ذهابه إلى ريجيوبوليس قد يُسعد أمه في السماء لأنها كانت كاثوليكية ملتزمة .

باتصال هاتفي أجراه فيل مع إدارة المدرسة تم قبول جيري ، لكن عندما ذهبوا لتسجيله ، قبل يوم واحد من سفر فيل وأديت إلى فلوريدا ، أدرك المدير أن ثمة خطأً . فالمدرسة لا تستقبل أولاداً دون سن الثانية عشرة ، وكان جيري في العاشرة فقط ، أي صغيراً جداً على صفه . لكن تحت إلحاح فيل قبل المدير ، لكن بشرط التفهم الصارم بأن جيري سيُسجل لفصل واحد كنوع من الاختبار .

وهكذا تُرك جيري ليغرق أو يعوم في صف أعلى من فهمه وعمره بمرحلتين . لكنه كان تحدياً من النوع الذي صنع لمواجهته . وهذا ما سيدركه صدام حسين بعد خمسين سنة . جيري بول يتجاوب بشكل أفضل عندما تكون الاحتمالات لغير صالحه .

خلال الليل كان الطلاب الداخليون يستمعون في مهجعهم إلى الإذاعات الأميركية ، و في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1938 ، سمعوا أورسون ويلز يقرأ رواية هربرت جورج ويلز (1866 ـ 1946 ، روائي ومؤلف انكليزي يعتبر من أبرز كتّاب الرواية العلمية) التي تحمل عنوان « حرب العوالم » . وقد أثار ذلك ذعراً في نيويورك ، حيث صدق آلاف المستمعين أن الأرض قد غُزيت من قبل سكان المريخ . الأولاد في ريجيوبوليس لم ينخدعوا ، لكن هذه التجربة عرّفت جيري على الخيال العلمي وأوصلته إلى جول فيرن ، الذي ترك تأثيراً واضحاً عليه لاحقاً عندما بدأ اختبارات المدافع الضخمة . لقد كان الخيال العلمي الذي علّم جيري أنه لا توجد حدود لخياله ، وأن ينظر إلى ما وراء مدى التفكير المنطقي .

قد تبدو مفاجأة ، ولكن الأولاد الأكبر سناً احتضنوا هذا اليتيم الصغير بمحبة . كانت الحياة في البستان موحشة إلى حد أن وجوده وسط أولاد آخرين ، حتى لو كانوا أكبر سناً ، كان أمراً مثيراً .

مـرة ثانيـة سعى جيري لكسب رضى الآخـرين . ففي حين كان الأولاد الآخرون يتأففون من الكمّ الهائـل من الدرس الـذي عليهم إنجازه بعـد انتهاء الدوام ، كان جيري ينكبّ بكليته على الدرس . وعندما عاد العم فيل والعمة أديت من فلوريدا قبل عيد الميلاد كان المّدير قد غيّر رأيه تجـاه جيري . قـال لفيليب : « إنه فتى رائع . تلميذ ممتاز . سيء جداً أن يغيّر مدرسته في منتصف العام الدراسي » . وهكذا بقي جيري طوال خمس سنوات .

رئيس وزراء كندا ، ماكنـزي كينغ ، كان قد أعلن شكره للسيد تشامبرلين على سياسته المهادنة ، وعلى التضيحة بتشيكوسلوفاكيا . كانت أميركا الشمالية في مزاج انعزالي ، لكن تدريجياً ، ومع استمرار تقدم النازية بدأ الـرأي العام الكندي يتغير . في مهاجع نوم الطلاب كـان الحديث الأبـرز هو عن الحـرب واحتمال أن يرتدي الطلاب الأكبر سناً الزي العسكري تقريباً . كان سلاح الجو الأكثر إغراءً للشباب . الأخوان كيلي بدأا بالفعـل يتحدثـان عن الانضمام إلى سلاح الجو الملكي الكنـدي ، وفي ريجيوبـوليس أسس الطلاب فـرعاً لتعليم الطيران ، يرتبط به ناد لبناء نماذج الطائرات .

كان جيري صغيراً جداً على تعلم الطيران ، لكن في عيد الميلاد ذاك ، اشترى فيل وأديت له طائرتين من الخشب المقوّى . هاتان الطائرتان أطلقتا عنان مخيلته . فقد أمضى ساعات يضبط الأجنحة والتوازن لتحقيق مؤثرات إضافيـة خلال الطيران . مع حلول ربيع 1939 كان جيري قد أصبح عضواً رائـداً في النادي. لكن النماذج المصنوعة من طائرات تم شـراؤها من المتـاجر ، كـانت محدودة القدرات جداً في الطيران ، هذا ما قاله جيري لأستاذه في مادتي الفيزياء والكيميـاء ، ويلفريـد بروارد ، الـذي اقترح عليـه أن يحاول تصميم طـائرتـه الخاصة . وأن يحرص على تسجيل كل ما يلحظه من تأثير أي تغير على النموذج خلال التحليق .

في هذه المرحلة الحساسة جداً من عمره ، كان جيري ما يزال انـطوائياً وقليل الكلام . طفل حساس يعيش في ظل امرأة متبلدة الأحاسيس، فاعتاد على وأد عواطفه . في ذاك الصيف ، أمضى أمسيات كثيرة لوحده جالساً تحت أشجار التفاح . بدأ بكتابة الشعر لكنه كان محرجاً من ذلك . فأحرق كل دفاترهِ . كان

هناك الكثير من الرومانسية في داخله ، لكن فرصة التعبير عنها كانت ضئيلة .

خلال الأسبوع الأول من أيلول/ سبتمبر 1939 ، مع عودة جيري إلى ريجيوبوليس ، كانت ألمانيا قد هاجمت بولندا . وبريطانيا وفرنسا أعلنتا الحرب ، وبقيت كندا على الحياد لأسبوع . وفي العاشر من أيلول/ سبتمبر حذت حذو بريطانيا وفرنسا . لم يكن هناك تجنيد فوري ، لكن قبل نهاية السنة كان غوردون وبوب كيلي قد انضما إلى سلاح الجو .

مع انهيار فرنسا في صيف 1940 ، أُرسل غوردون وبوب إلى ما وراء البحار . وقبل أن يغادر ، اصطحب غوردون جيري في نزهة طويلة عبر البستان إلى ضفاف نهر سان لورنس . كان غوردون في الثانية والعشرين وجيري في الثانية عشرة من العمر ، لكنهما كانا أشبه بأخوين أكثر من ابنيْ عم . شرح غوردون أخطار الحرب ، وكم يختلف الطيران في قاذفات من طراز لانكستر وهاليفاكس عن اللعب بالنماذج . وكان جيري مرعوباً . في كل صباح كان طلاب ريجيوبوليس يصلّون للجنود والبحارة والطيارين الموجودين على خطوط الجبهة ، وكان الكهنة بانتظام ينتشرون بين الطلاب ليحدثوهم عن أهوال الحرب . وقد ألزم جيري غوردون بوعد الكتابة إليه . وهذا ما فعله .

الأب جو دريسكول . اس. جي. انضم إلى ريجيوبوليس لتعليم الانكليزية والتاريخ والدين ، في أيلول/ سبتمبر 1940 ، وهو يتذكر : « كان هناك اهتمام عميق بالحرب . بعض الطلاب الأكبر سناً بدأوا يسألون عن جدوى إزعاج أنفسهم بالدرس إذا كانوا سيموتون قريباً » .

في ذاك الخريف استقبل جيري زائراً . كان ذلك بعد انتهاء الصف ، وكان في قاعة الدرس . جاء من يخبره أن والده ينتظره في المكتبة . بوجل ذهب جيري لرؤية المدير وأخبره أن عمته وعمه قد أمراه بالتأكد من وجود شخص ما في أي اجتماع له مع والده . كلف المدير أحد الأساتذة لمرافقته فسارا باتجاه المكتبة حيث وجدا جورج بول جالساً على إحدى الطاولات الخشبية .

في اتصال مع بيرنيس ، الوحيدة من أبنائه العشرة التي ظل قريباً منها ، عندما كان جورج في كينغستون لعمل ما ، عرف منها أين يجد ثاني أصغر أبنائه .

كان قد توقع أن تغمر الفرحة ابنه عند رؤيته . لكن جيري تململ وبالكاد قال كلمة ، وبوجود الأستاذ لم تكن هناك فرصة لحوار حميم ، حتى لو كان جورج قادراً على ذلك . دام اللقاء أقل من ربع ساعة ، وانتهى عندما قال جيري أن عليه العودة لدروسه . لم يكن هناك ما يقوله الأب والإبن لبعضهما .

غادر جورج بمزاج كئيب . لم يستطع فهم لماذا كان الولد صعباً لهذه الغاية . « كان مؤلماً » قال لبيرنيس . جيري كتب إلى العمة أديت يخبرها عن هذه الزيارة ، وأعلمها أنه تبع نصيحتها وتأكد من وجود أستاذ معهما . بلا شك ، إنها فرحت لمعرفة أن اللقاء كان قصيراً . ولم يلتق جيري والده مرة ثانية أبداً .

عندما أسقطت طائرة يقودها أحد خريجي ريجيوبوليس فوق أوروبا ، قام جيري ببناء نسخة مطابقة للقاذفة هاليفاكس ـ طراز الطائرة التي أسقطت ـ وعمل على ضبط سرعتها بالنسبة إلى الهواء وارتفاعها عندما أصيبت بنيران المدافع المضادة للطائرات . وبعد قياس كل تفاصيل الحادثة قام جيري والسيد تروارد بإشعال النار في النسخة وأطلقاها من غرفة عالية في المدرسة ، وبكل رزانة قاما بتسجيل تأثير النار على مجرى طيران الطائرة . هذه التجربة سحرت جيري .

يقول الأب دريسكول : « كان تروارد أستاذاً عبقرياً ، وكان جيري متجاوباً بشكل خاص . في تلك التجربة، كان تروارد قد علّم جيري كيف يحسب السرعة وتأثير النار . إنه تروارد الذي علمه أن يكون علمياً . تذكر أنني أتكلم عن ولد في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر يمكن أن يجلس ويحسب على الورقة كيف أن مسار طيران قاذفة قد يتأثر إذا اندلعت النار في أحد جناحيها . أن يجد أستاذ تلميذاً كهذا فهذا لا يحدث إلاّ مرة في العمر » .

لا عجب أن الأساتذة في ريجيوبوليس كانوا مسرورين منه . عندما دخل إلى هذه المدرسة دُفع إلى الأمام سنتين ، لكنه تجاوب ليس فقط بأن جارى أترابه بل بالتفوق عليهم . ويتذكر فيل ماكارني ، الذي كان تلميذاً داخلياً أيضاً : «كان دائماً في طليعة الصف ، أو الثاني على الأقل ، وكانت مدرسة صعبة » .

إلى جانب العلوم والرياضيات ، التي كان موهوباً بوضوح فيها ، بدأ جيري يهتم أكثر بالشعر . كان يحب إلقاء القصائد ولم يكن صعباً عليه أن يحفظ غيباً

مقاطع طويلة . الأبيات التي كان يحبها أكثر كانت تلك المشحونة بالعاطفة والوحدة والحنين والموت المحتوم . وطوال حياته كان يسترجع هذه الأبيات . د. إيرفين غلاس ، وهو فيزيائي عمل جيري معه لاحقاً ، يتذكر : « كثيراً ما كان يستشهد بتنسيون ، خاصة البيت القائل : « الإنسان يأتي ويحرث الحقل ويتمدد تحته ، وغالباً ما كان يردد من مرثاة غراي : . . . ويترك العالم للعتمة ولي . اليسوعيون علموه الكثير من الشعر ، وأظن أن ذلك كان يريحه » . قرب نهاية حياته ، وتحت تأثير الضغط الكبير والخوف في بلجيكا ، قام جيري بنسخ أشعار كان قد تعلمها في ريجيوبوليس على نشرات رسمية للشركة كانت مخصصة لتفصيل أنظمة الأسلحة . في معظمها كانت قصائد عن الرب .

مع اقتراب نهاية عام 1940 ، احتاج الجيش الكندي لتوسيع قاعدة قرب البستان ، فألزم آل لابروس ببيع أرضهم . فاوضت أديت على السعر ، وانتقلت هي وفيل إلى تورونتو، حيث يمكنهما البقاء قرب استثماراتهما الأخرى . بقي جيري في ريجيوبوليس ، وقد عنى ذلك أنه كان يرى عمته أديت وعمه فيل فقط في عيد الميلاد وعيد الفصح والعطلة الصيفية . لكنه لم يتذمر من ذلك .

مرة دخلت أخته بيرنيس إلى المستشفى في كينغستون ، في فصل الشتاء ، فكتبت إليه تسأله أن يزورها. فعل ذلك ، وعلى مدى أكثر من شهر كان يذهب لرؤيتها يومياً تقريباً . أقلقها هدؤه ودعته للعودة للعيش معها . رفض جيري . ضغطت بيرنيس عليه للتحدث عن عائلة لابروس وقالت أشياء قاسية بحقهم لكن جيري أصرّ : « العم فيل جيد ، ليست هناك أي مشكلة مع العم فيل . فقط هي ، فقط العمة أديت » . إذن لمَ لا ينتقل للعيش في شاربوت ؟ « لا » قال جيري « إنها تدفع نفقات تعليمي » .

عام 1941 انضم جيري إلى نادي تعليم الطيران . وحصل على بزة سلاح الجو الملكي الكندي ، وخضع لدورة تدريب ضباط في جامعة الملكة ، في كينغستون . ومعظم العطلات الأسبوعية خلال الشتاء ، أمضاها عند آل كيلي . وفي أول إجازة يعودان فيها إلى البيت ، أشبع غوردون وبوب جيري بقصص الحرب والمهمات فوق أراضي العدو .

في 13 آذار/ مارس 1942 ضرب القدر . استدعوا جيري من الصف

لإخباره . فركض من المدرسة عبر شوارع كينغستون . قابلته جسي على الباب . كان الحزن يملأ البيت . غوردون كيلي ، ابن العم الذي جعل جيري فخوراً والذي كتب إليه من الجبهة ، قتل . كان في الرابعة والعشرين .

على مدى سنوات احتفظ جيري بحزنه لنفسه . لم يتحدث عن غوردون في المدرسة . ضاعف عمله واستخدم الدراسة الأكاديمية بلسماً . وضع خسارة غوردون في مرتبة خسارته أمه . فكّر بهما كبطلين ، ضحيتين . يقول ميشيل : « مرة أخذني أبي لمشاهدة فيلم عن معركة بريطانيا . عيناه كانتا مليئتين بالدموع . رآني أنظر إليه ، فقال : هناك خسرت غوردون ، في معركة بريطانيا » . وحتى بعد زواجه أبقى جيري صورة لغوردون قرب سريره .

جيري مجد إبن عمه . موت غوردون كان مأساة فعلاً . لكنه لم يكن أبداً طياراً مقاتلاً ، ولم يسقط خلال معركة بريطانيا . كان عامل راديو ورامي رشاش على القاذفة ، وقد قتل في حادث خلال التدريب :

الجزء الثاني

الى الأعلى والعمل

3

الشهور الأخيرة لجيري بول في الثانوية طغت عليها أخبار الحرب . الأولاد الأكبر سناً كانوا يتجمعون حول الراديو طوال الليل ، يهتفون ويصرخون عند سماع تقارير عن انتصارات الحلفاء . كلهم تقريباً كان لهم أقرباء أو أصدقاء يشاركون مباشرة في الحرب ، ومعظمهم كان يتوقع أن يأتي دوره قريباً . كانت سنة 1944 ، وبحلول نيسان/ إبريل كان الحلفاء يتمتعون بسيادة شبه كاملة فوق أجواء ألمانيا . تخرج جيري من رينجيوبوليس في الأسبوع الذي تلى إنزال النورماندي . كان قد أصبح في سن السادسة عشرة ، ومعدل « ب + » اعتبر استثنائياً بالنظر لسنه ولمقاييس المدرسة .

أراد أن يصبح طبيباً . ربما كان موت أمه ثم العمة لورا ثم غوردون وراء هذه الرغبة كان ولداً سريع التأثر وبقي هكذا طوال حياته . ربما فكر ، في لاوعيه ، أنه من خلال معالجة الآخرين يعالج ذلك الجرح الصامت في داخله . لكنه لم يكن مناسباً لهذه المهنة فقد كان يشعر بالدوار عند رؤية الدم .

مباشرة بعد التخرج ، اشتغل في البستان القديم ، في قطف التفاح . فالجيش بعد أن اشترى البستان قام بتأجيره لأحد المزارعين وأجّل عملية تطويره . فكّر جيري أن قطف التفاح سيؤمن له مالاً لدفع تكاليف الفصل الأول ، على الأقل ، إذا دخل كلية الطب . وهو إذا انضم إلى جامعة تورونتو سيوفر المال من خلال الإقامة مع عمه وعمته . وقد اتصل العم قبل بالجامعة فأخبر أن الفرع

الوحيد المتاح أمام ابن ست عشرة سنة هو الهندسة .

لِمَ إضاعة سنتين في عدم القيام بشيء حتى يبلغ الثامنة عشرة ، قالت العمة أديت ، الأفضل أن يدخل فرع الهندسة . وقد اكتشف فيل أن احتياجات الحرب قد أدت إلى ظهور اختصاص جديد في هندسة الطيران . في البداية أصرّت الجامعة على أن البرنامج قد يكون صعباً جداً على من هو في سن السادسة عشرة . لكن فيل ألحّ ، فوافقت الإدارة على رؤية جيري ، الذي أصبح فجأة مهتماً جداً بتعلم المزيد عن الطيران .

الدكتور ت. ر. « تومي » لودون ، البروفسور الذي سيرأس هذا الفرع الجديد ، كان المسؤول عن إجراء المقابلة مع جيري ، وقد سأله سؤالاً واحداً : « لماذا تريد أن تصبح مهندس طيران » . كان جيري قد تغير كثيراً في السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية . فالعلامات المتفوقة واحترام زملائه الطلاب له منحاه ثقة بالنفس إلى درجة أنه صار يشارك في النقاشات داخل المدرسة . لم يعد متردّداً في الكلام . وبالنسبة لعمره كان يعرف الكثير عن الطيران . وعلى مدى خمس عشرة دقيقة ناقش جيري المشاكل التي واجهها في تصميم أجنحة تؤمن أفضل « رفع » للطائرة المصنوعة من الخشب المقوّى .كان يعرف المشاكل ، قال ، وهو الآن يريد معرفة الحلول . لم يقاطع لودون هذا الشاب الصغير ، وعندما انتهى جيري اكتفى بالقول إنه مقبول .

انتقل جيري إلى تورونتو وسكن في بيت العمة أديت والعم فيل ، عندما بدأ العام الدراسي في أيلول/ سبتمبر . بعد عقد من العيش في كينغستون الناعسة ، كانت تورنتو الصاخبة بعدد سكانها البالغ ثلاثة أرباع المليون ومبانيها الضخمة وشوارعها العريضة ، مصدر إثارة وإلهام بالنسبة لجيري . كانت القاعدة الاقتصادية للمدينة متنوعة بشكل كبير ولم تكنْ قد أصيبت بالكساد الكبير مثل المراكز الصناعية الأخرى . الآن ، كانت الحرب قد حفّزت صناعات الطائرات وآلات القياس والألكترونيات . كانت تورونتو مدينة تنمو وتتطلع إلى الأمام ، إلى إزدهار ما بعد الحرب .

كانت الحرب تقدم خدمة عظيمة للعِلم الكندي ، وأصبح علم الطيران بالغ الأهمية مع قيام كندا بملء الأجواء بالطائرات المقاتلة للمشاركة في المجهود

الحربي ، وتدريب طيارين من كل أنحاء الكومنولث . في الوقت نفسه ، كانت جامعة تورونتو تتحول إلى مؤسسة دولية رئيسية ، تجذب الأساتذة من جامعات أوكسفورد وكامبردج وهارفارد . في الماضي كان علم الطيـران مجرد خيار ضمن برامج أخرى . في عام 1944 ، وللمرة الأولى أصبح اختصاصاً محترماً تستغرق دراسته أربع سنوات تحت إدارة البروفسور لودون، الذي تعود مؤهلاته في ميدان علم الطيران إلى العام 1908، عندما عمل بصفـة مهندس ميكـانيكي في بناء « سيلفر دارت » ، أول طائرة حلقت في الكومنولث البريطاني .

كان لودون مصمماً على إعطاء هذاالمقرر مكانة دوليـة . سيكون الأكثـر صرامة في فرع الهندسة . اثنان وعشرون طالباً فقط سيتسجلون ، بالإضافة إلى خمس محـاضرات ، كـل واحدة لمـدة ساعـة ، وثلاث سـاعـات من العمـل المختبري يومياً ، كانت هناك ثلاث ساعات أخرى من العمل المختبري صباح كل سبت ، وكانت المسائل الرياضية تُعطى خمس مرات في الأسبوع ، ليتم مناقشتها في اليوم التالي .

كان جيري الأصغر سناً بين زملائه . وللمرة الأولى منذ تـركه المـدرسة الريفية ، كانت هناك فتاتان في الصف ، وهذا أمر لم يكن مألوفاً كثيراً في تلك الأوقات . لم تكن له أي تجربة مع الفتيات ؛ لم يخرج أبداً مع فتاة . ولـم يتغير شيء في هذا المجال . حياته الاجتماعية كانت محدودة جداً ، ليس فقط بسبب المتطلبات الهائلة لدراسته الجامعيـة ، بل لأنـه أيضاً استلم عمـلاً جزئيـاً في مخزن بقالة .

كان جيري يقدر بعمق ما كان يفعله عمه وعمته له . لكان الأمر صعباً أن يذهب إلى الجامعة لولا مساعدتهما . قد تكون العمة أديث بخيلة بعـاطفتها ، لكن المال الذي ربحته في اليانصيب فتح أمامه فرصة التعليم . وقد رد جميلهما بالإخلاص لهما . لم يتذمر من أديث ، ولم يستعد ذكريات معاملتها الأولى له إلاّ بعد سنوات عندما أخذت عائلته الخاصة تطرح الأسئلة .

كان ممتلئاً بالثقة والمعنويات العالية عندما باشر دراسته الجامعية . « كان جيري فتى ذا عينين متقدتين » تقول كلير ايتوك، التي درست معه علم الطيران وهي الآن مهندسة في شركة « برات اند ويتني » في مونتريال . « كان مليئاً بالفرح

والطاقة وكثير المزاح من النوع الذي يمكن أن تتوقعه من تلميذ مدرسة ثانوية » . أحياناً كان يطلق طائرات ورقية من نوافذ الصف ، أو في قاعة المحاضرات عندما يدير الأستاذ ظهره .

طلاب صف علم الطيران كانوا يعتبرون أنفسهم مميزين . « كانت جامعة تورونتو رائعة بشكل لا يصدق ، وكنا نرى أنفسنا النخبة » . يتذكر كولين درونغ الذي جلس قرب جيري خلال الفصل الأول من المحاضرات .

في أيار/ مايو 1945 ، وبينما أوشكت السنة الجامعية الأولى لجيري على الانتهاء ، انتهت الحرب في أوروبا باستسلام ألمانيا بدون شروط . وفي ذاك الصيف بدأت عودة أفواج الجنود الكنديين إلى الوطن ، والكثيرون منهم قرروا استئناف دراستهم من حيث توقفوا عند تجنيدهم . وإذ فاضت الجامعة بالمحاربين القدامى ، بدأ الجو يتغير تدريجياً ، وبدأ جيري من جديد ينكمش داخل شرنقته . رجال في أواسط العشرينات من أعمارهم ، مع ثلاث أو أربع سنوات من المعارك وراءهم ، كانوا مذهولين عندما وجدوا أنفسهم يتلقون المحاضرات نفسها مع مراهقين مثل جيري بول . أحد هؤلاء المحاربين ، فرانك هوبارد ، يتذكر جيري في عام 1945 على هذا الشكل : « لم يكن يدخن ، لم يكن يشرب ، ولم تكن له رفيقة . كان فتى خجولاً بالفعل » . لم يعد هناك مجال لطائرات ورقية تطلق في الصف . المحاربون القدامى لا يمكنهم تحمل لعب كهذا .

كانت السنة الجامعية قد بدأت للتو ، في أيلول/ سبتمبر 1945 ، عندما انشق كاتب شيفرة يعمل في فرع الاستخبارات العسكرية في السفارة السوفياتية في أوتاوا . ايغور غوزينكو أخذ معه دليلاً وثائقياً وكانت شهادته مقنعة في إثبات ما كانت العمة أديت تقوله منذ سنوات، بأن موسكو تدير حلقات تجسسية وتحاول سرقة أسرار القنبلة الذرية وتخطط للتأثير على سياسة أميركا الشمالية من الداخل . كان العالم قد بدأ دخول حقبة الحرب الباردة . وقد تابعت العمة أديت التطورات بشغف، إذ أدت التحقيقات إلى اعتقال اثني عشر شخصاً ليس فقط في كندا بل وفي الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا أيضاً ، وبعدها اعتقال ومحاكمة كلاوس فوشس ، وفرار دونالد ماكلين ، وهستيريا الحقبة الماكارثية ،

وفي النهاية إعدام جوليوس وايثل روز بيرغ عام 1953 .

خلال هذه السنوات كان جيري في مرحلته الأكثر حساسية وسرعة في التأثر . معظم معلوماته عن الأحداث الجارية كان يتشربها من العمة أديث ، فأصبح بواسطة التناضح تقريباً ، معادياً جداً للشيوعية .وقد دعم موقفه هذا تدفق آلاف اللاجئين من دول البلطيق إلى كندا ، في سنوات ما بعد الحرب ، حاملين معهم حكايات عن قمع ووحشية السوفيات .

خلال سنتيه الثانية والثالثة في جامعة تورونتو غاص جيري في الدراسة ، في حين كان عالم تصميم الطائرات قد اصطدم بعائق سرعة الصوت ـ الحاجز الصوتي .

لكن في سنته الرابعة ، الأخيرة ، شهدت حياته الأكاديمية تغيراً جديداً . كان تومي لودون على وشك التقاعد . فتعاقدت الجامعة مع د. غوردون . ن. باتيرسون ، وهو رائد في الفوصوتيات (علم ظواهر فوق الصوتية) ، لتدريس مادة نظرية الدفق الفوصوتي . تتذكر كلير ايتوك :

« أصبح جيري مفتوناً بهذا الموضوع . غاص بكليته فيه . كان حماسه الشديد للمادة التي يدرسها باتيرسون مدهشاً . الفوصوتيات كانت معروفة قليلاً في ذلك الوقت . كنا عند الحد الفاصل ، حيث أراد جيري أن يكون ، على ما أظن » .

في ربيع 1948 ، تخرج جيري بشهادة بكالوريا علوم تطبيقية في هندسة الطيران ، ووقع عقداً للعمل لدى شركة أ. ڤ. روي للطائرات قرب تورونتو . كان عملاً قليل الشأن في قسم تصميم الطائرات ، وسرعان ما ملّ جيري منه ، وفي بداية الصيف أراد تركه . تدخل الحظ لصالحه .

فقد كان باتيرسون ، منذ فترة ، يحاول كسب موافقة الحكومة الكندية لتمويل أبحاث في مجال الفوصوتيات . كانت حجته ، أنهم إذا لم يفعلوا ذلك ، فإن الدفاع الوطني والصناعات الجوية ستتخلف عن اللحاق بالركب وسيعاني البلد من نضوب في العقل العلمي . على كندا أن لا تنتظر الولايات المتحدة وبريطانيا لتمرير التكنولوجيا إليها ، بل عليها تحقيق خطوات خاصة

بها . كان الأميركيون يجرون التجارب على الدفع الصاروخي والصواريخ . وقد بدأ الحديث جدياً عن اكتشاف الفضاء . وفي أعقاب الحرب ، كانت كندا قد بـدأت تشهد تـدهور الصنـاعات العسكـرية بعـد أن شهدت فتـرة من الإزدهار والربح . كانت هناك حاجة لخلق وظائف جديدة .

بعـد تذبـذب دام شهـوراً ، انتهى مجلس الأبحـاث الـدفـاعيـة التـابـع للحكومة ، بالموافقة على منحة متواضعة بقيمة 350 ألف دولار لتأسيس معهد علوم الطيران ، بإدارة باتيرسون ، في جـامعة تـورونتو . وكـان الهدف إجـراء اختبارات على الإيرودياميات (الديناميكا الهوائية) الفوصوتيات . قرر باتيرسون طريقة العمل على أساس استخدام أربعة خريجين جدد كـل عام ، يُدفع للواحد منهم أربعون دولاراً في الأسبوع ، ويُتركون لوحدهم للعمل في مشاريع أبحاث رئيسية . في الواقع ، فإنهم سيعلّمون أنفسهم بأنفسهم خلال القيام بعمل رائد . وكان على المعهد أن يعمل على مدار السنة ، بدون إجازة صيفية طويلة . تقدم جيري بطلب للعمل .

مجلس الأبحاث الدفاعية كان حريصاً على ماله فهيمن على لجنـة اختيار المتقدمين للعمل ، التي حكمت على جيري بأنه صغير جـداً ، غير نـاضج ، ويشكل مجازفة . في العشرين من عمره كان يبدو كإبن ست عشرة سنة . لكن باتيرسون أصرّ . كان يريد بول ، وبعد سنوات قال : « قبل التخرج كان أفضل من الطالب المتوسط المستوى ، ليس بارزاً . لكنه كان قد أظهر طاقة هائلة . لديه القدرة على الالتزام بوظيفة صعبة وجعل الأمور تسير » . وهكذا تم قبول بول .

بدأ مشروع شهادة الدكتوراه في أيلول/ سبتمبر 1948 . كـانت مهمته التحقق من المزايـا الايروديناميـة للأنفاق الهوائية الفوصوتية . لكن كان عليه أن يبني نفقاً في الدرجة الأولى .

المعهد الذي يحمل اسماً فخماً ـ معهد علوم الطيران ـ كان فعلياً عبارة عن غرفتين متلاصقتين في مبنى الهندسة المدنية التابع لجامعة تورونتو . الأولى في الزاوية واستخدمها باتيرسون مكتباً له . والثانيـة شغلها جيـري وتلميذ آخـر ، دوغلاس هينشو . في هذه الغرفة، بدآ ببناء نفق هوائي صغير ، كنموذج قبل بناء نفق كبير . قضيا ذاك الخريف في العمل على الحسابات الرياضية ، وبحلول

كانون الأول/ ديسمبر كانا قد عرفا ما يحتاجان إليه ، وبدآ بطلب الأدوات المعدنية . بعضها كان يجب صنعه خصيصاً . بدأت القطع ترد تباعاً على امتداد عدة أسابيع . وأخيراً ، بدأ بول وهينشو بالعمل على تجميعها . عملا طوال اليوم ، وعند منتصف الليل تقريباً أدركا أن النفق سيكون بطول مترين ونصف المتر ، أي 30 سم على الأقل أطول مما قدرا . عادة ، ليس الأمر مهماً ، لكن الغرفة التي كانا يشغلانها لم تكن تتسع ، المجال الوحيد أمامهما كان فتل النفق داخل الغرفة بشرط فتح ثغرة بقطر 25 سم عبر حائط مكتب باتيرسون . التقط بول مطرقة كبيرة .

عندما وصل باتيرسون إلى العمل في الصباح وجد صمام النفق الهوائي مغروزاً عبر الجدار قرب مكتبه . يقول البروفسور : « كانت تلك مجرد البداية . كنت قد بدأت بالتعرف على جيري بول » .

رغم نجاح النفق الصغير إلا أنه كان محدوداً جداً ليكون نموذجاً حقيقياً ، فبدأ بول وهينشو فوراً للعمل على نسخة أكبر . هذ المرة طلبا خزاناً معدنياً ارتفاعه مترين وقطره متر لاستخدامه كغرفة لتخزين الهواء . عندما وصل الخزان اكتشفا أن محل الحدادة الذي تولى صنعه قد أخطأ في القياسات ، فكان عريضاً جداً ، وإذا لم يكن ذلك ليؤثر على قيمته العلمية ، إلا أنه كان أعرض من باب الغرفة . لم يكن بول بوارد انتظار خزان آخر ، فتركه في الردهة بقية النهار وعاد في تلك الليلة ومعه مطرقة وإزميل لخلع إطار الباب . كان مدير المبنى غاضباً ، أما باتيرسون فلم يعلق على الحادثة .

بعد أيام قليلة سأل بول وهنشو البروفسور ما إذا كان يمكنهما إجراء بعض التعديلات على جدار مكتبه . الآن كانت الأمور قد ذهبت بعيداً إلى حد إكتفاء باتيرسون بهز رأسه . في اليوم التالي وصل إلى مكتبه ليجد أن بول قد عاد خلال الليل وهدم الجدار كلياً . لم يعد لديه مكتب . لم تكن حرمة خصوصية البروفسور لتقف بوجه بول . كان بول إذا واجهته محنة يرتجل حلاً ، وإذا وقف في طريقه جدار يهدمه . لاحقاً ، هذه الصفة هي التي جعلت بول مهماً بالنسبة لصدام حسين إنه من النوع الذي « لا يوقفه شيء » ، وقد دفع حياته ثمناً لهذه الميزة لاحقاً . حدث ذلك بعد سنوات طويلة . لكن كتلميذ ، فإن سلوكه هذا

جعله نجماً . وسرعان ما انتشرت القصص عن النفق الهوائي الذي يبنيه ، والذي كان قد أصبح كبيراً إلى حد كان على البروفسور أن يتسلق هيكلـه ليتمكن من الوصول إلى طاولته . في الزاوية البعيدة ، لما كان مكتباً له سابقاً .

ثم بدأت التجارب . مرات عدة في اليوم كان باتيسرسون يصاب بالصمم بفعل صراخ الهواء وهو يندفع داخل النفق الهوائي ـ بضعفي سرعة الصوت ـ . في صباح أحد الأيام ، تسلق باتيرسون هيكل النفق ، كالعادة ، وصل إلى طاولته ثم وثب فجأة. كان كرسيه مغطى بشظايا الزجاج . خلال الليل ، كان بول وهينشو قد زادا سرعة الهواء داخل النفق إلى ثلاثة أضعاف سرعة الصوت مما أدى إلى تحطم زجاج نوافذ المراقبة الموجودة في جانبه . وعلى مدى شهور ظل باتيرسون يجد شظايا الزجاج بين كتبه وأوراقه .

لكن النموذج نجح . وفي صيف 1949 قدم أطروحة نال عليهـا شهادة ماجستير في العلوم ، تقديراً لجهوده .

في آب/ أغسطس 1949 ، توفي جورج توسان بول عن عمر 75 عاماً . اتصل غوردون بول بجيري وطلب منه حضور الجنازة . كل الأبناء العشرة كانوا موجودين . كانت المرة الأولى التي يرى فيها بول معظمهم منذ تشتت العائلة قبل ستة عشر عاماً . « كان هادئاً جداً » . يتذكر غوردون .

بعد الجنازة ، عندما اجتمعت العـائلة ، سارت بيـرنيس بتشامـخ صوب جيري وسألته بصوت عالٍ ما إذا يريد أن يكون من آل لابروس . قالت إن آل لابروس كانوا دائماً يبغضون آل بول ، وهو الآن واحد منهم ؛ خائن . سألته كيف يستطيع البقاء في بيت العمة أديت بعد كل ما قالته بحق آل بول . أبمجرد أنها قادرة على دفع تكاليف تعليمه . يتذكر غوردون : « كان فظيعاً . بيرنيس جرحته في الصميم .حاولنـا كلنا إيقافها ، لكننا لم نفلح . لم يرد جيري . فقط ظل واقفاً وتقبل كل ما قالته . لكن بالتأكيد ، قد تأذى كثيراً » .

بعد ذلك لم يرَ بول أو يتصل بأي من إخوته وأخواته مرة ثانية أبداً .

في تورونتو ، كان باتيرسون قـد قدم تقـريراً متفـائلاً لمجلس الأبحـاث الدفاعية ، الذي أقنع سلاح الجو الكندي بإعطاء معهد علوم الطيران مكاناً أوسع

بكثير في مطار داونزفيو، شمالي تورونتو .

دراسات ما قبل التخرج كانت متطلبة كثيراً، لكن العمل بعد التخرج بمثل السرعة التي كان يعمل بها جيري بول ، كان غير صحي . أصبح عصبياً وسريع الاهتياج ، وهو يجهد نفسه أكثر فأكثر . بالنسبة لباتيرسون كانت مصاحبة الفتيات مضيعة للوقت وغير ضرورية . وفي المعهد حيث كل العاملين من الذكور كان الجو أشبه بدير للرهبان . والأصدقاء لا يتذكرون إلّا مرّة خرج فيها جيـري في موعد مع فتاة . هذه الفتاة تتذكر جيداً إلى أين صحبها : لرؤية النفق الهـوائي الذي يعمل عليه .

في خريف 1949 ، بدأ المعهد بناء نفق ضخم ، بكلفة 200 ألف دولار ، ليكون قادراً على إنتاج سرعة هوائية تبلغ سبعة أضعاف سرعة الصوت (8320 كلم بالساعة) . وبذا يكون واحداً من أكبر وأحدث الأنفاق المشابهة . وقد كُلّف بول بتصميم وإتمام دائرة الإختبار ، حيث يجب إنتاج أعلى سرعة للهواء .

الخزان الهوائي للنفق ، الذي ينتج الدفق الفوصوتي ، تم بناؤه من صفائح معدنية بسماكة سنتيمترين . ولأنه كان جسيماً كروياً بقطر 12 متراً ، فقد تم بناؤه ملاصقاً للجدار الخارجي للمبنى . زجاج نوافذ المراقبة على جانبي النفق كانت بسماكة ثلاثة سنتيمترات .

في أواخر صيف 1950 ، كان النفق على وشك الإنتهاء ، ووضعت خطط للإعلان عن افتتاح معهد علوم الطيران يكون متوجاً بعرض النفق الهوائي ، في 26 أيلول/ سبتمبر . وسيحضر بالإضافة إلى خبراء الطيران والدفاع الكنـديين رسميون يمثلون بريطانيا ، الولايات المتحدة الأميركية ، أوستراليا ، نيوزيلندا وجنوب أفريقيا . عِلى أن يقوم ماريشال الجو دبليو. أي. كورتيس ، قائد سلاح الجو الملكي الكندي ، بكبس الزر معلناً بدء التجربة الرسمية الأولى للنفق .

عمل باتيرسون وفريقه ليلاً ونهاراً لإكمال النفق . وفي الوقت نفسه ، كان جيري يشتغل على أطروحة الدكتوراه ، فكان يعمل على مدار الساعة، إما في المعهد أو في البيت .

في هذه الفترة صدف أن التقت كلير ايتوك بجيري في مركز الطلاب التابع

للجامعة . « لم أكن قد رأيته منذ حوالي ثلاث سنوات . كان هناك تغير دراماتيكي . كان قد أصبح متحفزاً جداً . كل المرح الذي أتذكره من أيام ما قبل التخرج قد اختفى . كان نحيلاً ومنحنياً . لكن ما أذكره على وجه التحديد سترته المثقلة بالأقلام والمساطر المرقمة والأوراق ، وطوال الوقت الذي كنا نتكلم فيه كان يحرك يده فوق سترته متحسساً أدوات عمله . كان عصبياً جداً وحائراً جداً » .

قبل ثلاثة أيام على موعد افتتاح المعهد . كان النفق كاملاً وجاهزاً لأول اختبار لطاقته القصوى . وما حدث لاحقاً يقدم صورة وافية عن الطبيعة الريادية لهذه المغامرة . كان الهواء يندفع زاعقاً ، والكل ينظرون عبر نوافذ المراقبة ، لكن الموجة الصدمية لم تحدث . لم يكن النفق قد بلغ حتى سرعة الصوت . هل يُمكن أن عملهم ، والمال الذي أنفق وهو بحدود 200 ألف دولار ، قد ذهب هباء بسبب حسابات خاطئة ؟

كان أفضل ما يأملون هو أن يكون هناك تسرب في الحشوة التي تبقي النفق محكم السد . باهتياج شديد ، بدأ باتيرسون وبول وبقية الفريق في تفكيك النفق . كان عليهم إزالة أكثر من أربعمائة عزقة ومسمار ملولب . وقد تنفسوا الصعداء عندما اكتشفوا وجود تسرب . كان منتصف الليل تقريباً عندما أصلحوا التسرب وأعادوا تجميع القطع . كان الخزان الهوائي يحتاج ساعة ليعود للضخ من جديد ، وقد تطوع جيري بالبقاء لإجراء تجربة أخرى ؛ في حين يذهب الآخرون إلى منازلهم للنوم . حوالي الوحدة فجراً ، كبس جيري الزر لبدء التجربة الثانية . زعيق يفلق الأذن ، وتشكلت موجة صدمية ، ثم دوى انفجار تحطم تبعه صوتان مكتومان . اهتز النفق ثم صمت كلياً . عرف بول ما حدث : دعامتان خشبيتان داخل النفق قد تخلعتا . إصلاح العطل كان يعني فك وإعادة تركيب الأربعمائة عزقة ومسمار . والآن كان بول وحيداً باستثناء ميكانيكيين . وأصحاب المقامات العالية سوف يصلون للإفتتاح الكبير خلال اثنتي عشرة ساعة .

كانوا قد بدأوا للتو في تفكيك النفق ، عندما دخل كينيث أف. توبر ، عميد دائرة الهندسة ، مرتدياً بذلة رسمية . كان يقود سيارته عائداً إلى البيت متأخراً

عندما رأى المعهد مُضاءً . خلع الجاكيت ، ووضع عليه السَّمَق (ثوب خارجي فضفاض يرتدي لوقاية الملابس من الاتساخ) وعندما كان على أحد منهم أن يزحف داخل النفق لحل المسامير الملولبة من الداخل ، أصرّ أن يفعل ذلك بنفسه . عند الساعة الخامسة والنصف كانت الدعامتان الخشبيتان قد أبدلتا والقطع أعيد تجميعها . هذه المرة اشتغل النفق كما يجب .

بعد ظهر ذاك اليوم ، كبس الماريشال كورتيش الزر لبدء الأختبار الرسمي الأول . لم يحدث شيء . قرب الحضور كان جيري قد بدأ يرتجف . تقدم باتيرسون وأعطى الزر كبسة أقوى . هذه المرّة أقلع النفق بأنين حاد .

عاد بول للعمل على أطروحة الدكتوراه .

لم يُعلم المعهد أبداً لماذا كانت الحكومة مستعدة لإنفاق هذا المبلغ من المال على النفق الهوائي . لكن باتيرسون كان يعرف السبب . المسألة مرتبطة بالسلاح . إذ تحت ضباب من السرية ، كانت كندا تطلق مشروعها الخاص ، . يحمل اسماً رمزياً هو « ڤلڤت غلوف » (القفاز المخملي) . لتصنيع صاروخ جو - جو موجه ليكون قادراً على إسقاط القاذفات السوڤياتية في حال مهاجمتها كندا . كانت مغامرة طموحة ومكلفة للغاية ، ومن شأنها وضع العِلم الكندي في منافسة مباشرة مع الحليفتين ، بريطانيا والولايات المتحدة . ففي ظل هيمنة سياسات الحرب الباردة قررت أوتاوا أنها بحاجة لرادعها الخاص ضد الخطر السوڤياتي. .

بما أن العمل كان يسير بطريقة جيدة ، أمضى باتيرسون أسبوعين، خلال تموز وآب/ يوليو - أغسطس عام 1950 في مقر قيادة المؤسسة الكندية للتسلح وأبحاث التطوير (CARDE) ، السرية جداً ، في فالكارتييه ، على بعد نصف ساعة بالسيارة من كويبك سيتي . وقد ألقى تسع محاضرات حول مشاكل الصواريخ التي تسير بسرعات فوصوتية . وتلقى محاضرة هو نفسه . أُخبر باتيرسون أن الحكومة الكندية منزعجة جداً من تحملها نفقات تعليم طلاب لا يتأخرون في ترك البلاد للعمل في الولايات المتحدة الأميركية . وأُخبر أيضاً أنه إذا لم يدخل كل العاملين معه ، بدون استثناء أحد ، في العمل لدى الحكومة ، فإن المنح المالية لمعهده ستتأثر سلباً في المستقبل . كان باتيرسون مدركاً لهذه

المشكلة . ففي ذلك الوقت كانت الحكومة الكندية تدفع أقل من نصف ما تعرضه الصناعة الأميركية . ومع ذلك كانت الرسالة هذه المرة تثير القلق .

بعد عودته إلى تورونتو ، كتب باتيرسون تقريراً سرياً إلى جي . جي . غرين ، نائب المدير العام لمجلس الأبحاث الدفاعية . غاية باتيرسون كانت « إيجاد أساس متين لتعاون مباشر بين (CARDE) ومعهد علوم الطيران » . واضح تماماً ، أن باتيرسون كان مستعداً لجعل معهده أكثر ارتباطاً بالمؤسسة العسكرية الكندية ، المصدر الأفضل لتمويل الأبحاث . قائلاً إنه « أمر مستحب جداً أن ينضم بعض الطلاب ، الذين تدربوا في المعهد ، إلى طاقم مجلس الأبحاث الدفاعية » . موصياً برفع الراتب الأولي إلى 4500 دولار بدلاً من الراتب الحالي : 3000 دولار .

انهى باتيرسون تقريره بتوصية خاصة بجيري بول ، الذي سيحصل على شهادة الدكتوراه في الربيع . « لقد قام بجزء كبير من تصميم نفقنا الفوصوتي ، كما قام بأبحاث حول الدفق غير الثابت بواسطة أنبوب الصدم . بكلام آخر ، إنه يعرف عن النفق الهوائي والمجالات البالستية (القذفيّة) . إنه تجريبي للغاية ولديه معرفة نظرية ممتازة » . وقد أوضح باتيرسون جيداً ما هو المشروع الذي يرى أن على بول العمل عليه . فقد كتب « يجب علينا الحصول على مقارنات بين تجارب النفق الهوائي وتجارب الطيران الحر بهدف التقدير الدقيق للنتائج المستخلصة من الأنفاق » . أكثر من ذلك ، فقد اقترح أن يبدأ بول العمل فوراً على أساس عدم التفرغ . (لاحقاً ، كتب بول في أوراقه الخاصة ، أن الأمر قد عُرض عليه على أساس أنه إذا رفض العمل في نظام السلاح الجديد التابع للحكومة ، فإن المعهد سيعاني سلباً . ولأنه كان متلهفاً لإسعاد الآخرين . فقد قبل) .

في رده ، رفض غرين فكرة دفع راتب أولي مرتفع ، لكنه وافق متحمساً جداً على علاقة تعاون وثيق . وهذا هو السبب الذي أوقف جيري عن متابعة عمله على المزايا الإيروديناميـة لنفق هوائي فوصوتي متقطع ، في كانون الأول/ ديسمبر . فقد قرر مجلس الأبحاث الدفاعية البدء بالعمل . د. غوردون واتسون ، وهو أكبر علماء الأليكترونيات لدى المجلس ؛ هو المهندس الرئيسي

لمشروع « ڤلقت غلوف » ، وكان بحاجة لخبير في الايروديناميات ولديه خبرة في الفوصوتايت لتصميم شكل الصاروخ ، أجنحته وزعانف التحكم . كان واتسون قلقاً لكون بول صغيراً جداً ليوجه فريقاً من العلماء أكبر سناً منه . لكن بعد سلسلة من المقابلات الطويلة ، حظي بول بالوظيفة .

كرّس بول ما كان يبقى من طاقته لمشروع ڤلقت غلوف ، مستمراً في العمل على أطروحته ، وما يزال رسمياً طالبـاً متفرغـاً للدراسة ، وفي إحـدى المرّات أمضى أسابيع عدة في مقر قيادة (CARDE) . أنهى أطروحته في آذار/ مارس وانضم رسمياً إلى طاقم (CARDE) في مطلع الأول من نيسان/ إبـريل ، في الذكرى العشرين لوفاة أمه . في الثالث من أيار/ مايو 1951 ، منحته جامعـة تورونتو شهادة الدكتوراه . كان قد بدأ للتو عامه الثالث والعشرين ، فكان الأصغر سناً على الإطلاق بين كل الذين منحتهم الجامعة رتبة دكتور . فقد بول الكثير من وزنه خلال سنته الأخيرة في معهد علوم الطيران ، وكان ، بتقديره هو نفسه ، على وشك الإنهيار العصبي .

4

لم يؤهله شيء في حياته ليكون قادراً على التعامل مع علماء الحرب الذين يسرفون بالشراب، ممن التقاهم في المؤسسة الكندية للتسلح وأبحاث التطوير . كان خجولاً وعصبياً ، نحيفاً ، ضعيفاً تقريباً ، وغير لبق اجتماعياً . كانت ابتسامته غير واثقة ، ويتذكر مهندس عمل معه في ذلك الوقت : « كانت عيناه تطرفان كثيراً » . في الثانية والعشرين كان يبدو كإبن ثمانية عشرة ، وكان ذلك مصدراً دائماً للإحراج ، ففي كل مرة كان يذهب لشرب البيرة كان البارمان يسأله عن إبراز هويته ليتأكد من عمره .

وفي حين لُقن جيري مبادىء أسرار تصميم الأسلحة . لُقن أيضاً موجزاً عن التاريخ السري للتطور العسكري لأميركا الشمالية . الرواية الكندية التى سمعها كانت تحتوي ميلاً مناهضاً للأميركيين مقنّعاً بشكل هزيل ، فقد أُخبر ، أنه منذ أواخر الثلاثينات بدأت بريطانيا، بشكل منهجي، بنقل التكنولوجيا العسكرية إلى كندا . فأنشئت المختبرات المتخصصة في تصميم الدواسر والمدفعية والرادارات والطائرات ، للعمل بارتباط وثيق مع مختبرات مشابهة في بريطانيا . وبرغم تجنيد علماء عسكريين كنديين إلا أنه لم يكن هناك عدد كاف بينهم من المدرَّبين لإدارة المؤسسات الجديدة . وهكذا ، وعلى المستوي التقني والعلمي ، كان كل العاملين في المختبرات تقريباً ، من بريطانيا في البدء . وكانت الفكرة أن تتابع المختبرات المتمركزة في كندا ـ المجهود الحربي في حال سقوط الجزر البريطانية في يد النازية . وهذاالنقل الهائل للتكنولوجيا جعل كندا تأوي بنية حربية أكثر تطوراً مما لدى الولايات المتحدة ، خلال مدة من الزمن ـ على الأقل حتى نهاية عام 1941 ، عندما دخلت واشنطن الحرب .

مع نهاية الحربْ في أوروبا عام 1945 ، أُخبر جيري ، استغل الأميركيون وضع ألمانيا المدمرة وبريطانيا المفلسة لسلب التكنولوجيا والعلماء من البلدين . وعلى مدى الخمس سنوات التالية ، إلى حين وصول بول الـ (CARDE) كان الأميركيون قد حققوا السبق في كل ميدان تقريباً ، رافضين مشاركة الأخيرين ، في تكنولوجيتهم الجديدة ، في حين كانوا يقللون أهمية التطويرات في البلدان الحليفة . الآن كان معظم العلماء البريطانيين قد غادروا كندا ، ومختبرات الأسلحة تكافح للاستمرار باليد البشرية المدربة محلياً . مع ذلك ، كان هناك تقدم مدهش بعض الشيء ، إذ كان العمل جارياً على النفاثة المقاتلة « أفرو آرو » . وهي طائرة كانت تبشر بأن تكون أفضل طائرة معترضة في العالم .

كانت كندا ، بما أسماها جيري لاحقاً « عقدة الدونية القومية المتأصلة » تعاني من تدفق الكبرياء القومي الذي تضمن حكماً شعوراً بالعداء للأميركيين . فقد كان صعباً التعايش مع الدور الذي تلعبه الدولة ، ابنة العم .

فالكارتييه عام 1950 ، وقبل أن يبْلغ التمدد المديني كويبك سيتي ، كانت تقع بعيداً عن خطوط التجارة والسيرْ في أكبر مقاطعة كندية ، كويبك التي تبلغ مساحتها سبعة أضعاف مساحة بريطانيا . ومعظم هذه المقاطعة كان خالياً من السكان ، مما جعلها مكاناً مثالياً للأبحاث العسكرية السرية . فدوّي المدافع الكبير كانت تزعج حيوانات الموظ (حيوان ضخم من حيوانات أميركا الشمالية) والذئاب أكثر مما كانت تزعج أناساً . كان ريف كويبك المنبسط أمام العين ، بأشجار الصنوبر المرتفعة والغابات الكثيفة ، يملك جمالاً متغيراً باستمرار . وكانت كويبك سيتي ، بكنائسها الحجرية العتيقة وشوارعها الضيقة الملتوية ومطاعمها الفخمة ، ذات نكهة رومانسية وأوروبية لا مثيل لها في أميركا الشمالية . في كينغستون وتورونتو لم يسمع بول كلاماً فرنسياً أكثر مما لو كان يعيش في انكلترا . لكن في كويبك سيتي ، حيث وجد غرفة في الطابق الثالث في مثوى (بيت يقدم المنامة والطعام للنزلاء مقابل بدل أسبوعي أو شهري محدد) فقد كانت الانكليزية قليلة الاستخدام . خارج نطاق إشارات « سري للغاية » والجدران والأسلاك العالية التي تحيط بـ (CARDE) التي كانت حصراً مقاطعة ناطقة بالانكليزية . «البوابون فقط يتكلمون الفرنسية » يقول زائر

منتظم لـ (CARDE) في ذلك الوقـت .

بين المهندسين الشباب في فالكارتييه كانت هناك روح تنافس واختبار مثيرة وقاسية . أولاً ، أرادوا أن يظهروا للأميركيين أنهم ، وبرغم الميزانية المتقشفة ، لا يقلون عنهم بشيء . ثانياً ، أرادوا أن يثبتوا للعلماء البريطانيين الأكبر سناً ، والـذين مـا زالـوا يـرأسـون أقسـامـاً عـديـدة ، أنهم أصبحـوا جـاهـزين لاستلام مراكزهم .

في الوقت نفسه ، كان بول وأصدقاؤه معزولين في غيتو تكنولوجي صغير جداً ففرنسيتهم الركيكة جداً أوجدت بينهم روابط لم تكن لتنوجد في الأحـوال العادية . كانوا طاقماً شديد الحمـاسة كثيـر التحمل للعمـل المتعب ، وكانـوا مستعدين للتخلي عن حفلاتهم الليلية لأدنى سبب . وسرعان ما تعلم بـول أن يجاري أكثرهم تحملاً للكحول .

كـان المثوى الـذي يسكن فيه بـول ، يقع على مـدى هاون من سهـول ابراهام ، حيث مات الجنرال وولفي عام 1759 ، وخلال الأيام الأول ، وبينما كان ما يزال متشبثاً ببعض عادات عزلته ، اعتاد ، في عطلاته الأسبوعية ، التجول فوق أرض المعركة ، مستعيداً الاستـراتيجية التي أتـاحت للبريـطانيين تحقيق النصر . وخلال الليل كان قد بدأ بالاعتياد على شـرب الكحول . أخبـر بـول أصدقاءه إلى أي حد كان معجباً بوولفي ، ليس بسبب براعته العسكرية ، وإنما بسبب الطريقة التي اختارها لقيادة أسطول جيشه الصغير نحو أعلى النهر ، وهو يتلو قصيدة « المرثاة » لفراي . كان ذواقاً جيداً « للشعر » قال بول ، الذي هو نفسه يتلو الشعر خلال العمل . وكان يسلي زملاءه المهندسين عندما يحين وقت الانصراف إلى البيت بأبيات من قصيدة لونغفالو :

اليوم قد انصرم

والليل سوف تملؤه الموسيقى
والهموم التي تستنفذ النهار
ستطوي خيامها ، مثل الأعراب ،
وبصمت تنسل بعيداً .

خلال الشتاء الأول له في فالكارتييه ، أمضى بول ساعات طويلة في العمل على حسابات الثبات الفوصوتي الضرورية لبناء هيكل الصاروخ « ڤلڤت غلوف » . وعاملاً مع فرانك بروين ، الذي كان يعمل سابقاً في مؤسسة الطيران الملكي ، أتم بول مجموعة معادلات نظرية تظهر أن بمقدور « ڤلڤت غلوف » الحفاظ على زاوية جسمه في وضعية الهجوم بينما يلبي متطلبات التوجيه . وفجأة أصبح لدى (CARDE) مشروع جدير بالثقة . أقله على الورق أصبح لديهم مجموع العمليات الصدمية والظواهر الفيزيائية والبيانات لاجتياز الموجات الصدمية للقوة الانفجارية التي تمنع الإنتقال من سرعة دوسر صوتية (دون سرعة الصوت) إلى سرعة فوصوتية . الأجنحة وزعانف التحكم التي تؤمن الثبات ودقة مناورات الصاروخ ، كانت قد أنجزت .

كان « ڤلڤت غلوف » بطول مترين وقطر 20 سم ، وزنه 158 كلغ ، ويبلغ امتداد كل من أجنحته الأربعة 82 سم . كان مداه مثيراً للإعجاب ؛ 4500 متر . يندفع بواسطة محرك صاروخي يعمل بالوقود الجافة ويوجه بواسطة رادار .

خلال 1952 ، وهي السنة الأولى التي عمل فيها متفرغاً ضمن طاقم (CARDE) ، نال بول ثلاث ترقيات ، وهذا صعود لم يُسمع بمثله من قبل . في الجامعة كان يعمل منفرداً ، أما في (CARDE) فكان يقود فريقاً . وقد اكتشف موهبة طبيعية أخرى ؛ إنه قادر على إلهام ناس للقيام بأرفع أنواع العمل ، وراء ما يمكنهم تحقيقه في الحالات العادية .

بعيداً عن الضوابط الشخصية للعمة أديث والرهبان اليسوعيين ود. باتيرسون ، أدرك بول فجأة أنه حرّ . وإذا كان الأمر يتعلق بالعِلم فإن الشخص الذي عليه إرضاؤه هو نفسه . وكانت عبقريته تكمن في استخدام ذكائه القاطع كحد المِشرط لتشريح مسألة فيزيائية ، يحدد الحل ، ثم يلهم آخرين للقيام بالعمل التفصيلي الذي يمكن أن يحقق ما يريد . لم يكن يملك الصبر للاهتمام بالتفاصيل . دائماً ، كان على شخص آخر الاهتمام بالتفاصيل .

كان يمتلك طاقة عقلية غير عادية . وكان تفكيره العلمي خلاقاً بدرجة عالية وغير مقيد بقواعد وأعراف . نادراً ما فشل جيري بول . في المحصلة الأخيرة ، فإن

النجاح هو الذي منحه القبول والمديح اللذين رافقاه حتى القبر . عاش عبر عمله وحلقت « الأنا » لديه عالياً .

في أيامها الأولى اهتمت (CARDE) بالأبحاث حول المدفعية ، لذا كان متوافراً مخزون كبير من الأسلحة الميدانية . عند وصول بول كان الاهتمام بالمعدات الحربية التقليدية قد تضاءل دراماتيكياً ، وكان هناك اعتقاد عام بأن القذائف والصواريخ جعلت القطع الميدانية حاجة فائضة . على أي حال ، كان هناك نفق بطول 120 متراً ، كانوا يسمّونه : المدى ، يمكن بواسطته ضخ الهواء لتأمين تقليد حالات الجو عند أي نقطة تقريباً . عبر هذا النفق كانت قذائف المدفعية تُطلق بحيث تستطيع المعدات والكاميرات تسجيل أدائها ليمكن التحديد بالضبط كيف كانت الموجات الصدمية ، الناتجة عن سرعتها ، تؤثر على ثباتها في ارتفاعات مختلفة .

طُلب من بول إجراء فحص سريع على الثبات الإيرودوينامي لـ « ڤلڤت غلوف » قبل الانتقال لانتاج نسْخة مرتفعة الكلفة . في الأحوال العادية يمكن إجراء الاختبار على نماذج في نفق هوائي فوصوتي . لكن ليس فقط أن (CARDE) لم تكن تملك نفقاً كهذا بل أيضاً لم يكن هناك لا المال ولا الوقت لشراء واحد ، كما أن النفق لدى المعهد في تورونتو لم يكن ملائماً . مع ذلك ، كان الضغط يتزايد للبدء باختبارات الطيران الحر وبالقياس الطبيعي للصاروخ « ڤلڤت غلوف » . الحرب الباردة كانت تزداد حدة . وفي الولايات المتحدة كان فون براون يحث واشنطن على إرسال سفن فضائية إلى القمر والمريخ . أرادت أوتاوا إظهار أنها لم تُترك كلياً في الغبار .

برغم الضغط الهائل ، ظل العلماء معارضين لإطلاق الـ « ڤلڤت غلوف » بدون إجراء الاختبار الايروديناميي للمناذج . لجأت (CARDE) إلى بول . وللمرة الأولى في حياته بدأ بول يختبر قدرة المدافع الكبيرة . وقرر أنه قد يكون ممكناً قلب فكرة النفق الهوائي رأساً على عقب . فبدلاً من نموذج مثبّت يندفع الهواء باتجاهه بسرعة فوصوتية ، فقد يمكنه استخدام مدفع لإطلاق نموذج عبر المدى . وهكذا فإن النموذج الفعلي هو الذي سيتحرك لا الهواء . كان بول يعرف الخدعة المدفعية القديمة لاستخدام سبّاط (قبقاب). السبّاط هو حزام خشبي أو

معدني يوضع حول مقذوف دقيق لجعله مناسباً لسبطانة مدفع ذات فوهة واسعة جداً . الحزام يسقط عندما ينطلق المقذوف من السبطانة . هناك ، بالتأكيد ، مصاعب تقنية ، ليس أقلها إيجاد طريقة لنبذ السبّاط عند الانطلاق من السبطانة مع ضمان عدم تأثيرها على طيران المقذوف .

بنى بول نموذجاً للصاروخ « فلفت غلوف » ، بالحجم نفسه ، وباستخدام السبّاط لجعله ملائماً، أطلقه من قطعة مدفعية ذات سبطانية ملساء. وحسب ما كان مقرراً فقد سقط السبّاط بالضبط قبل دخول نموذج الطيران الحر مدى الاختبار الذي يبلغ طوله 120 متراً . هذا الاختبار سمح بتصوير النموذج وهو منطلق بسرعات فوصوتية عبر المدى ، ووفر لـ (CARDE) كل المعلومات التي تحتاجها للمضي قدماً بإجراء تجربة بالقياس الطبيعي .

وصف بول هذا التطور في محاضرة ألقاها في جامعة تورونتو : « كان المشروع يقوم على أساس جرب وانظر ، وبالنظر إلى النجاح الكبير الذي تحقق ، فقد تطور وأصبح وسيلة سهلة لجمع المعطيات». بكلمات أخرى ، فإن طريقة بول في اختيار الخصائص الايروديناميكية للنماذج عبر إطلاقها من مدافع ، أصبحت قاعدة اختبارية . وخلال السنوت القليلة التالية بنى مجالين آخرين وبدأ تطوير مدافع غاز مفرط السرعة ، بحيث يمكن بواسطتها إطلاق نماذج بسرعات أكبر من السابق .

في صيف 1952 استدعى شارلز بوب ، ضابط العلاقات العامة في مجلس الأبحاث الدفاعية ، في أوتاوا ، بول ليخبره أن « ماكلاين » ـ وهي أشهر مجلة شهرية في كندا ـ تريد القيام بتحقيق موسع عن مشروع « فلفت غلوف » على أن يتم تناول الزاوية الإنسانية من خلال بول. غوردون واتسون ، المهندس الرئيسي لمشروع فلفت غلوف، أصر على بول الذي وافق متردداً . نُشر التحقيق في آذار/ مارس 1953 وكان أشبه بالصدمة . كانت قصة « فلفت غلوف » ثانوية . أما البارزة فكانت الصورة المتملقة لبول تحت مانشيت « جيري بول عالم الصواريخ الولد » . فقد تم تقديم بول على صورة بطل في كتاب مغامرات يخرج لإنقاذ الغربي من الشيوعيين. كان بول ذو الوجه الطفولي ، وأبرز خبير في الأيروديناميات في البلد ، وهو في سن الرابعة والعشرين ، موضوعاً ملفتاً . لكن

بالنسبة لجيري ، وكما قال لاحقاً ، كان المقال « كارثة لا يمكن تلطيفها » إذ سبب لـه سمعة بين العـاملين في القطاع العـام الكندي بكـونـه محبـاً للظهـور على حساب الآخرين .

تعاون بول مع « ماكلاين » نزولاً عند طلب رئيسه ولم تكن لديه أدنى فكرة عما سيتضمنه المقال عند نشره . ومع ذلـك فإن الإتهـامات لـه بحبه للظهـور الاعلامي ظلت تستهدفه . ولاحقاً ، عندما كان المراسلون يسعون للحصول على معلومات علمية ، كانوا يتصلون بجيري ، الذي كان يتحدث بتعابير حيوية وغالباً مبالغة . وفي المؤتمرات العلمية كانت أوراق بول جذابة أكثر للنشر من أوراق زملائه ، لأن اسمه كان معروفاً أكثر والقرّاء كانوا يهتمون به. كل هذا ساهم في زيادة النفور منه في أوتاوا ، وانتشر ذلك في النهاية في فالكارتييه ، لكن ذلك لم يكبح ترقيه . في تموز/ يوليو 1953 عيّن رئيساً لقسم داخل دائرة الايروبالستيات في (CARDE) كمـا عيّن أستـاذاً مسـاعـداً مسؤولاً عن الايـرودينـاميـات في جامعة لافال .

وفي حين كان بول بالغ الثقة بنفسه في ميدان العلم ، إلا أنه كان ما يزال خجولاً في ميدان التعامل مع الجنس الآخر ، ولم يترك لنفسه وقتاً كافياً لضرب المواعيد ، وحتى برغم أن « فتيات كويبك جميـلات جداً » على حـد ما قـاله لصديق في تورونتو . لكن في آب/ أغسطس 1953 ، طلب مهندس شاب ، يعمل في فالكارتييه ، من جيري مرافقتـه في موعـد ثنائي مع فتاتين كنـديتين تتكلمان الفرنسية ، نعومي وسوزان جيلبرت . لم تكـونا جميلتين فحسب بـل وتتقنان الانكليزية أيضاً . والد الفتات د. بـول جيلبرت ، طبيب ثـري لم يكن يسمح لإحداهما بالخروج دون الأخرى ، فكان عليهما الخروج معاً دائماً .

زعم جيـري لاحقاً أنـه كـان حبـاً من أول نـظرة ، وخـلال الشتاء ظـل يلتقي نعومي .

ميمي ، كما كانت تعرف ، كانت من عائلة دافئة ومتماسكة . كانوا مثقفين وكاثوليكيين ملتزمين ، ورغم أنها كانت رسامة موهوبة إلا أن والدها رفض السماح لها بدراسـة الفن لأنه كـان يخشى من صحبة الفنـانين على فتاة شـابة . كـان

د. جيلبرت يربي الخيول ، وكانت ميمي تتقن ركوب الخيل بشكل ممتاز . شقراء جميلة ونحيلة ، كانت ذات أناقة وكياسة ، وذات ابتسامة وضحكة حاضرة ، وميالة للمغامرة . ورغم أنها عاشت حياة آمنة فقد كانت ممتلئة بالمرح . كل شيء فيها كان يتلاءم مع الجانب الرومانسي في جيري . كانت الجزء الناقص في حياته .

د. جيلبرت لم يكن راضياً . أراد أن تتزوج ابنته كندياً فرنسياً ، شخصاً ما من الخلفية نفسها .

« لم تكن انكليزيتي جيدة جداً ولم يكن يتقن الفرنسية إطلاقاً ، لكننا ضحكنا كثيراً ، وبدا أن ذلك أهم بكثير من الكلمات » تقول ميمي . « كانت ذكريات طفولته مؤلمة إلى حد أنه لم يستطع التكلم عنها . كان مجروحاً ، ولم أضغط عليه بالأسئلة . قرأ لي الكثير من الشعر . أحببت ذلك كثيراً » .

أعلنا خطوبتهما في «عيد فالنتين» وتزوجا في تموز/ يوليو 1954 . العمة أديت والعم فيل كانا ضيفا الشرف ، وكانا بالإضافة إلى جسي وبوب كيلي الوحيدين الذين دعاهم من «العائلة». لم يستطع دعوة إخوته وأخواته لأنهم ، كما قال لميمي ، كانوا غرباء . الفجوة كانت قد اتسعت كثيراً ، لكن عدم دعوة عائلة بول زاد الأمور سوءاً . وعندما سمعوا خبر الزواج تساءلوا ما إذا بول قد أصبح « أعلى شأناً » منهم ـ هو عالم في حين ظلوا هم « عمالاً عاديين » . لكن برغم أن بول كانت لديه عيوب كثيرة ـ من بينها الغطرسة ونفاذ الصبر والغرور ـ إلا أنه لم يكن أبداً متكبراً .

إخلاص جيري لآل لابروس عبّر عنه في مقال مجلة « ماكلاين » حيث قال : « ليس لدي أي ذكرى عن أمي الحقيقية ، لكن أحداً لم يكن يحظى بوالدين أفضل مما توفر لي من خلال العمة أديت والعم فيل » .

أمضى الزوجان الشابان شهر العسل في برمودا . وعند عودتهما إلى كويبك سيتي استأجرا منزلاً ، على طراز مزرعة ، في عقار د. جيلبرت ، وبدآ بإقامة الحفلات بشكل منتظم . وأصبح جيري ليس فقط قوة علمية بل واجتماعية أيضاً في فالكارتييه .

قبوله في عائلة جيلبرت لم يتحقق بسرعة . د. جيلبرت لا يتكلم الانكليزية إطلاقاً ، واتصاله بجيري كان دائماً من خلال الترجمة ، فكان بارداً ورسمياً . تعلّم جيري الفرنسية ببطء ، وبعد عذاب . في نظره ، كان قد أتقنها كلياً رغم أن لهجته وألفاظه المستعملة كانت غريبة . مع ميمي كان يتكلم الانكليزية ويستخدم الفرنسية عندما تكون عائلة جيلبرت حاضرة .

بمرور الشهور بدأ د. جيلبرت يُعجب بجيري ثم تحول ذلك إلى حب وتفهم ، وأصبحا قريبين جداً ، ليس كأب وابن وإنما بالفعل كصديقين متساويين .

في هذه الأثناء كان الفريق العامل في ثلفت غلوف قد نما من خمسة علماء ، بينهم بول ، إلى حوالي ستمائة خبير موزعين بين سلاح الجو الملكي الكندي والصناعات الحربية . وكانت الحكومة قد أنفقت حوالي 24 مليون دولار على المشروع ، بما فيها سبعة ملايين على حقلي الاختبار الايروديناميي اللذين بناهما بول وعلى معدات مختبرية . ثلاثمائة صاروخ كانت قد صُنعت وأطلقت ، معظمها فوق موقع اختبار جديد ، بالقرب من كولد لايك ، ألبيرتا .

د. ألفرد راتز ، وهو عالم كومبيوتر عمل في مشروع ثلفت غلوف ، يتذكر أن بول كان متقدماً على بقية الفريق . يقول راتز : « لم يكن شخصاً يستطيع الاكتفاء بالجلوس والانتظار . كان باستمرار يفور بالأفكار » . وهكذا ، وفي الوقت الفائض ، صمم جيري صاروخه الخاص ، صاروخاً من الجيل التالي لـ « ثلفت غلوف» . يقول راتز إن بول لم يتوقف عند حد التصميم على الورق . فقد بدأ ببناء أجسام الصاروخ وبإطلاقها في حقل الاختبار . « بالطبع لم يكن بمقدوره القيام بذلك بشكل رسمي . كان عليه التزام السرية » . أولاً ، أقام مقر عمله وراء مبنى المكتب ، وكان يتألف من سقيفة حديدية قديمة وأرضية رملية . يقول راتز إن العاملين لديه كانوا جنوداً من مركز قريب لتدريب مشاة الجيش الكندي . كان الجيش يكافىء جنوداً ينجزون عملاً ما بشكل جيد ، بإعارتهم لبول لمدة أسبوعين كل مرة . يقول راتز : « كانوا جنوداً من المشاة ، لا حرفيين مهرة » . وكانت أدواتهم وموادهم محدودة بما يمكن شراؤه من مخزن للقطع المعدنية ، ومع ذلك ، وحسب راتز ، فقد أنتجوا نماذج اختبارية للصاروخ كان

أداؤها مثل ، أو أفضل ، من الصاروخ الرسمي .

كانت لهذه الصواريخ الجديدة هيئة مختلفة جذرياً عن تلك التي لـ « ڤلڤت غلوف » ، أو بالفعل عن أي صاروخ في أي مكان . يقول راتز : « ما يزال العمل مصنفاً بخانة السرية ، لكني أستطيع القول إن أسلوبه في البناء أدى إلى إنتاج نهائي بكلفة لا تتجاوز جزءاً بسيطاً من الدولارات التي تنفق لبناء هيكل صاروخ على الطريقة الأميركية » .

جاءت نهاية صاروخ بول بطريقة دراماتيكية نموذجية ، عندما تقرر دعوة دوق ادينبورغ لزيارة كندا والقيام بجولة داخل (CARDE) . طلبت الحكومة الكندية من بول تحضير عرض لـ « ڤلڤت غلوف » . يقول راتز : « قرر جيري أن يكشف عن صاروخه الجديد خلال العرض وأن يدفع ڤلڤت غلوف إلى الوراء » . قام بتحضير الرسوم البيانية التي تظهر أداء الصاروخ والتي تقارن بينه وبين صواريخ جو ـ جو أخرى لدى الولايات المتحدة الأميركية ، وكانت هناك بيانات تظهر مزايا الإنفاق على بناء الصاروخ .

يعتقد راتز أن التحضير للعرض قد أظهر العديد من مزايا جيري بول : حبه لتصميم وتطوير الأسلحة ؛ إيمانه بأولوية الجانب التقني للمشروع ؛ شجاعته التي لا تفتر للضغط عندما يشعر أنه على حق ؛ وإيمانه بالطبيعة البشرية ـ كان يشعر أن الكبار مهتمون بتطوير الأسلحة ووطنيون مثله ، وأنهم سيتفاعلون بطريقة إيجابية . « لقد آمن حقيقة أن عملاً جسوراً كهذا سينجح بالفعل في اختراق ضباب السياسة والبيروقراطية ليصل إلى ضمير ووعي القوى التي تقرر » .

خلال جولة الدوق ، مال أحد الوزراء صوب رئيس مجلس الأبحاث الدفاعية ، وقال : « لم أكن أعلم أننا نقوم بتطوير صاروخ آخر » . جيري وجد ذلك مسلياً بالفعل .

ما أثار دهشة العلماء الأكبر سناً في (CARDE) هو أن بول لم يطرد من عمله . « ولكن » يقول راتز « خرجت كلمة من أوتاوا إلينا كلنا للبقاء بعيداً عنه » .

في منتصف 1954 أسقط السوفيات « ڤلڤت غلوف » بدون إطلاق رصاصة

واحـدة . فعلوا ذلك بـإعلانهم إنتـاج قاذفـات ذات سرعـة فوصـوتية لا يمكن للصاروخ الكندي مجاراتها . بالإضافة إلى ذلك ، فإن مسؤولي الدفاع في أوتاوا كانوا على وشك الاستنتاج بأن السوفيات لم يعودوا بحـاجة لإرسـال قاذفـاتهـم لمهاجمة أميركا الشمالية ، لأنهـم يوشكون على إنتاج صواريـخ بالستيـة عابـرة للقارات ، قريباً .

وهكذا تم التخلي عن مشروع ثلقث غلوف .

5

بفضل بول كان جناح علوم الطيران لدى (CARDE) قد بدأ يتمتع بسمعة دولية ، وفي غياب مشروع كبير تابع بول العمل على اختباراته الخاصة للمدافع . وقد فاوضت وكالة التخطيط والأبحاث المتقدمة الأميركية أوتاوا لاستقبال علماء أميركيين في فالكارتييه ، وكان أحد أهداف الأميركيين الاطلاع عن كثب على ما يقوم به بول . أحضر الأميركيون معهم ميزانيتهم الخاصة . وسرعان ما اكتشف بول أنه عندما يكون مستحيلاً تقريباً الحصول على تمويل من أوتاوا لإجراء اختبارات أسلحة ، لم تكن قد وافقت عليها لجنة خدمات مدنية ، فإن الأميركيين على استعداد لتمويل أي شيء تقريباً . وهكذا أوجد لنفسه نظاماً لتجاوز أوتاوا والذهاب مباشرة إلى الولايات المتحدة للحصول على الأموال اللازمة للأبحاث .

روابطه مع الولايات المتحدة ازدادت قوة في ربيع 1956 عندما دُعي لحضور ندوة حول الذخيرة في مؤسسة بيكاتيني لصنع الأسلحة ، قرب دوفر ، في نيوجرسي . د. شارلز مورفي ، وهو عالم عسكري بارز يعمل للجيش الأميركي ، ألقى محاضرة حول البالستيات ، والتقى العالمان تلك الليلة في البار . الضباط العسكريون الكنديون تحلقوا حول بول في حين تجمهر زملاؤهم الأميركيون حول مورفي . كان هناك الكثير من القواسم المشتركة بينهما ؛ كلاهما كاثوليكيان متنافسين ، ليس أقله في شرب الكحول .

جلسة الشرب كانت مميزة لسببين . الأول ، أن بول رأى للمرة الأولى أنه كان يمثل قوة بذاته على جبهة المؤسسة العسكرية الكندية . فالضباط الكبار جعلوه بطلهم في البار ، وتباهوا علناً بإنجازاته . منكباً كلياً على العمل في

فالكارتييه لم يكن ليدرك أن شهرته قد انتشرت. الثاني ، أنه قد حظي بصديق مهم جداً ، صديق يستطيع ربطه بعقود البنتاغون . « لقد تجاوبنا فوراً » يقول مورفي عن لقائهما الأول. « كنا أشبه بتركيين شابين في طريقنا للقيام بأمور عظيمة في البالستيات » .

في تشرين الأول وتشرين الثاني / أكتوبر ونوفمبر 1956 ، زحفت الدبابات السوفياتية على هنغاريا لسحق الانتفاضة الشعبية . الحكومة الكندية برئاسة لويس سان لوران سمحت بدخول 32 ألف لاجىء هنغاري عام 1957 . كثيرون منهم كانوا شباباً ومتعلمين جيداً ، وأدى وصولهم إلى تقوية مشاعر العداء للشيوعية في كندا عموماً ، ولدى جيري بول على وجه الخصوص . ولكن عندما كان بول يتحدث عن كونه معادياً للشيوعيين ـ وكان يفعل ذلك كثيراً ـ فإنه لم يكن يقصد أنه ضد الامبراطورية السوفياتية . إذ أنه كان يربط الشيوعية بالبيروقراطيات النفعية في أي مكان . لم يكن بول يستطيع تحمل الحكومة الموسعة التي كان يراها مذنبة بشكل فضائحي في هدر ، معظم الأفكار الجيدة لما تأخذه من وقت طويل للموافقة عليها . وكان يؤمن أيضاً أن السياسيين يعينون أصدقاءهم ومناصريهم غير المؤهلين في مراكز مهمة جداً . وكان يصف الكثير من المسؤولين في أوتاوا ، ممن بيدهم تقرير المنح المالية للأبحاث ، بأنهم « علماء حفلات الكوكتيل » . ولم يكن جيري يحتفظ بهذه الأفكار لنفسه ، بل كان يقولها بصوت عالٍ وواضح مراراً

توثقت الصداقة مع مورفي بسرعة ، وبدأ العالمان يتشاركان في أبحاثهما . كان مورفي كثير التردد على فالكارتييه . وبالمقابل كان بول كثير السفر إلى أبردين بروفينغ غراوند ، شمالي بالتيمور ، ماريلاند . « لقد ذُهلت عندما بدأت بالذهاب إلى فالكارتييه » يقول مورفي . « رؤساء بول كانوا غير مؤهلين . كان هناك ترتيب معكوس للكفاءات . وهذا شيء مألوف في القطاع العام . ما لم يكن مألوفاً هو أن جيري كان صريحاً جداً . بهذا الشأن . لم يكن يتحمل اللاكفاءة » .

الطفل الأول لجيري ، فيليبي ، الذي يحمل اسم الدلع بلبوت ، ولد في حزيران/ يونيو 1955 ، وميشيل ، الذي سيُكنى بـ « باكو » تبعه في تشرين

الثاني/ نوفمبر 1956 . أما ستيفن ، الـذي سيصبح اسمـه « تابي » فـولد في نيسان/ إبريل 1959 . وقد شغف بول بأطفاله . « كان جيداً وصريحاً في التعبير عن انفعالاته » تقول ميمي « بخلفيته وكل شيء ، كان يمكن ألا يكون هكذا . لكنه كان يحضنهم ويعانقهم . لم يكن مكبوتاً على الإطلاق . وكـان يعاملهم كلهم المعاملة نفسها ، بحرارة جداً وحسب » وتضيف « كانت لديه تلك الحاجة الملحة للتعبير عن دفئه . وطفولتـه كانت بـاردة جداً . لا شـك أن الأمر كـان معذباً له » .

وإذ كبر الأطفال استمر بول وميمي في استعمال الانكليزية بينهما ، لكنهما قررا أن الفرنسية ستكون اللغة الأولى في البيت . فلم يتحدث جيري إلى أولاده بغير الفرنسية . حتى في أكثر الحوارات حميمية معهم كـان يستخدم فـرنسيته الركيكة ، مع أنها لم تكن تشكل حاجزاً . (لاحقاً أصبحت إنكليزية أولاده أفضل من فرنسيته) .

كانت أسرة بول تتابع عن كثب التطورات العلمية . وقد سادتها حالة من الإثارة الشديدة في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 1957 ، عندما أطلق الاتحاد السوفياتي « سبوتنيك ـ 1 » وافتتح عصر الفضاء . كان بول واحداً من أوائل الذين أدركوا أن قدرة موسكو على إطلاق قمر اصطناعي تعني أنها قادرة على إطلاق صواريخ بالستية عابرة للقارات . وبسرعة حوّل طاقاتـه لإيجاد طـرق لاكتشاف صاروخ قادم ولتدميره قبل أن ينفجر فوق أميركـا الشماليـة . الآن أصبح لـديه المشروع الكبير الذي كان ينتظره منذ احتضار قلقت غلوف .

كان واثقاً من أن دخول الصاروخ جو الأرض من جديـد بعد طيـرانه في الفضاء الخارجي سيُحدث نوعاً من « علامة دالة » ، موجة صدمية قد يكون ممكناً اكتشافها وتتبعها . سيكون ذلك أسهل ، قال بول ، من محاولة إيجاد الصاروخ نفسه ، الأشبه بمحاولة رؤية دايم (عشرة سنتات) في السماء فوق مونتـريال بواسطة تليسكوب في تورونتو . وهكذا مضى في محاولة اكتشاف نوع الموجـة الصدمية التي قد تنتج عن صاروخ .

ما كان يحتاجه هو مدفع يمكنه إطلاق نسخة مطابقة لرأس حربي نووي سوفياتي بسرعة 5500 متر بالثانية ، وهي السـرعة التقـريبية لصـاروخ بالستي

مقبل ، وعندما يمكنه ذلك من اكتشاف « العلامة الدالة » كان يدرك أنه سيكون بحاجة لمدفع أكبر وأقوى بكثير لتدمير الصاروخ . وقد وضع خطة لذلك أيضاً . كانت فكرته تتوم على أساس استخدام أكبر قطعة مدفعية يمكن أن يجدها ، كنوع من بندقية الخردق ، لإطلاق كمية ضخمة من القذائف المتشارية في الفضاء ، تماماً في ممر الصاروخ المقبل . ستكون السرعة كبيرة إلى حد أن أي تماس حتى مع شظية واحدة لقذيفة متشارية من شأنه تدمير الصاروخ .

رأى بول أن بالإمكان إكمال نظام بحيث تصبح مراكز محددة ، مثل المدن الكبيرة « محصنة ضد هجوم عدو » . وأضاف « لا يمكن الدفاع عن كل البلد وإنما مراكز معينة ، إلى حد أن كل الصواريخ المهاجمة يمكن تدميرها قبل بلوغها هدفها » . وعندما زار مورفي بول في أواخر 1957 ، وجد أن « بول كان قد طور مدافع تطلق غازاً خفيفاً سريعاً جداً لبلوغ سرعات مثل 20 ألف قدم بالثانية . مختبرات أخرى كانت تعمل على مثل هذه المدافع ، لم يكن فريداً ، لكنه كان متقدماً على غيره كثيراً » .

كان البنتاغون مأخوذاً بأبحاث بول ومنحه كل التشجيع الذي يحتاجه . الآن ، أصبح له معجبون وراء الحدود الجنوبية أكثر مما له في كندا .

في الخامس والعشرين من آذار/ مارس 1958 ، كان هناك حدث واحد حجب الضوء عن كل ما عداه . الحدث كان إقلاع المقاتلة المعترضة الفوصوتية «آفرو آرو» ـ وهي الأولى والوحيدة التي صنعتها كندا ـ في رحلتها الأولى من مطار مالتون ، الذي يقع خارج تورونتو . من الصعوبة بمكان وصف الافتخار والكبرياء اللذين سادا أوساط المؤسسة العسكرية الكندية ، بفعل هذا الحدث . جون أديون ايفانز ، وهو مهندس عمل في محرك الطائرة ، يتذكر بعد ثلاثين سنة : « كل العاملين خرجوا لمشاهدة الإقلاع . كانت عيوننا ممتلئة بالدمع إلى حد أننا بالكاد استطعنا رؤية الطائرة . كنا فخورين جداً » . وخلال الشهور القليلة التالية كانت الطائرة قد طارت متجاوزة ضعفي سرعة الصوت .

في 22 نيسان/ إبريل 1958 ، تقريباً بعد شهر من الإقلاع الأول للطائرة آرو ، أخبر بول الـ « مونتريال ستار » أنه على وشك البدء باختبار أداة لحمل القذائف يمكن أن تكون الخطوة الأولى على طريق امتلاك كندا للقمر

الاصطناعي . وقال إن مثل هذا القمر الاصطناعي سيكون له هدفان : دراسة الأشعة الدوحمراء (تحت الحمراء) المنبعثة من الشمس ومن جزئيات الهواء عند حافة الفضاء الخارجي، ودراسة الحماوة التي تصيب الرأس الحربي للصاروخ عند دخوله من جديد جو الأرض . هذان المشروعان ، قال بول ، كانا مرتبطان بدراسة شاملة ، تأخذ طريقها في فالكارتييه ، وتهدف إلى تطوير دفاع يمكن الاعتماد عليه ضد الصواريخ البالستية العابرة للقارات . وقال بول إن القمر الاصطناعي الكندي سيكون بقطر 15 سم وأنه سيستخدم نظام إطلاق فريداً يشمل مدفعاً . وأكد أن برنامج القمر الاصطناعي ليس قيد الإنجاز فعلياً ، لكن مستلزمات الإطلاق إما موجودة بالفعل أو أنها في مرحلة التخطيط . وقد شرح أن لديه بالفعل ، في فالكارتييه ، مدفعاً ذا دفع هيدروجيني بإمكانه إطلاق قذائف صغيرة بسرعة 11 ألف كلم بالساعة ، وأنه بصدد بناء مدفع هيدروجيني آخر يقدر على إطلاق معدات حمل قذائف ، بسرعات تصل إلى 27 ألف كلم بالساعة . برغم أن كندا لم تعلن أبداً عن خطط لإطلاق قمر اصطناعي ، إلا أن بول كان أكيداً بأن البرنامج الشامل لـ « فالكارتييه » هدفه تطوير دفاع ضد الصواريخ البالستية العابرة للقارات .

المقابلة الصحفية مع بول أحدثت ضجة واسعة . في المقام الأول ، كان يسرّب معلومات سرية للغاية،ثم إن الحسابات المصنفة التي كشفها لإثبات رأيه بإمكانية إطلاق قمر اصطناعي بواسطة مدفع كانت تخمينية بدرجة عالية . معظم العلماء الآخرين في (CARDE) كانوا يرون أن الفكرة غير صالحة . رئيس الوزراء ، جون دايفينبايكر-، أعلن أن ليس بنية حكومته البدء بمشروع قمر اصطناعي . وقال وزير الدفاع ، جورج بيركس ، إنها المرة الأولى التي يسمع فيها عن خطط بول حول القمر الاصطناعي . وأعلن أنه ، بصفته رئيساً لمجلس الأبحاث الدفاعية ، سيبدأ تحقيقاً حول الموضوع . كان بيركس محرجاً ، وأكثر منه كان دايفينبايكر . تلقى بول اتصالاً هاتفياً بعد ظهر ذلك اليوم ، وأُمر بأن يكون في أوتاوا في اليوم التالي « ليبرر أقواله » . كانت الطائرة الأخيرة قد أقلعت فكان على بول أن يقود سيارته طوال الليل ليكون واقفاً على السجاد في الصباح التالي .

في الجلسة الصاخبة ، التي أدارها كبار الموظفين ، قال بول إن الولايات

المتحدة ، بفضل اتصالاته الخاصة ، قد وعدته شخصياً بتوفير واحد من صواريخ ردستون البالستية ، البالغ ارتفاعها 21 متراً . وقال بول إن بإمكانه بناء مدفع هيدروجيني خلال وقت قصير ، ويكون مصمماً ليُحمل في أنف الصاروخ . وسيحمل الصاروخ هذا المدفع إلى ارتفاع 250 كلم تقريباً ، حيث يتم إطلاق المدفع ليدفع قمراً اصطناعياً كندياً صغيراً في الفضاء بتسارع يقارب مليون «Gs» (مليون مرة قوة جذب الجاذبية) . وهذا ، قال بول ، سيعطي القمر الاصطناعي بسهولة سرعة مدارية تبلغ 29 ألف كلم بالساعة .

الموظفون الكبار كانوا غاضبين حيال امتلاك بول الجرأة لعقد اتفاقيات مع الولايات المتحدة قبل أن يستشير أوتاوا . أخبروا بول أن دافينبايكر لا ينوي استثمار أي مبلغ في قمر اصطناعي ، وأن الفكرة بكاملها سخيفة وأن يعود إلى فالكارتييه ويمتنع عن ذكر أي شيء حول الأقمار الاصطناعية ما لم يحصل على إذن بذلك .

كان بول غاضباً أكثر مما كان خائباً . فها هو يعرض على كندا طريقة لإطلاق قمر اصطناعي بكلفة زهيدة ، في حين أن رئيس الوزراء لا يريد حتى أن يسمع الفكرة .

في تلك الفترة كان فرانك هوبارد ، وهو محارب قديم شارك في الحرب العالمية الثانية ـ كان بول قد التقاه خلال دراسة ما قبل التخرج ـ ، قد انضم أيضاً إلى (CARDE) بصفة مهندس . يتذكر هوبارد : « كان بول قد تغير كثيراً . زاد وزنه وأصبح ممتلىء الجسم ، وكان متزوجاً من امرأة جميلة . كان يشرب كثيراً ، ويحب الحفلات وكان صريحاً جداً . لكن أيضاً كان جانب معتم ينمو في داخله» . يقول هوبارد « كنت إذا دخلت إلى مكتبه مباشرة بعد خروج شخص ما سمعت منه كلاماً سيئاً عن ذاك الشخص . إلى حد ما تشعر بأنك موضع ثقته ، لكن سرعان ما تتساءل عما سيقوله للشخص الذي سيدخل بعد خروجك من مكتبه » . وقد انضم هوبارد إلى جناح بول وأصبح كبير المهندسين لديه . وهو يتذكر : « كان جيري من نوع العلماء الذين يريدون أن تسير الأمور بوتيرة أسرع وأفضل . ولم يكن بالفعل يهتم بما ستصل إليه هذه الأمور » .

في 20 شباط/ فبراير 1959 أعلن دايفينبايكر التخلي عن مشروع « آفرو-آرو » . لم تكن الحكومة قادرة على الاستمرار في تحمل نفقات هذا المشروع ،

الذي كان ما يزال بحاجة لأربع سنوات قبل إنجازه . كان ما يوازي 300 مليون دولار قد أنفق بالفعل . وكان مقدراً أن تبلغ تكاليف إنجاز المشروع كلياً حوالي 871 مليون دولار إضافية . مع احتساب مصاريف التطوير ، كانت الطائرة الواحدة من « آفرو آرو » ستكلف 12 مليون دولار ، أي حوالي ستة أضعاف كلفة طائرة أميركية مشابهة . دايفينبايكر اتخذ القرار الصائب اقتصادياً ، لكنه كان نكسة على معنويات الصناعة العسكرية الكندية . وخلال الثلاثين سنة التالية ، كان يمكن أن يفقد بول أعصابه عند أدنى ذكر لاسم دايفينبايكر .وبكلامه المنمق كان بول يضع آرو بمصاف عجائب الدنيا . حوالى 14 ألف كندي ، بينهم العديد من المهندسين المهرة ، فقدوا أعمالهم بانهيار المشروع . من بين هؤلاء كولين رونغ ، صديق بول أيام الجامعة . وقد عرض هوبارد على رونغ عملاً ضمن الطاقم التابع لبول ، فوافق وبدأ العمل في الشهر التالي فكلفه بول بتصميم المدافع .

يقول رونغ « أراد بول مدفعاً قادراً على إصابة مقذوف بسرعة 12 ألف متر بالثانية ، أي بسرعة الأحجار النيزكية عندما تصطدم بالغلاف الجوي . السبب العلمي الزائف (العلم الزائف : نظام نظريات وافتراضات وطرائق تعتبر ، خطأً أو وهماً ، علماً من العلوم) هو معرفة ما يمكن أن يحصل إذا ما ضرب حجر نيزكي مركبة فضائية في المستقبل . السبب الحقيقي كان عسكرياً . كان يبحث عن طرق لإسقاط صواريخ بالستية عابرة للقارات » .

حياة الحفلات استمرت . فلورنس غاي ، كانت مراهقة عندما كان والدها يتولى إدارة جناح آخر في (CARDE) . وهي تتذكر : « كنت ترى هذه المجموعة الصغيرة من الناطقين بالإنكليزية الذين أقاموا روابط اجتماعية قوية فيما بينهم . كان المكان مليئاً بالعلماء اللامعين وغريبي الأطوار الذين كانوا غير لبقين . د. بول كان مختلف عنهم . كان لطيفاً ، كان لديه سحر أكثر مما لدى أي منهم . وكفتاة صغيرة كنت أراه جذاباً تكتنفه مسحة من الغموض . كانت لديه زوجة جذابة جداً ، وعيناه كانتا دائماً تلمعان » .

ويقول رونغ « كان لدى جيري بيت رائع مع خدم وأثاث فخم وكل شيء ظننا أن عمه هو الذي تولى الانفاق عليه . أقام جيري حفلات كبيرة ، لكنه أحياناً

كان يتصرف بصبيانية . مرة حضّر كأساً لزوجتي ، وكان قوي المفعول إلى حد أنني أضطررت لأخذها إلى البيتَ بسرعة ، ولم تعرف مـا الذي أصـابها . بـالنسبة لجيري كانت مزحة عظيمة . والنساء ما كنّ يلمسن كأساً صبه جيري لهن » .

في 1 نيسان/ إبريل 1959 ، رُقي بول مرة ثانية فأصبح مديراً لجناح علوم الطيران ، مشرفاً على 19 اختصاصياً و 24 تقنياً ، وبصلاحية تامة لإدارة أبحاث علوم الطيران والإيروميكانيكيات في (CARDE) . في هذا الوقت خصصت له سيـارة بسـائق لنقله من البيت إلى مـركـز عمله . وتقـول مـلاحـظة من سجله الشخصي : « حتى هذا التاريخ كان بول قد جنّـد علماء بـارعين للغايـة وأقام تسهيلات فريدة من نوعها في العالم. وكنتيجة لما تقدم ، حظي باهتمام دولي وأصبح لـ (CARDE) برنامج تعاون مع وكالة القذائف والصواريـخ الموجهـة الأميركية حول خصائص المخروط الأمامي عند دخول جو الأرض من جديد . التقدم المُحرز حتى هذا التاريخ يثير الإعجاب جداً » .

مع ذلك ، فإن المعارضة للنهج الذي يتبعه بول بدأت بالازدياد في أوتاوا . فللحصول على سرعات أكبر وجعل نماذجه تطير بمثل سرعاة مركبات الفضاء ، كان بول يبني مدافع أكبر وأكبر . الآن كان لديه مدفع غاز خفيف ، محمول على دواليب عربة قطار ، وقادر على إطلاق مقذوفات تبلغ سرعتها أكثر من 16 ألف كلم بالساعة .

لكن الكثيرين في الوسط العلمي كانوا يشعرون أن زمن المدافع العملاقة قد انتهى والدرب الوحيد المفتوح هو للصواريخ والقذائف الصاروخية . قالوا أن بول يهدر الوقت والمال. عرضة للهجوم،كان بول ضيق الأفق مثل الذين ينتقصون قدره . فقد أخبر كل من كان مستعداً للسماع أن مسؤولي فالكارتييه ينفقون 40 بالمئة من وقتهم بالانشغال في معرفة من لديه أكبر طاولة .

يقول رونغ « بلغ الأمر حداً أصبح كل شخص يعمل لجيري مكروهاً في (CARDE) . فإذا ذكرت اسمه فقط كان الناس من خارج مجموعتنا يتظاهرون بالتقيؤ . كان هناك سببان . الأول ، كان الحسد يملؤهم . الثاني ، هو أنه كسر كل القواعد » .

بينما كانت الأمور تزداد سوءاً مع رؤسائه في كندا ، كان بول يصبح أكثر

فأكثر محبوباً في الولايات المتحدة . صديقه مورفي كان يتأكد من أن يكون الناس المناسبون على علم بكل تطور . وكان هناك اهتمام كبير باختبارات الحقل ، التي تُظهر تأثيرات دخول جو الأرض من جديد على المخروط الأمامي ، القبعة المصنوعة من الليف الفحمي التي تغطي أنف أو رأس الصاروخ لحمايته من الحرارة المفرطة . وبالفعل ،ازداد الاهتمام إلى درجة أنه في آذار 1960 طلب الليوتنانت جنرال آرثور ترودو ، مسؤول الأبحاث والتطوير لدى الجيش الأميركي توجيه دعوة له لزيارة فالكارتييه . والدا ترودو كانا من كويبك لذا كان الجنرال مسلوباً بالثقافة الكندية ـ الفرنسية . استغل بول الفرصة إلى أقصى حد ، فأخذه إلى منزله للتعرف على ميمي واستضافه بكل كياسة . وقد مزح بول بأن ميمي تتكلم الفرنسية بلهجة أهل بروكلين ، فضحك ترودو كثيراً .

صحب بول ترودو إلى فالكارتييه وقدم له عرضاً لإنجاز علمي باهر . باستخدام مدفع الغاز الخفيف أطلق « قنبلة » علمية بسرعة 9 آلاف متر بالثانية عبر الحقل البالغ طوله 150 متراً ، وحيث كان ضغط الهواء أقل من واحد بالمليون من الضغط على مستوى البحر . كان قادراً على إثبات أن الأدوات داخل القنبلة لم تكن تعمل وحسب ، طوال الطيران ، بل كانت أيضاً ترسل معلومات حول السرعة والظروف . كان قد تمكن من تصميم «قنبلة» تحوي هذه الأدوات الدقيقة وتحميها من تأثير السرعات الكبيرة التي تنتج عن الدفع المدفعي . الفائدة الأهم من استخدام مدفع لإرسال أدوات علمية إلى الجو القريب ، هي في الكلفة التي ستكون أقل بكثير مما لو تم استخدام صاروخ . كان ترودو متأثراً بالأفكار غير العادية لاستخدامات المدافع ، وقال إنها أشبه ما تكون خارجة من رواية جول فيرن . ليس مفاجئاً ، قال بول ، لو أن بعض هذه الأفكار كانت بالفعل مأخوذة عن فيرن . وتباهى بول بأن فكرة فيرن لإطلاق رجل بواسطة مدفع وإرساله إلى القمر قد ألهمته . « فكرة ليس ممكناً تحقيقها » قال بول « لكن الكثير غيرها ممكن » .

مع ذلك وجد ترودو صعوبة في تصديق بيانات وتصورات بول حول المدفع العملاق . وعندما عاد إلى واشنطن طلب من مورفي أن يتحقق من ذلك في المختبرات في أبردين بروفينغ غراوند . وسرعان ما أرسل مورفي تقريراً يقول فيه

إن هذه التصورات تستند على أرضية صلبة . عندها أخبر ترودو مورفي أن « يشير » إلى بول بأنه متى أراد ترك (CARDE) وأراد دعماً لفكرة المدفع العملاق فإن واشنطن ستكون مهتمة .

في هذه الأثناء ، كان وضع بول في (CARDE) يزداد حدّة . كان متهماً بحب الظهور ، والآن بدأ الكلام يروج حول أنه قريب جداً من الأميركيين .

في 15 شباط/ فبراير 1961 ، استقال بول من (CARDE) معطياً مهلة 3 شهور . رسالة الاستقالة الأصلية أخذت شكل هجوم حاد على سياسة الحكومة الكندية ، لكن كبير المدارء جي . جي . غرين أقنعه بأن تلك الرسالة لن تفيد إلاّ في ضرره الشخصي . وأن عليه اتباع الدبلوماسية ، على الأقل لأنها ستحفظ في ملفه . في النهاية وافق بول وكتب أنه يترك العمل « لتوسيع خبرته واتصالاته في الميادين العلمية غير العسكرية » . وكان مدعاة لافتخاره أنه كان الموظف الحكومي الذي يحصل على أعلى راتب في التاريخ الكندي مقارنة بعمره . كان في الثالثة والثلاثين ويجني حوالى 17 ألف دولار .

كان بول عندما وصل إلى (CARDE) ولداً هزيلاً ، ساذجاً سياسياً واجتماعياً . عمل هناك بإحساس الواجب ، مصمماً على مساعدة بلده ضد ما كان يراه خطراً شيوعياً ، ولضمان استمرار حصول معهد علوم الفضاء على المنح . وخلال العقد الذي أمضاه في العمل الحكومي ، تغير بول بطرق جذرية . أفضل شيء حدث له كانت ميمي . فقد وفرت له ، هي وعائلتها ، بيتاً سعيداً وخالياً من التوتر . لكن لم يكن ممكناً تخفيف وقع كل اللكمات التي تلقاها على طول الطريق . لم يكن قادراً على تحمل النقد ، ولم يتعلم أبداً الفصل بين السياسة العامة والتجريح الشخصي . تحدى بمفرده قرار الحكومة بعدم إطلاق قمر اصطناعي بواسطة مدفع . بالنسبة إليه ، الذين لم يكونوا معه كانوا ضده .

لكنه إذا كان قد وصل إلى (CARDE) وهو قليل الخبرة وبلا رؤية واضحة ، فقد تركها ، على الأقل ، بقشرة من الحنكة وبمهمة محددة . كان مصمماً على بناء ذلك المدفع العملاق واستخدامه لإطلاق قمر اصطناعي في المدار . الأنا لديه لم تكن ترضى بأقل .

الجزء الثالث

الحلم ، الهوى ، البهجة

6

جاءه أكثر الضغط من الداخل . د. جيلبرت ، والد زوجته ، نصحه بالتمهل عندما ترك (CARDE) ويأخذ وقت كاف ليجد العمل المناسب . ومن خلال شارلز مورفي واتصالات أخرى ، أعلم بول من يهمه الأمر بأنه على استعداد للقيام بأعمال استشارية . كانت هناك عروض عمل في الولايات المتحدة ، بينها عرض لتولي رئاسة مختبر تابع لـ « جنرال موتورز » ، لكنه لم يكن يريد ترك كويبك ؛ كانت روابطه العائلية قد ازدادت قوة . أيضاً ، كانت فكرة إطلاق قمر اصطناعي بواسطة مدفع تزداد أهمية . لم يعد يرى تحقيق هذه الفكرة مشروعاً بل مهمة . وكلما ركز بول على حساباته أكثر ، كلما ازداد اقتناعاً بإمكانية تحقيقها . أكثر من ذلك ، هو أن هذا الهدف مثالي لبلد مثل كندا ، يمتلك تطوراً تكنولوجياً لكن قدرته على التمويل محدودة . فبجزء بسيط مما يتكلفه الأميركيون لإطلاق قمر بواسطة صاروخ ، كان بول موقناً بقدرته على وضع قمر في المدار بواسطة مدفع . وكان يرى أنه يكفي أن يشرح فكرته بشكل وافٍ للناس المناسبين في أوتاوا حتى تصبح الأموال في متناول اليد .

في نيسان/ إبريل 1961 وضعت ميمي طفلها الرابع ، ريتشارد الذي سيُعرف بـ « بووه » .

في ذاك الربيع حدثت أزمة صغيرة داخل عائلة بول ، جعلت جيري يدرك مدى عمق الهوة التي تفصل بين طفولته وطفولة أبنائه . فيليبي ، ابن الست سنوات ، مرض فترة طويلة خلال تلك السنة ، واقترحت الراهبات في المدرسة

التي يتعلم فيها الأولاد أن يعيد صفه . في حين كان ميشيل الأصغر بسنة ونصف السنة ، جاهزاً للترفع في أيلول/ سبتمبر . كان السؤال : هل على الأخوين أن يستمرا بالدراسة وهما في الصف نفسه ، وهل يمكن أن يعاني فيليبي ضرراً نفسياً من وجود أخيه الأصغر سناً معه في الصف نفسه ؟ اقترح د. جيلبرت تأخير ميشيل ، لكن د. بول رأى أن لا تتم إعاقة تقدم ميشيل . وفي النهاية قرر أن يتابع الأخوان دراستهما معاً . وقد صُدم جيري بول من ذلك التناقض الصارخ بين الاهتمام الذي شعر به تجاه أولاده وبين الإهمال الذين عاناه في طفولته المبكرة .

كان بول قد توقع أنه بعد ترك (CARDE) سيتوفر له وقت للتفكير والتجدد . العمل المناسب ، قال لأصدقائه ، هو ذاك الذي يتيح له متابعة أبحاثه على المدافع الكبيرة ، وتقديم استشارات للأميركيين للحصول على المال .

لكن الأمور حدثت بسرعة ، وجاءت الفرصة عبر دونالد ال. موردیل ، عميد كلية الهندسة في جامعة ماك غيل ، في مونتريال ، وهي واحدة من أعرق وأشهر المؤسسات في أميركا الشمالية .

كان موردیل ، وهو انكليزي طويل ونحيل خريج كامبريدج ، وذو شارب كث ، مأخوذاً ببول مثلما كان الجنرال ترودو . وبصفته مهندساً باحثاً في ديناميات الغاز ، كان موردیل مؤمناً بحلم بول . لم يعتقد أنها ممكنة التحقيق فقط بل كان أيضاً مستثاراً ببهاء وسحر الفكرة . رآها مغامرة تلفت الأنظار ويمكن أن تجذب اهتماماً دولياً بجامعته ، وربما تدر الكثير من المال .

عارفاً عيوب بول وعجزه عن مسايرة السلطة والمحظورات ، قدم موردیل عرضاً لبول . أن يضمه إلى طاقم الهندسة في ماك غيل ، وضمان توفير فرص للعمل على أبحاث المدافع الكبيرة ، بشرط أن يتولى - موردیل - بنفسه الاتصالات مع الحكومة وتأمين المنح المالية .

في 5 حزيران/ يونيو 1961 ، وفقط بعد شهر من ترك بول عمله في (CARDE) أعلن سيريل جايمس ، رئيس ونائب مستشار جامعة ماك غيل ، أن جيرالد بول قد عُيّن أستاذاً لمادة علم الهندسة في دائرة هندسة الميكانيك . اختصاص بول ، قال د. جايمس ، سيكون في ايرودیناميات الطائرات

والمركبات الفضائية في أقصى السرعات والارتفاعات . وقد أخبر بول ، أنه ، وهو في الرابعة والثلاثين من العمر ، كان أصغر أستاذ متفرغ عُيّن في مالك غيل على الإطلاق .

في ذاك الوقت لم يخف بول سراً بأنه يقوم بعمل « خارجي » ، وكانت متطلبات مستوى حياته ـ بعد فترة وجيزة سيشتري عقاراً مساحته مئات الهكتارات ـ تظهر بوضوح أنه يعيش بمستوى أعلى بكثير مما يمكن أن يوفر له راتب الجامعة . « خلال السنة الأولى منذ تركه (CARDE) جنى والدي حوالى 100 ألف دولار كمستشار » يقول ميشيل .

كان بول يؤمن بأنه يحصل على راتب جيد عندما كان يحصل على 17 ألف دولار من الحكومة الكندية عام 1959 . فلأي نوع من العمل يمكن أن يدفع له شخص ما ستة أضعاف هذا المبلغ عام 1961 ؟ ومَنْ عساه يكون هذا الشخص ؟

من المنطقي افتراض أنه كان يقدم استشارات حول تطوير أنظمة عسكرية ، وهذا يعني ، وبدون أي شك ، أن المال كان يرد إليه بطريقة أو بأخرى من واشنطن .

كما لا يوجد أي شك حول طبيعة العمل الذي كان يؤديه . مصادر مقربة من بول تقول إن المال كان يُدفع له مقابل متابعة الحسابات النظرية التي بدأها في (CARDE) حول ما يمكن أن يحدث لمركبة فضائية عند دخولها من جديد الغلاف الجوي للأرض . فتلك المرحلة كانت تشهد بداية تطوير الصاروخ البالستي العابر للقارات ، أو (I CBM) اختصاراً . الصاروخ « تيتان » العابر للقارات كان قد خضع للتجارب الأولى لطيران بمدى 5 آلاف كلم في نيسان/ إبريل ، وبعد سلسلة من الإخفاقات نجح الصاروخ « أطلس » بطيرانه الأول بمدى 15 ألف كلم في آيار/ مايو . وكان مقرراً إجراء اختبار في شباط/ فبراير 1961 على النماذج الأولى من صاروخ مينتمان ، التي تعمل بالوقود الصلبة .

كل هذه الصواريخ ، تيتان وأطلس ومينتمان وغيرها ، كانت مصممة على أساس الطيران عبر الفضاء إلى حين وصولها إلى فوق الهدف ؛ في تلك النقطة يكون عليها الدخول مجدداً إلى جو الأرض بسرعات قد تبلغ مداها 29 ألف كلم بالساعة . وكان معروفاً أن الاحتكاك الناتج عند الدخول مجدداً إلى جو الأرض ،

يولّد حرارة هائلة ـ كافية لحرق الصاروخ وتدميره ـ ولذا ، كانت الحاجة لمخروط أمامي للصاروخ يكون قادراً على امتصاص الحرارة ويخرج من مرحلة الدخول مجدداً إلى جو الأرض بأدنى ضرر على أن يسمح للصاروخ ببلوغ هدفه بدقة . من بين مشاكل الصواريخ البالستية العابرة للقارات ، كان الدخول مجدداً إلى جو الأرض وتصميم مخروط أمامي مناسب الأكثر صعوبة للحل .

كان للولايات المتحدة علماؤها الذين يعملون على هذه المشاكل ، لكن طريقة تعاطي بول معها كانت تعتبر مختلفة وقيمة . ذلك أنه كان يسند حساباته على دراسات عملية للمقذوفات ـ المقذوفات التي كان قد أطلقها من المدافع في حقل الاختبار لدى (CARDE) بسرعات تقترب من 29 ألف كلم بالساعة . يقول أحد الذين عملوا مع بول في تلك الفترة « كان مغرياً دائماً شراء دراسات بول لأنه قد يتناول نظريات ويستقرىء تطورات محتملة » . وكان يمكن أن تتضمن دراسات بول اقتراحات تخيلية للعمل في المستقبل . فحيث كان معظم العلماء حذرين وممانعين عن تصور أي شيء وراء حدود ما تقدمه لهم المعلومات اليقينية ، كان بول مغامراً ومستعداً لتوقع حصيلة أي فرضية معطاة . وكانت لديه مقدرة غريبة لإثبات ذلك . في عالم العلم المتزمت أدى ذلك لازدياد الغيرة وانتقادات تافهة لكن مؤذية بلغت حد اعتباره طائشاً وميالاً للتخمين . لكن ذلك لم يمنع أن يصبح بول رائداً محترماً في مجال المخروطات الأمامية للصواريخ البالستية . وقد شاركته الولايات المتحدة بما لديها من تكنولوجيا لمساعدته في توجيه عمله .

من ناحية أخرى ، مرّر الجيش الأميركي عقداً لبول ، بموافقة ماك غيل ، لمتابعة دراسة تأثيرات القذائف ، التي تطلق من مدفع عملاق على صواريخ بالستية عابرة للقارات آتية . ولإدراكه أن الجامعة لن ترغب في المشاركة في أبحاث عسكرية خارجية أقام الجيش الأميركي بتمويه المشروع ليبدو جزءاً من برنامج للسفر عبر الفضاء .

أعطي بول مكاتب في مبنى قديم لكلية الهندسة في حرم ماك غيل في قلب المدينة ، وفي أيلول 1961 بدأ برنامجاً دراسياً لمرحلة ما بعد التخرج . لأبحاث تأثير السرعة المفرطة ، حتى أنه أحضر معه مدفع غاز خفيف صغيراً . ثم بدأ

باستعمال المدفع خلال العطل الأسبوعية ، عندما يكون عدد الموجودين قليلاً « كان يستخدم مدفعاً ذا سرعة مفرطة لإطلاق قذائف باتجاه خزانات للأوكسجين السائل » يتذكر بروفسور سانو مولدر ، وهو أيضاً أستاذ في ماك غيل . « في إحدى العطل الأسبوعية ، احترق مدفعه وهز المبنى بكامله . وقد احتاجوا لثلاثين عاملاً لتنظيف الغبار من المكاتب » .

كان الاختبار الذي يعمل عليه عند وقوع حادثة المدفع ، جزءاً من عمله على الأداة المضادة للصواريخ . لكن معظم اكتشافات وحسابات بول غطاها الغبار عندما وقّعت الولايات المتحدة معاهدة مع الاتحاد السوفياتي تحظّر صنع أسلحة مضادة للصواريخ ، في عام 1972 . وقد نُفض الغبار عن عمله وأعيد النظر فيه عام 1983 عندما قرر الرئيس رونالد ريغان تطوير درع شبه كامل للحماية من الصواريخ السوفياتية : مبادرة الدفاع الاستراتيجية (SDI) المعروفة بـ « حرب النجوم » وفي حين تبقى النقاشات الأخيرة حول عمل بول مصنفة ويُمنع الاطلاع عليها ، فإن المثير للدهشة هو أنه في حين تم شطب معظم الـ (SDI) إلا أن واحداً من المشاريع المتبقية المرتبطة بهذا المبادرة ، يعمل عليه مختبر لورنس ليفرمور للأسلحة في الولايات المتحدة ، يحمل شبهاً مذهلاً لأفكار بول في أواخر الخمسينات ومطلع الستينات .

في حزيران/ يونيو 1961 ، استأجر بول منزلاً على طراز مزرعة ، مؤلفاً من عشر غرف ، في إحدى ضواحي مونتريال ، تدعى سان برونو ، وانتقلت ميمي والأطفال من كويبك ، تاركين فجوة كبيرة في حياة أهلها .كان هناك كلام مرة عن شراء ملكية في الريف حيث يمكن للعائلتين قضاء الإجازات وحتى العطلات الأسبوعية . وقد رأى بول الآن أنها الفكرة الأفضل لأن ما يحتاجه بالفعل هو حقل لتجارب الإطلاق خاص به ، في مكان يشبه (CARDE) ، ناءٍ ولا يخضع لأي تدخل .

وجد المكان المثالي في هاي ووتر ، كويبك ، على مسافة دقائق عدة من الحدود الأميركية وعلى بعد 100 كلم تقريباً جنوب شرق مونتريال كانت الأرض كثيرة التلال والأشجار وتعج بالحيوانات البرية . لم تكن صالحة للزراعة وفي تلك المنطقة التي تعاني كساداً اقتصادياً لم تكن ذات قيمة اقتصادية . كانت خطته

أن يبني منزلين صيفيين لعائلتي بول وجيلبرت في هاي ووتر ، في حين يستطيع جيري استخدام المنطقة لاختبار البالستيات ، حيث لن يزعج الضجيج أحداً .

خلال صيف 1961 ، وضع بول ومورديل التصاميم لمشروع من شأنه أن يؤدي إلى إطلاق قمر اصطناعي بواسطة مدفع . أطلق على المشروع اسماً رمزياً هو : HARP ، وهي كلمة تتألف من الحروف الأولى لـ « برنامج أبحاث الارتفاع العالي » (High Altitude Research Programme) . مرة في شهر آب/ أغسطس ، أخذ موردل التصاميم إلى دائرة الانتاج الدفاعي في أوتاوا طالباً الدعم المالي . وكان قبل ذلك قد اتصل بمجلس الأبحاث الدفاعية فرفض طلبه من قبل خصوم بول القدامى بحجة أن المشروع « ليس ذا فائدة دفاعية » . لكن دائرة الانتاج اقتنعت بالمشروع ووعدت بتقديم نصف مليون دولار ، لكن وبسبب الروتين الحكومي الموجود لم يكن ممكناً تسليم المبلغ قبل ستة شهور على الأرجح .

خلال الأسبوع الأول من أيلول/ سبتمبر قدم مورديل وبول لمجلس أمناء جامعة ماك غيل اقتراحاً بالمباشرة فوراً بالمشروع ، وقالا إنه بالتأكيد سيجذب اهتماماً إعلامياً إيجابياً ، وهذا بدوره سيجذب تلاميذ وأساتذة من نوعية عالية إلى الجامعة . والأهم ، هو أن مشروع (HARP) قد يدرّ أموالاً طائلة ، إذ ما أن يبدأ بإطلاق أقمار اصطناعية بكلفة منخفضة حتى تتزاحم الشركات من مختلف أنحاء العالم لحجز دورها . لكن كانت هناك حاجة عاجلة لمبلغ 200 ألف دولار لإقامة موقع إطلاق . وقد وعد مورديل وبول في حال قبلت ماك غيل بتسليفهما المبلغ برده خلال عدة شهور عندما يحصلان على المال الذي وعدت دائرة الانتاج الدفاعي بمنحه لهما . وقد وافق مجلس الأمناء على تسليف المبلغ متأثراً بالحماس المفرط الذي أظهره بول .

كانت الجامعة ميالة لإيجاد موقع لـ (HARP) في براري شمالي كويبك ، لكن بول ظن أن أعداءه في (CARDE) قد يحاولون تقويض فكرته ، فاقترح مورديل جزيرة باربادوس ، حيث كانت ماك غيل تعمل على بناء مختبرين آخرين هناك ـ مشروع لتحلية مياه البحر ومركز لدراسة الحياة البحرية . ولكونها جزيرة فقيرة ، فإن حكومتها وافقت فوراً على استضافة (HARP) خصوصاً عندما قيل لها

أن المشروع سيوفر فرص عمل . كانت باربادوس مكاناً مثالياً لأسباب عديدة ، ليس أقلها أن بالإمكان إطلاق القذائف على مدى واسع جداً فوق محيط خاو دون أن يكون مهماً فعلياً أين تسقط .

في تشرين الأول/ أكتوبر ، قاد بول سيارته إلى بالتيمور حيث التقى مورفي ، الذي كان الآن رئيساً لمختبر الأبحاث البالستية الأميركي. فبعد زيارة الجنرال ترودو إلى فالكارتييه أمر مورفي بالقيام ببعض الاختبارات لمعرفة إلى أي ارتفاع يمكن أن تصل قديفة أطلقت بواسطة مدفع . وقد تعقب مورفي قذيفة بواسطة الرادار إلى علو 40 ألف متر . وكان هذا الارتفاع أكثر مما كان متوقعاً ، وقد أثارت الاحتمالات اهتمام الجنرال ترودو .

كان لترودو والجيش الأميركي أسباب غير معلنة للاهتمام المميز بـ (HARP) . ففي ذلك الوقت ، كان سلاح الجو الأميركي يسعى للسيطرة كلياً على النشاط العسكري الأميركي في الفضاء . وكان الجيش يريد أن يبقى مشاركاً في عسكرة الفضاء لكنه كان يدرك أنه على وشك خسارة المعركة . وقد رأى ترودو والجيش في مشروع (HARP) بشيراً لِما يمكن أن يكون سلاحاً مضاداً للأقمار الاصطناعية وللصواريخ البالستية . وكانوا يفكرون بالمدفع الضخم الذي اقترح بول بناءه في العام الماضي عندما كان ما يزال يعمل في (CARDE) ، وبالأبحاث الحالية لبول في ماك غيل ، والأبحاث التي كانوا يمولونها . بالنسبة للجيش الأميركي كان (HARP) أشبه بالباب الخلفي للبقاء في ميدان عسكرة الفضاء . كان يسمح لهم خلال الجلسات السياسية بالزعم بأنهم ما كانوا يمولون أبحاثاً عسكرية فضائية ، وإنما يقدمون مساعدة بسيطة لبرنامج جامعي . البرنامج ، على حد قولهم ، يمكن أن ينتج معلومات جديدة عن كيفية تأثر قذائف المدفعية بالريح والتيارات الهوائية خلال طيرانها في مسارات عالية فوق مساحة معركة .

كبداية ، لم يرغب الجيش في تخصيص الكثير من المال لـ (HARP) لأنه لم يكن يريد لفت الانتباه إلى مشاركته . وقد شرح مورفي أنه إذا ما قبلت ماك غيل بمنحة 200 ألف دولار ، فإن هذه المنحة ستربط الجيش بالمشروع ، وسيكون الجيش عندها حراً في دعم (HARP) لوجستيا بتأمين المدافع والرادارات . وافق

بول باسم ماك غيل وقال إن ما يحتاجه فعلياً هو مدفع قطر سبطانته 40 سم ـ الأكبر بين كل المدافع الحديثة وتستخدمه البحرية الأميركية فقط .

في غضون أيام قليلة وجد مورفي مدفعاً حسب طلب بول ، وكان ذلك تعبيراً عن مدى حماسه للمساعدة . كان طول المدفع 21 متراً ، ويزن 125 طناً مترياً (الطن المترى يساوي ألف كيلو غرام) وكانت البحرية تحتفظ به في المخزن طوال العشرين سنة الماضية . وكما اتضح لاحقاً ، فإن هذا المدفع لم يستخدم أبداً في معركة ، برغم أنه صمِّم ، عام 1921 ، لضرب أهداف متحركة فوق الأفق . وقد وجد مورفي أيضاً مدفعاً مشابهاً آخر لاستعماله للاحتياط ، بالإضافة إلى مدفع ذي فوهة بقطر 10 سم للاختبارات التمهيدية . فوق كل ذلك قدم مورفي نظام رادار قيمته 750 ألف دولار ، ورافعة عملاقة متحركة وشاحنة . وقال إن الجيش قد يرتب ، على الأرجح ، أمر تسليم هذه المعدات ما أن توافق الجامعة على موقع باربادوس .

وافقت ماك غيل على باربادوس ، لكن على الجبهة المالية كانت الأمور تسير بشكل سيء . في أوتاوا ، اكتشفت دائرة الانتاج الدفاعي أنها إذا أرادت تنفيذ وعدها بدعم (HARP) بمبلغ نصف مليون دولار ، فإنها بحاجة للحصول على إذن من مجلس الأبحاث الدفاعية ـ أكثر أعداء جيري بول كذباً بحقه ـ وقد عارض المجلس . أ. هـ. زيمرمان ، رئيس المجلس ، قال لاحقاً إن المنحة كان يمكن تمريرها لو كان للمشروع « فائدة صناعية » . وهكذا ، وبغض النظر عن السبب الحقيقي ، فإن الوعد الذي قُطع لم يتحقق ولم يصل النصف مليون دولار أبداً . ماك غيل كانت عالقة بسلفة الـ 200 ألف دولار التي قدمتها ، أما بول فأصبح مقتنعاً أكثر من ذي قبل بأن أوتاوا تُدار بواسطة أُناس غير مؤهلين .

خلال الفترة التي أمضاها في (CARDE) أوجد بول أعداء كثيرين ضده في أوتاوا كنتيجة لأسلوب عمله الحر ولغته غير المعتدلة ؛ ملاحظته حول « علماء حفلات الكوكتيل » حققت إصابات لاذعة . ك. ف. توبر ، نائب رئيس مجلس الأبحاث الوطنية ، لشؤون الصناعة ، كتب في مذكرة سرية أن « مشروع (HARP) يتألف في معظمه من أجزاء كبيرة وغالية » . وأضافت « مشروع (HARP) لا يفتح باباً لاحتمالات من أي نوع » .

علماء آخرون وافقوا على أنه يمكن « نظرياً » إطلاق قمر اصطناعي صغير من مدفع ، بكلفة منخفضة نسبياً ، لكنهم قالوا إن ذلك لن ينجح « عملياً» . إذا لم يثبت أبداً أن الأدوات الدقيقة ، التي تجعل القمر الاصطناعي ذا قيمة ، تستطيع تحمل قوة السرعة الفائقة عند الإطلاق من المدفع ؛ وقالوا أكثر من ذلك ، إن خطة بول للقمر الاصطناعي ليست أكثر من إثارة دعائية . فإطلاق قمر اصطناعي بواسطة مدفع من شأنه إثارة حماسة الجمهور لا أكثر ، دون أن يكون له استعمالات عملية لاحقاً . جي . ل. أور ، مستشار الأبحاث الصناعية لدى وزارة الصناعة ، وهو أبرز منتقدي بول داخل اللجان التي كانت تجتمع وراء أبواب مغلقة وجه مذكرة سرية إلى سيمون رايزمان ، وهو موظف كبير ترأس لاحقاً الفريق الكندي لمفاوضات التجارة الحرة مع الولايات المتحدة عام 1985 . قال أور في المذكرة : « إن الإدارة الفعلية لمشروع هندسي ضخم بهذا الحجم تتجاوز بكثير قدرة هيئة جامعية وتتناقض حتماً مع مسؤولياتها الأكاديمية » . واستخلص أن المشروع لا يعدو كونه « تهور علمي » .

كانت ردة فعل بول أن وصف مسؤولي أوتاوا بقصر النظر والغباء. وقال إن HARP سيجري سلسلة اختبارات تمهيدية تطلق خلالها قذائف تحمل معدات إلى ارتفاع يبلغ عدة مئات الآلاف من المترات لاختبار أحوال الريح . والمعلومات التي سيتم تجميعها ستكون ذات قيمة عظيمة لتوقع أحوال الطقس وفهم تغيرات الجو . الأقمار الاصطناعية الصغيرة الأصلية ، قال بول ، يمكن استخدامها لأهداف رصد الأحوال الجوية ، وفي النهاية سيكبر هذا الجهاز ليصبح قادراً على إطلاق أقمار اصطناعية كبيرة بما يكفي لكل أنواع أجهزة الاتصالات . والمهم ، قال بول ، إن (HARP) سيوفر برنامجاً فضائياً مثيراً وفريداً من نوعه لكندا ، من شأنه تحفيز مشاعر الاعتزاز القومي ، والمساعدة على وقف هجرة الأدمغة صوب الولايات المتحدة ، وتأمين عمل للصناعة التقنية العالية في البلاد والتي تكافح للبقاء .

من جهتها ، وجدت الجامعة نفسها منجرفة بهذا المشروع الذي امتلك دينامية قائمة بذاته ، لم تكن ماك غيل قادرة على توفير الدعم لمشروع بهذا الحجم ، ولم تكن قادرة على وقفه أيضاً .

في أواخر آذار/ مارس 1962 ، دعت الجـامعة إلى مؤتمـر صحفي في مونتريال ، كان بول ومورديل قد دبرا هذا الأمر وتوليا إدارة المؤتمر . وقد أعلنا أنها المرة الأولى في التاريخ التي تقوم فيها مؤسسة خاصة بتأمين علمائها وتسهيلاتها لمشاريع أبحاث فضائية شاملة ومتواصلة . وقد وجد بول نفسه مجبراً على إضافة أن (HARP) قد يكون مؤشراً على نهاية هيمنة القوى الكبرى على الفضاء ، لأنه قد يطلق قريباً صواريخ من مدفعه الكبير في باربادوس لبلوغ ارتفاعات لم تبلغها بعد أقوى الصواريخ العسكرية .

وقف بـول ومورديـل على مسرح صغيـر ، وأمامهمـا ثلاثـة « مِسْبـارات فضائية » ، صواريخ مصغرة بزعانف وأنف على شكل رصاصة . التُقِـطـت لها صور رائعة ، وقد دعاها شخص ما لاحقاً بـ « دببة بول الثلاثة » . كانت تمثل المراحل الثلاث للبرنامج الفضائي ،وكلمـا زاد الحجم كلما زاد تعقيدها . الأول كان أقل من نصف متر طولاً ، الثاني أطول قليلاً من نصف متر والثالث كان تقريباً بطول مترين . وقد أطلق بول عليها اسـم : مارتليت (Martlet) ، أي الخطاف الأوروبي ، وهو طائر كالسنونو ، تتخذه ماك غيل شعاراً لها . كانت هذه التسمية « ضربة معلم » إذ أعطت المشروع هوية ماك غيل بشكل متين وحشدت الجسم الطلابي وراءه . كان الانطباع ، الذي أوحى به بـول ، هو أن المـارتليت كان جاهزاً للطيران وأن المشروع بكامله كان قد قطع خطوات متقدمة . وبرغم أن نماذج المارتليت لم تكن أكثر من أجسام فارغة . إلا أن المؤتمر الصحفي نجح في تحقيق هدفه غير المعلن : إلزام ماك غيل بالمشروع . لم تعد الجامعة قادرة الآن على سحب يدها منه دون أن تخسر ماء الوجه .

خلال المؤتمر قام بول برسم سريـع ، بالـطبشور ، على اللوح الأسـود وراءه . كان الرسم يظهر الأرض مع التروبوسفير (الطبقة السفلي من الغلاف الجوي) البالغ ارتفاعها 12 كلم ، تحيط بها الستراتوسفير (الطبقة العليا) البالغ ارتفاعها 100 كلم والأيونوسفير (الغلاف الأيوني) البالغ ارتفاعه 350 كلم . ووراء هذا ، كتب بول بكلمات كبيرة : الفضاء .

وهو يتحدث بثقـة كاملة ، قـال بول إن المشـروع سيفتتح الشهـر التالي بإطلاق الطلقات الأولى من مدفع الـ 10 سم إلى ارتفاعات تصل إلى 50 كلم .

خلال هذه المرحلة الأولى ، قال بول ، ستخترق القذائف الحاملة للمعدات الستراتوسفير ، التي كان العلماء بحاجة لمعرفة الكثير عنها لأنها كانت تُستخدم بشكل متزايد من قبل الطائرات التي تحلق على ارتفاعات عالية .

وقد وعد بول ، أنه بحلول خريف 1963 ، سيبدأ مدفع الـ 40 سم بالعمل ، مطلقاً مسبارات إلى الايونوسفير. في المرحلة الأخيرة ، التي سيتم بلوغها مع حلول الذكرى المئوية لكندا عام 1967 ، فإن المدفع سيكون قادراً على إطلاق قذائف تحتوي صواريخ تعمل بالوقود الصلبة . وعندما تصل القذائف بالصواريخ إلى ارتفاع يقارب 200 كلم ، سيتم إشعالها ـ الصواريخ ـ من الأرض . وحسب بيان لماك غيل : « تستطيع الصواريخ أن ترفع ما تحمله إلى ارتفاع أعلى بكثير ، وبفضل ما قد تبلغه من سرعة ستتمكن من الإفلات من الغلاف الجوي كلياً . بكلام آخر ، ستتمكن هذه الصواريخ من وضع أقمار اصطناعية في الفضاء » .

لاحقاً رأى بول المراسلين الصحفيين يزدحمون في مكتبه الذي تسوده الفوضى . أكوام من الرسائل ، المذكرات ، المجلات والنصوص الهندسية كانت تغطي ليس فقط طاولته بل والأرض أيضاً . كانت هناك أبراج متمايلة من المجلات التقنية ؛ وسلة المهملات تفيض بأوراق مكورة وعليها معادلات رياضية .في وسط المكتب جلس بول ، مائلاً إلى الخلف بكرسيه ، وقدماه على الطاولة ، وإبهاماه تحت حزامه . وشن هجوماً عنيفاً على أوتاوا مرة أخرى . قال : « إن الموقف العام حيال علماء الأبحاث في هذا البلد هو أنهم نوع من الطفيليين . العلماء الكنديون يحظون بتقدير خارج كندا أكثر بكثير مما يُقدرون في كندا . الولايات المتحدة مليئة بالكنديين ، وبعضهم في مواقع بارزة » وأضاف « الكنديون لن يراهنوا على الأبحاث ما لم يكن هدفها جني دولار » . وقال بول إنه لا يتوقع من كندا الارتباط ببرنامج أبحاث ضخمة « لكني أرى بالفعل أننا نشتغل في مجالات حساسة وخيالية بدرجة عالية ، ونخرج بأفكار جديدة وآراء من النوع الثوري » .

الفائدة الكبرى لـ (HARP) ، شرح بول ، هي في الكلفة ، وبالفعل فإن التوفير الذي ينتج عن استخدام مدفع عملاق بدل صواريخ سيكون كبيراً إلى حد

أن لدى (HARP) الإمكانية لتأمين بحث فضائي أساسي مقابل كلفة « تافهة » . وشدد بول على أن لا أحد يزعم أن المدفع المطلق للصواريخ يشكل تهديداً للصواريخ ، لكنه قد يوفر مبالغ طائلة . فالصواريخ ستظل حاجة دائمة للرحلات الفضائية المأهولة ، مثل الرحلتين اللتين قام بهما يوري غاغارين وجون غلين في الفضاء مؤخراً ، لكن يمكن استبدالها في مهمات الأبحاث الروتينية . وقال بول إنه لكل رحلة مدارية هناك حاجة لألف مسبار للارتفاعات العالية لقياس سرعة واتجاه الريح ، الحرارة ، كثافة الأيون وكل العوامل الكيميائية والفيزيائية والجوية التي تسمح برسم صورة علمية للفضاء . أكثر من ذلك ، زعم بول أن الحكومة الأميركية كانت تنفق حوالي 20 ألف دولار لإطلاق كل واحد من هذه المسبارات بواسطة صاروخ . وقال إنه بواسطة مدفع كبير يمكنه إطلاق الأدوات نفسها إلى الارتفاعات نفسها بكلفة لا تتجاوز الـ 15 بالمئة .

قبل ذلك ، كان د. جايمس ، نائب مستشار ماك غيل ، قد شرح أن (HARP) لن يسحب « سنتاً واحداً من العائدات للجامعة » وأنه « سيموّل عبر الهبات وعبر العقود مع حكومات ومؤسسات ترغب بالاستفادة من هذا المشروع الفريد » . وكان ذلك أقرب نقطة وصلت إليه ماك غيل لكشف أن (HARP) كان في الحقيقة « وليداً » للجيش الأميركي . وبالفعل ، كان ثمة حرص بالغ على إخفاء دعم الجيش ، بحيث لم يرد ذلك أبداً في التغطية الإعلامية للمؤتمر الصحفي ، الذي فرض نفسه على الصفحة الأولى لـ « مونتريال ستار » في اليوم التالي .

في صيف 1962 ، بعد ثلاثة شهور على المؤتمر الصحفي ، قام الجيش الأميركي بأكبر عملية « إنزال فوق الشاطىء » ، نفذها على الإطلاق . فقد تم وضع مدفع الـ 40 سم ، والمدفع الاحتياطي ، على عربتي قطار مكشوفتين جُرتا إلى على متن سفينة الإنزال الأميركية المخصصة للمياه الضحلة « جون د. بايج » وهي الأكبر والأحدث لدى الجيش الأميركي ، للقيام برحلة الـ 3200 كلم بين فيرجينيا وباربادوس . قبل ذلك ، كان زملاء بول القدامى في جامعة تورونتو قد وافقوا على تحويل مخصصات أبحاث في مشروع آخر ، واستخدامها لنزع الخطوط الحلزونية من داخل سبطانتي المدفعين (الخطوط الحلزونية هي أخاديد لولبية تجعل المقذوفات تطير بشكل لولبي) لجعلهما ملساءتين . وبعد رحلة

استغرقت أياماً توقفت سفينة الإنزال فوق الشاطىء في فوول باي باربادوس ، بينما قام المهندسون ببناء سكة حديدية طولها 450 متراً عبر الرمال باتجاه حقول شمندر . ودُفعت العربتان المكشوفتان فوق السكة المؤقتة ، ثم تولت تراكتورات كبيرة جرّ المدفع العملاق باتجاه موقع ماك غيل على بعد 5 كلم . وكان المهندسون يعمدون إلى نزع قطع السكة بعد مرور المدفع فوقها ثم يعيدون وضعها أمامه من جديد . رئيس وزراء باربادوس ، إ.دبليو بارو، راقب العملية من على قمة كثيب رملي ، وإلى جانبه بول . وقد ضحك الإثنان كثيراً ، وفي نهاية ذلك النهار أصبحا صديقين .

في قاعدة (HARP) ، الواقعة بين مطار سيويل والشاطىء، كان مهندسو ماك غيل قد بنوا موقعاً اسمنتياً للمدفع ، عند أسفل بعض التلال ، في الطريق الشرقي لمدرج المطار . أما الرادارات وأجهزة القياس ، التي قدمها الجيش الأميركي ، فوضعت قرب برج المراقبة ، مما جعل سيويل أفضل مطارات الكاريبي تجهيزاً في ذلك الوقت . واستأجرت ماك غيل منزلاً قديم الطراز ، مزخرفاً بالجص، يحمل اسم « باراغون هاوس » ليكون مقراً رئيسياً . وقد تم استخدام حوالى عشرين مواطناً محلياً لأعمال متنوعة ، بما فيها الأمن . ومع ازدياد حجم التجهيزات ووصول كميات ضخمة من المتفجرات ، زيد عدد قوة الأمن ، وتم تسليح بعض الحرس ، مما أثار كلاماً على أن بول أصبح لديه الآن جيشه الخاص .

7

كانت فكرة الهرب إلى باربادوس الدافئة والوديعة ، خلال شتاء مونتريال مغرية جداً . وتقريباً ، فإن كل طلاب الهندسة في ماك غيل ، وعدداً من المساعدين الجيدين ، تطوعوا للعمل في (HARP) . لكن بالمقابل كان هناك نقص كبير في المخصصات . وبالفعل ، وبدون مساهمة حكومية ، كان المشروع مفلساً منذ بدايته . ولذا وبرغم ما لبول من شهرة فإنه لم يستطع تأمين غير طاقم قليل العدد .

المدفع الكبير، الذي كان بول قد سمّاه «بتسي» ، بدأ يعاني مشاكل في نظام الإرتداد والهيدروليات . وبينما أخذ المهندسون في العمل على التقنيات تم طلاء المدفع باللونين الأحمر والأبيض ، اللذين تستعملهما ماك غيل في شعارها . مما أعطاه لمسة كرنفالية .

ما بين تموز وأيلول/ يوليو وسبتمبر 1962 ، قام بول بتصميم المقذوف الأول لـ (HARP) ـ مارتليت ـ كان صاروخاً اختبارياً ، بطول 168 سم ووزن 221 كلغ (حوالي خمس وزن القذيفة التقليدية التي تستخدمها البحرية لمدفع الـ 40 سم) ، قادراً على حمل أدوات ومعدات اتصال داخل أنفه . وعلى أساس أن يُملىء جسم الصاروخ البالغ قطره 20 سم بمادة كيميائية ملونة لإطلاقها فوق الأرض . بحيث يستطيع المراقبون الأرضيون أن يروا طريقة انتشار هذه المادة لملاحظة الرياح الجوية . والأهم ، هو أن مارتليت ـ 1 كان بهدف اختبار تقنيات المدفع الجديدة . بما في ذلك السبناط الذي صممه بول ، والمصنوع من الخشب والألمنيوم .

في ذلك الخريف ، وبينما بول وأفراد طاقمه منهمكون بالعمل في

مشروعهم ، ساد العالم جو من التوتر بتأثير أزمة الصواريخ الكوبية . في أواخر تشرين الأول/أكتوبر، أعلن الرئيس جون ف. كينيدي أن الاتحاد السوفياتي قد أخلف بوعوده وأنه يبني قواعد « صواريخ وقاذفات هجومية في كوبا » . وقد فرض الرئيس كينيدي « حصاراً شاملاً » فوراً على كوبا لمنع السوفيات من شحن صواريخ إلى الجزيرة . فيديل كاسترو عبأ قواته ، فبدأ الخوف يسود فريق العاملين في (HARP) . فإذا ما اندلع القتال ، افترض بول ، فإن كاسترو قد يقرر أن (HARP) هو نظام حربي جديد موجود على عتبة بلاده ويشكل تهديداً ، مما قد يعرض المشروع والعاملين فيه لهجوم يشنه سلاح الجو الكوبي .

دامت الأزمة حتى نهاية تشرين الثاني / نوفمبر عندما سحب السوفيات صواريخهم من هافانا ورفع كينيدي الحصار . وقد أدت هذه الأزمة إلى تأخير تقدم العمل في (HARP) ثم جاء موسم الأمطار واقتراب عيد الميلاد مما أدى إلى تأجيل الإطلاق الأول إلى كانون الثاني/ يناير . في الأسبوع الأول من السنة الجديدة ، أمّن بول بديلاً عنه للقيام بواجباته التعليمية في ماك غيل ، وطار جنوباً من جديد . هذه المرة كان فريق من الصحفيين الكنديين معه على الطائرة ، فقد أراد أن يحظى اختبار الأطلاق الأول لـ (HARP) بالكثير من الدعاية الإعلامية . لكن التحضيرات النهائية ، كالعمل على تحديد الكمية اللازمة من بارود الدفع ، إضافة إلى المشاكل التي تفاقمت في البالستيات الداخلية للمدفع ، كل ذلك أبقى بول منكباً على الحسابات الرياضية على مدى أيام عديدة كان يعمل خلالها ما لا يقل عن 18 ساعة ، وأكثر من مرة عمل طوال الليل .

العشرون من كانون الثاني / يناير كان حافلاً بالمتاعب . جهاز الإرتداد في المدفع بدأ يرشح ، الجهاز الناطق الذي كان سيستخدم بالعد العكسي للإطلاق لم يعمل ، وفي وقت متقدم من بعد ظهر ذلك النهار اتصلت « لويد » من لندن لتقول إن بوليصة التأمين لا تغطي الحوادث التي قد تلحق بالمدنيين . وأخيراً ، وبعد تأخير حوالى ست ساعات عن الموعد المحدد تم الإطلاق الأول من « بتسي » . وكانت المرة الأولى على الإطلاق التي يتم فيها إطلاق قذيفة من مدفع 54 سم بزاوية 80 درجة ، أي منتصب إلى الأعلى تقريباً .

الجيش الأميركي أرسل رئيس مكتب الأبحاث لديه ، مايجور- جنرال

شيستر كلارك ، لمراقبة هذه التجربة العلمية . وكان قد أقيم ملجأ للمراقبة من القرميد على بعد حوالى 180 متراً من المدفع . لكـن المايجور ـ جنرال كلارك أصـر على مراقبة العملية من خارج الملجأ، فاستلقى على الرمـال، على بعد 120 متراً من المدفع مجازفاً باحتمال إصابته بالشظايا والحجارة بفعل الارتجاج الهائل الذي يحدثه المدفع عند إطلاقه. لكن الجنرال أراد أن لا يفوته شيء . اللهيب امتد تسعة أمتار من فوهة المدفـع . ثم غيمة دخـان صغيرة نتجت عن احتراق بارود الكورديت (متفجر لا دخان له يصنع على شكل حبال) ثم انطلقت قذيفة التجربة الخشبية ، التي تزن 315 كلغ ، من الفوهة بسرعة تقارب 1000 متر بالثانية (تقريباً 4000 كلم بالساعة) وارتفعت حوالى 3 كلم في السماء ، تاركة وراءها أثراً رقيقاً من الدخان . ظلت القذيفة 58 ثانية في الهواء وسقطت في المحيط على بعد كيلومتر من الشـاطىء . في الغسق الإستوائي كـان الحدث مثيراً . « أنا رجل سعيد جداً » ، قال مـورديل ، الـذي كان وضعـه قد أصبـح حرجاً ، فالجامعة ما تزال تنتظر استرداد المال الذي سلّفته للمشروع ، كما أن عمله في الجامعة كان مهدداً في حال عدم نجاح الاختبار .

في اليوم الثاني حشا بول المدفع بـ 330 كلغ من بارود الكورديت الدافع ، وأطلق الصاروخ الأول من « مارتليت ـ 1 » فبلغ ارتفاع 26 كلم في السماء ، وبقي في الجو لمدة 145 ثانية سقط بعـدها في محيط على بعـد 11 كلم من الشاطىء . وفي اليوم التالي قام بول بتجربة أخرى بإطلاق قذيفة تجربة فحققت النتائج نفسها .

في الأول من شباط/ فبرايـر ، أنهى بول السلسلة الأصليـة من عمليات الإطلاق ، بإطلاق صاروخ ثان من مارتليت ـ 1 ، لكن هذه المرة كان يحمل في أنفه جهاز إرسال بقوة وات واحد ، مطوقاً بإحكام بثلاث حلقات بـلاستيكية . كانت المحاولة الأولى ، لإطلاق معدات بواسطة المدفع ، لذا كانت التجربـة حيوية . بلغ الصاروخ ارتفاع 27 كلم وبقي في الجو مدة 146 ثانية . محطات الاستقبـال الأرضية التقـطت إشارات من جهـاز الإرسـال الصغيـر طـوال فتـرة الطيران . وبهذا الإنجاز ، عاد فريق ماك غيل إلى مونتريال للعمل على تحسين وسائل الاتصـال بين صواريـخ مارتايت والمحـطات الأرضية . والعـودة للقيام بواجباتهم التعليمية التي أهملوها كثيراً .

كان بول الآن بحاجة للحصول على مال أكثر وبسرعة . كان (HARP) قد أقلع ، لكن لم يبلغ بعد مرحلة النجاح الباهر . كان بول يأمل بإجراء 14 تجربة إطلاق في السلسلة الأولى من عمليات الأطلاق . كما كان عازماً على كسر الرقم القياسي العالمي لأعلى ارتفاع يبلغه « مقذوف » بواسطة مدفع . وكان هذا الرقم القياسي لصديقه القديم شارلز مورفي ، وقد حققه قبل سنتين بواسطة مدفع 12,5 سم في ابردين بروفينغ غراوند . فخلال التجارب التي أمر بها الجنرال ترودو ، بلغ « المقذوف » الذي أطلقه مورفي ارتفاع 70 كلم ـ أكثر من ضعفي أفضل ارتفاع حققته تجارب بول في سلسلة عمليات الإطلاق الدولية .

بعد أسبوعين من عودته إلى مونتريال ، حيث كان الثلج متراكماً والحرارة ما دون الصفر ، أعلن بول أن سلسلة عمليات الإطلاق الثانية قد تبدأ مطلع نيسان/ إبريل ، وأن صاروخاً جديداً ، مارتليت ـ 3 ، سيتم استخدامه . وحسب قول بول ، فإن الصاروخ الجديد ، الذي يمثل الجيل الثاني من مارتليت ، سيكون أصغر وأخف وزناً من مارتليت ـ 1 ، وسيطير إلى ارتفاع 145 كلم . كما أعلن متفاخراً أن العمل جارٍ على مارتليت ـ 2 ، والذي سيكون ذا دفع صاروخي بما يمكنه بلوغ سرعات وارتفاعات مدارية . مارتليت ـ 3 ، قال بول ، سيكون جاهزاً للإطلاق مع نهاية السنة . في اليوم الأخير من شباط/ فبراير وأمام ندوة حول الأقمار الإصطناعية والطيران في الفضاء ، رعاها مركز علم الطيران والفضاء الكندي ، قال بول إن مارتليت ـ 3 سيقطع 1600 كلم ليصل إلى الفضاء ، وسيحتوي على صاروخ دفعٍ من مرحلة واحدة . أكثر من ذلك ، كشف بول أن مارتليت ـ 4 سيكون مصمماً لحمل صاروخ من مرحلتين ، مما سيمكنه من وضع حمولة 14 كلغ في المدار ، ولاحقاً ستزيد الحمولة إلى 45 كلغ . ولم يذكر بول الأخبار الجيدة التي كان قد تلقاها من الجيش الأميركي : إنهم على استعداد لتمويل (HARP) إلى حدود 250 ألف دولار في السنة .

وفي حين كان (HARP) يؤمن الكثير من الدعاية الجيدة لماك غيل ، إلا أن الجامعة باتت أكثر انزعاجاً من تغيب بول عن صفوفه وعدم إعطاء واجباته التعليمية أي اهتمام . في الحقيقة ، كان بول قد استحوذ على إعجاب حفنة من الطلاب الذين عاملوه كإله . لكن أساتذة الهندسة الآخرين بدأوا الشكوى من عدم قيامه

بواجباته في الكلية . وكنتيجة ، وافق بول على تأخير السلسلة التالية من عمليات الإطلاق إلى ما بعد انتهاء الفصل الدراسي .

لم يتم صنع غير أربعة صواريخ من مارتليت ـ 1 ، أطلق اثنان وأحيل الآخرين إلى التقاعد عندما تحول بول إلى الاهتمام بمارتليت ـ 2 الأكثر تطوراً . مارتليت ـ 2 كان بطول 1,5 متر وقطره 12,5 سم . وكان جسمه ومخروطه الأمامي من الفولاذ الممزوج وزعانفه من الألمنيوم الممزوج .

في 18 حزيران/ يونيو ، أعلن موردیل بفرح هائل ، أن رقماً عالمياً جديداً لارتفاع مقذوف بواسطة مدفع قد تم تسجيله . مارتليت ـ 2 ، البالغ وزنه 170 كلغ ، بلغ ارتفاع 92 كلم . ووفقاً لحسابات بول فقد كانت القذائف قادرة وبسهولة على بلوغ كوبا . وعندما أعلن مسؤولون حكوميون في باربادوس عن خشيتهم من أن يجعل (HARP) جزيرتهم هدفاً في أي نزاع قد ينشب مستقبلاً ، طمأنهم بول بأن « بتسي » ليس ذا فائدة كسلاح لأنه يمكن إصابته بسهولة من قبل العدو .

هذه المخاوف ، على أي حال ، تعكس القلق الذي كان يساور بعض القادة حيال وجود (HARP) في الكاريبي . وقد ازدادت هذه المخاوف أكثر عندما اغتيل الرئيس كينيدي في تشرين الثاني/ نوفمبر . لكن بول كان مقنعاً ، وسرعان ما سكن قلق صديقه رئيس وزراء باربادوس ، برغم أن مجموعات سياسية معارضة ، وبعضها مؤيد لكاسترو ، ظلت تعلن انزعاجها .

مع انتهاء السنة كان قد تم إطلاق 20 صاروخاً من مارتليت ـ 2 ، وكان بعضها نماذج محسنة عن الأصل . وبرغم أن ما تم جمعه من معلومات حول الطبقة العليا من الخلاف الجوي ، كان قليلاً ، بعكس ما كان مأمولاً ، إلا أنه تم تحقيق تقدم بارز في تصميم المقذوفات ، وفي معرفة المزيد عن ديناميات الإطلاق للمدفع 40 سم وهو في وضع منتصب بزاوية 80 درجة . وكان هذا كافياً لإرضاء المهتمين . وقد وافق الجيش الاميركي على زيادة مساهمته المالية إلى 1,5 مليون دولار في السنة ، على مدى ثلاث سنوات . وهكذا أصبح موردیل قادراً على وعد مجلس أمناء ماك غيل برد القرض على دفعات .

في كانون الثاني / يناير 1964 ، عاد بول وفريقه إلى باربـادوس لإجراء سلسلة جـديدة من عمليـات الإطلاق . هـذه المرة كـانت ميمي والأولاد معـه لقضاء إجازة .

بواسطة النموذج الأحدث لمارتليت ـ 2 ، كان بول قادراً على بلوغ ارتفاع 80 كلم ، وكانت وسائل تأمين حماية المعدات العملية المحمولة في المخروط الأمامي تتحسن بشكل مثير . فقد تم إيجاد طرق لإطلاق أجهزة قياس مرهفـة وأجهزة توقيت بدون أن تصاب بأي ضرر .

وأخبر بول أحد الصحفيين أنه يأمل عندما يطور (HARP) نفسه أكثـر ، بالتخلي عن المدفع «بتسي» ليمتلك مدفعاً مصنوعـاً وفق مواصفـات يحددهـا بنفسه . هذا المدفع سيكون أكبر من أي مدفع تم صنعه على الإطلاق يبدو أمامه مدفع الـ 40 سم قزماً . في الحقيقة ، قال بول ، إنه يأمل بصنع مدفع يبلغ قطر سبطانته 75 سم .

في هـذه الأثناء ، كـان البنتاغـون ، يلمّح لاهتمـامه الحقيقي بمشـروع (HARP) . وزير الدفاع ، روبرت ماكنمارا ، أعلن أن أهم قضية دفاعية تواجه بلاده هي حماية أميركا الشمالية من هجوم بالصواريخ . وكان ماكنمارا يأخذ بعين الاعتبار نظام (Nike- X) المضاد للصواريـخ ، التي بلغت تكاليفـه 20 مليون دولار . كان المحللون العسكريون الأميركيـون يتوقعـون ، أنه في أي هجـوم بالصواريخ يقوم به السوفيات ، ستكون مئات الرؤوس الحربية مـوجهة لهـدف واحد ، من بينها 95 بالمئة أو أكثر رؤوس زائفة هدفها التشويش على الأنظمة الدفاعية . فقط عندما تدخل هذه الرؤوس جو الأرض من جديد فتخف سرعة الرؤوس الزائفة بفعل مقاومة الهواء ، يمكن للرادارات أن تميز الرؤوس الزائفة عن الحقيقية بينها. وعندها فقط ، ومع وصول الرؤوس إلى ارتفاع 80 كلم عن أهدافها يمكن إطلاق (Nike- X) . كانت المسألة مرتبطة بالكلفة . فالصاروخ الواحد من (Nike- X) كلفته مليون دولار ، ولم تكن واشنطن قادرة على تأمين كلفة الآلاف من هذه الصواريخ لتوزيعها في أنحاء البلاد لإسقاط الرؤوس المزيفة على ارتفاعات أكبر . لكن مدفع بول كان أمراً مختلفـاً كلياً ، لأنـه قد يكـون قادراً على إطلاق مقذوفات ذات دفـع صاروخي إضـافي إلى مسار الصـواريخ

الآتية . ويمكن أن تنفجر هذه المقذوفات على ارتفاعات تصل إلى 400 و 500 كلم لتنثر آلاف الشظايا باتجاه الصواريخ البالستية العابرة للقارات . وكان بول قد أدرك من تجاربه المتطورة حول تأثير اصطدام حجر نيزكي صغير بمركبة فضائية ، أن إصابة رأس حربي بشظية واحدة فقط كافية لتدميره . وهذه الوسيلة يمكن توفيرها بكلفة بخسة بحيث لا يعود مهماً عدد الرؤوس المزيفة .. لأن للمدفع العملاق فرصة كبيرة جداً لإسقاطها كلها على ارتفاعات أكبر بكثير مما للنظام (Nike- X) ، مما يوفر غطاء حماية أوسع بكثير . وإذا كان ضرورياً ، يمكن استخدام نظام صواريخ معترضة على ارتفاعات منخفضة كنوع من الدعم .

خلال تجارب كانون الثاني / يناير 1964 بدأ بول بإطلاق صواريخ مارتليت ـ 2 مجهزة بحشوات عالية الانفجار لإطلاق قذائف في الفضاء . وقد زعم أنها تجارب لاختبار فيزيائيات الدخول مجدداً إلى الغلاف الجوي ، لكنهافي الحقيقة كانت اختبارات لصاروخ مضاد للصواريخ البالستية . « اير فورس ماغازين » الأميركية كتبت في ذاك الحين : « من خلال كلفته المنخفضة نسبياً وقدرته على الاعتراض على مجالات بعيدة ، فإن نظاماً يقوم على أساس الإطلاق بواسطة مدفع يعد بتأمين غطاء حماية لبلد بحجم الولايات المتحدة . هناك أسباب إيجابية عديدة للاعتقاد بأن نظاماً كهذا قادر على إيقاف نسبة عالية من الرؤوس الحربية المهاجمة » .

في ربيع تلك السنة تم تجهيز « باراغون هاوس » بنظام تحكم متطور ، شبكة تلفزيونية ذات دائرة مغلقة ، ونظام اتصال يربط كل زوايا المشروع . وقد عيّن مورفي ، من محتبر الأبحاث البالستية ، مشرفاً تقنياً ، كما تم تكليف علماء من (NASA) وسلاح الجو الأميركي والبحرية الأميركية بمراقبة كل تجارب الإطلاق . ووزعت خوذات واقية على كل أفراد الطاقم ، وأصبحت عمليات العد العكسي التي تسبق الإطلاق ، تتم بالدقة نفسها التي تجري في (NASA) .

لكن في الوقت الذي كانت (NASA) تتطلع إلى القمر ، كان بول قد حدد هدفه التقني . كان مدفع الـ 40 سم قادراً على إطلاق مقذوف وزنه 180 كلغ بسرعة تصل إلى 1800 متر بالثانية . وقد أدرك بول أن بالإمكان إطلاق المقذوف نفسه بسرعة تصل إلى 3600 متر بالثانية ، عند خروجه من الفوهة ، إذا أجريت

تعديلات على سبطانة المدفع . للعمل على هذه المشكلة وغيرها من المشاكل التقنية العالية ، قرر بول أن (HARP) بحاجة لمختبره الخاص لأعمال البحث والتطوير ، وأن يتضمن حقلاً لتجارب الإطلاق المدفعي . وكان بول يعرف أين تقع البقعة المثالية لهذا المختبر .

حتى هذا الوقت كان بول وعمه ، د. جيلبرت قد تشاركا في شراء 800 هكتار من الأراضي ذات غابات رائعة الجمال ، حول المكان الذي اختاره بول لبناء بيت ريفي قرب هاي ووتر ، في كويبك ، د. جيلبرت اعتبر شراء هذا العقار استثماراً جيداً ، والأهم بالنسبة إليه هو الحفاظ على تقارب العائلة . باستخدام مواهبه الهندسية ، لم يتردد بول في تصميم بيته الخاص ببركة سباحة وملاعب تنس على طرف تلة منبسط يشرف على الهضاب المتماوجة لشرقي كويبك . وقد أحب د. جيلبرت هذا البيت فصمم بول وبنى بيتاً آخر لعائلة جيلبرت على بعد 50 متراً من بيته . وهكذا أصبح للعائلتين مجمع خاص يمتد أكثر من كيلومتر ، عبر الغابات باتجاه حدود فيرمونت غير المرسومة . كان العقار مكاناً مناسباً لإقامة حقل إطلاق ومختبر خاص .

في هذه الأثناء ، وبينما الحرب في ڤيتنام تجذب معظم الأنظار ، كانت الولايات المتحدة تمر بمشاكل سياسية أخرى . سلاح الجو الأميركي كان قد ربح المعارك داخل البنتاغون وانفرد بمهام عسكرة الفضاء ، ومُنع الجيش الأميركي من العمل على صواريخ وقذائف تزيد ارتفاعاتها عن 100 كلم. وبالتحديد حُذر الجيش من تمويل تجارب (HARP) لإطلاق قمر اصطناعي إلى المدار . وقبل أن تصبح تأثيرات هذه التطورات المقلقة ملموسة ، أعلنت دائرة الإنتاج الدفاعي الكندية ، وبشكل مفاجىء في آذار 1964 ، أنها قررت تمويل برنامج (HARP) برغم كل شيء . من بين الأسباب ، الضغط الذي مارسه الإعلام المؤيد للبرنامج ، إضافة إلى أن مسؤولي الدائرة قد عرفوا ، خلال جلسات سرية ، من الجيش الأميركي أن (HARP) سينجح على الأرجح في تطوير مقذوفات موجهة تطلق بواسطة المدفع ، يمكن بيعها لقوات أخرى في حلف ناتو . وكانت كندا مهتمة جداً في تطوير صناعة أسلحة لتصديرها وبيعها في الخارج . الجيش الأميركي كان قلقاً من احتمال فقدانه السيطرة على (HARP) عندما تصبح أوتاوا

مساهمة فيه . ومع ذلك تبقى نقطة إيجابية على الأقل ، وهي أن مساهمة أوتاوا ستتيح لـ (HARP) متابعة خططه لإطلاق قمر اصطناعي .

مسؤولون كنديون التقوا مسؤولي مكتب الأبحاث التابع للجيش الأميركي في ايرلنغتون ، فيرجينيا ، أواخر آذار/ مارس 1964 واتفقوا على إعادة إطلاق برنامج (HARP) بميزانية سنوية تبلغ 3 ملايين دولار ، مناصفة بين الجيش الأميركي وأوتاوا . وحتى يبقى الجيش ملتزماً بالقيود التي فرضها البنتاغون عليه ، تم الاتفاق على أن تكون حصة الجيش من الميزانية مخصصة للعمل الهادف إلى إطلاق صواريخ إلى ارتفاع لا يزيد عن 100 كلم ، في حين تخصص الأموال التي تدفعها أوتاوا لتجارب إطلاق قمر اصطناعي ووضعه في المدار . وتقرر أن تصبح هذه الاتفاقية المتقنة نافذة المفعول منذ الأول من تموز/ يوليو 1964 ، على أن يرسل الجيش الأميركي حصته من الميزانية إلى مجلس التجارة الكندية في أوتاوا ، حيث ستُضاف إلى حصة أوتاوا . وتقرر إبرام عقد رسمي مع ماك غيل لإدارة مشروع (HARP) على أن ترفع فواتير كل النفقات إلى مجلس التجارة الكندية ، دون تجاوز الميزانية المحددة . فوافقت ماك غيل على تمويل (HARP) من ميزانيتها الخاصة خلال المدة القصيرة التي تفصل عن مطلع تموز/ يوليو . وقد أصرّت أوتاوا على ماك غيل لإقامة هيئة منفصلة عن كلية الهندسة لديها ، تتولى التدقيق المالي وتوجه العمل . في 28 نيسان/ إبريل 1964 وافق مجلس أمناء ماك غيل على تأسيس معهد أبحاث الفضاء في الجامعة ، وعُيّن د. بول مديراً له ، وخُصص مبنى تملكه ماك غيل ، في 892 شيربروك ستريت ويست ، ليكون مقراً لفريق (HARP) الآخذ بالازدياد .

بول ومورديل كانا مقتنعين بأن (HARP) دخل مرحلة الانتصار . وبدأ معهد أبحاث الفضاء بالتعاون مع أبرز مصانع الأسلحة الأميركية لتصميم دواسر من مرحلة واحدة ومرحلتين لصواريخ مارتليت . المخصصات المفترض أن تغطي الفترة ما بين 1 تموز/ يوليو 1964 إلى 30 حزيران/ يونيو 1965 ، كانت بطيئة الورود من الحكومة الكندية ، فوافقت ماك غيل ، على مضض ، على تقديم سلفة 500 ألف دولار لتأمين استمرار تجارب الإطلاق في موقع باربادوس .

مع حلول الشتاء لم تكن أموال الحكومة الكندية قد وصلت بعد ، وبدا واضحاً أن أعداء بول داخل الحكومة استغلوا الروتين الحكومي لمنع صرف المخصصات . ومرة أخرى اضطرت ماك غيل لتقديم عدة آلاف أخرى من الدولارات ، لكن العمل على تطوير مارتليت ـ 4 توقف ، ووضعت على الرف خطط لوضع قمر اصطناعي في المدار . في حين استمر العمل على عقد لتصميم نظام تحكم وتوجيه قادر على ضبط مسار صواريخ (HARP) في المدار، كما استمر العمل على عقد لصنع أجهزة قياس قادرة على تحمل 10 آلاف مرة قوة الجاذبية . وأخيراً أطلق سراح أموال الحكومة الكندية ، المخصصة للسنة المالية الأولى التي تنتهي في 30 حزيران/ يونيو 1965 ، بتأخير عشرة شهورة عن موعدها

وسط هذه الفترة الحرجة جداً ، ولد الابن الخامس لبول ، بوبي ، في آب/ أغسطس 1964 . كان بول أمضى الجزء الأكبر من الصيف في باربادوس ، وبرغم انزعاجه لعدم البقاء مع مولوده الجديد ، إلا أن (HARP) كان عزيزاً عليه إلى درجة التضحية . في تشرين الثاني/ نوفمبر من تلك السنة شنت قوات ڤيتنام الجنوبية أكبر هجوم لها في الحرب الدائرة في جنوب شرق آسيا ، وبدأ الخبراء العسكريون الأميركيون يأخذون بعين الاعتبار جدياً فوائد امتلاك مدفعية ذات مدى طويل جداً . بول أكد لهم أن (HARP) قادر على تمهيد الطريق لأنظمة متفوقة جذرية عن كل ما هو موجود في الترسانات الغربية ؛ وأن كل ما يحتاجه هو بعض الوقت . لم تكن هناك أي التزامات ، لكن الجنرال تزودو أشار إلى أن تمويل (HARP) أصبح على الأقل مضموناً الآن .

مع مطلع 1965 ، كان بول قد قرر أن مدفع الـ 40 سم ، بشكله الحالي لن يتمكن من رفع صواريخ مارتليت إلى أعلى من 92 كلم ، وهو الرقم القياسي الذي تحقق السنة الماضية . وقد أظهرت حساباته أنه إذا زيد طول السبطانة فإن الأداء سيكون أفضل . وقد أخبر أنطوني باتيرسون ، -وهو كاتب في « فاينتشال تايمز أوف كندا » ، أنه مع سبطانة بطول 30 متراً يجب أن يصبح المدفع قادراً على وضع حمولة تزن 225 كلغ على علو 1600 في الفضاء ، باستخدام دواسر دفع متعددة المراحل بعد الإطلاق الأولي . بعد أسبوع من تصريحه هذا ، كان بول قد صمم أنبوباً من الصلب ذا جوف أملس بطول 16 متراً ، وطلب من شركة

دايفي شيببيلدنغ ، في لوزون ، كـوبيك، صنعه . بلغت كلفة هذا الأنبوب 41 ألف دولار ، وكان مصمماً ليكون ملائماً لوضعه عند فوهة مدفع الـ 40 سم ، مع أطنان إضافية من الفولاذ لإحكام إغلاق الوصلة . وعند الانتهاء من وصل الأنبوب كان مدفع الـ 40 سم قد أصبح يمتلك سبطانة طولها 36 متراً ، مما جعله أطول مدفع قيد العمل في العالم . وفي تموز/يـوليوتم اختبار المدفع الجديد بسلسلة عمليات إطلاق ، بلغت العشرين ، ونجح في إرسال صاروخ مارتليت ـ 2 إلى ارتفاع 150 كلم تقريباً ، وهو رقم عالمي جديد .

الضجـة الإعلاميـة التي نتجت عن هذا الإنجـاز ، لم تمـر من دون أن يلاحظها البرلمان الكندي ، وقد سُئل سي . م . درروري ، وزير الصناعة ، في مجلس النواب عمّا إذا كانت « الاستعمالات النهـائية لمشـروع (HARP) في مجالات الدفاع » قد أخذت بعين الاعتبار بشكل مناسب . في رده المكتوب ، أوضـح درووري ، الحكـومـة تعتبـر المشـروع « استكشـافيـاً » . وأضـاف : « مستخدمون عسكريون محتملون أظهروا اهتماماً محدداً. وإدارة (HARP) على دراية بأن هؤلاء المستخدمين المحتملين يقومون برصد إنجازات المشروع ».وكان كلام درووري صحيحاً بالفعل . ففي هذه المرحلة كان خبراء عسكريون من كندا والولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل يحضرون كل تجارب الإطلاق . كان أول اتصـال لبول مـع الإسرائيليين ، وقـد أعجب بانـدفـاعهم وحمـاسهم . وهـذا الإعجاب سيتطور لاحقاً .

كانت أجواء تلك الحقبـة مميزة ومـلائمة لتقـدم (HARP) . في أواخر حزيران/ يونيو 1965 أجيز للقوات الأميركية القيام بدور قتالي في ڤيتنام ، وفي تموز/ يوليو أرسل الرئيس ليندون جونسون خمسين ألف جندي إضافي إلى ڤيتنام الجنوبية . وفي الوقت الذي أخذ المسجلون في لوائح الخدمة الإجبارية يتسللون شمالاً ، إلى كندا ، فإن المؤسسة العسكرية الأميركية كانت سعيدة بشكل خاص لإيجاد حليف واحد يمكن أن يدعم سياسة البنتاغون المناهضة للشيوعيين .

حتى الآن ، كـان المختبر وحقـل تجارب الإطـلاق الخاصيين ببـول ، يستخدمان بشكل دائم من قبل معهد أبحاث الفضاء ، فتقرر وضع أرضية رسمية لهذا الترتيب . قام بول وعمه بتأسيس شـركة لإدارة كـامل عقـار هاي ووتـر ، أسمياها جليتآور كوربوريشن ليمتد ، التي قامت بتأجير الـ 800 هيكتار لماك غيل

لاستخدامها كموقع اختبار يحمل اسم مختبر ماك غيل للايروبالستيات ، في هاي ووتر . وتم نصب مدفع الـ 15 سم أفقي ، وبُني مشغل للحدادة المتطورة لإنتاج صواريخ مارتليت . مقابل كل ذلك ، كانت ماك غيل تدفع لشركة جيلتآور حوالى 180 ألف دولار بالسنة مقابل إيجار العقار . وكان المال يؤمن من الأموال التي خصصها الجيش الأميركي والحكومة الكندية .

مرة أخرى ، ومع بدء السنة المالية في 1 تموز/ يوليو 1965 ، تأخرت أوتاوا في إرسال الأموال التي وعدت بها ، وراجت أقوال داخل ماك غيـل بأن الحكومة على وشك سحب يدها من المشروع ، فقد بدا واضحاً أن أعداء بول في أوتاوا أصبحوا أعداءً لـ (HARP) أيضاً . على رأس لائحة الأعداء كان جون أور في وزارة الصناعة، الذي كان يوزع تقارير تقول إن (HARP) ليس ذا فائدة تجارية . وفي معهد أبحاث الفضاء لم يعد أحد مطمئناً إلى استمرارية عمله ، وبما أن الأموال الموعودة من أوتاوا لم تتوفر بعد فقد تأخـر العمل على تـطوير الصواريخ ذات الدفع الصاروخي المساعد . في خضم هذا الجو المتقلب ولدت البنت الأولى لبول ، كاثي ، في تموز/ يوليو 1965 .

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1965 ، نصب المعهد مدفع 40 سم يبلغ طول سبطانته 16,5 متراً في هاي ووتر . وكان الهدف إجراء عمليات إطلاق أفقي لاختبار صواريخ مارتليت . وكانت الصواريخ تطير مسافة 150 متراً بعد انطلاقها من المدفع باتجاه نقصة صدم في قناة محفورة في جانب تل . وكـانت الفكرة اختبار حشوات الدفع وأساليب زيادة السرعة عن الانطلاق من فوهة المدفع . وكان يتم تصوير صواريخ مارتليت خلال تحليقها القصير ليمكن فحص إداء السباط .

كـان المعهد يكبـر ، وعنـد نهـاية عـام 1965 أصبـح عـدد البـاحثين والمساعدين التقنيين العاملين في هاي ووتر أربعين شخصاً . وجود هؤلاء كان له تأثير كبير على سكان المنطقة ، مثلما كان لأصوات الدوي الهائل كلمـا أطلق مدفع الـ 40 سم . هنا ، كان بول قد أقام علاقات عامة ممتازة فأصبح له مؤيدون يمـدحونـه بأصـوات عاليـة ، وهم منتشرون في بـارات هاي ووتـر وفي قريـة مانسونفيل ، وأيضاً عبر الحدود في نورث تروي ، فيرمونت . وقبل أي عملية إطلاق كان العد العكسي يذاع عبر محطات الراديو ، وقد نجح هذا التكتيك في

كسب السكان المحليين على طرفي الحدود ، الذين رحبوا بالمشروع باعتباره صلة الوصل مع عصر الفضاء .

في أوتاوا لم تكن هناك حرارة كهذه . في 8 شباط/ فبراير 1966 ، أرسل أور انتقاداً حاداً لمشروع (HARP) إلى سيمون رايزمان ، الذي كان حينها نائباً لوزير الصناعة . وكان الموضوع حساساً إلى حد أن أور أرسل انتقاداً مصنفاً تحت خانة « سري » . وكان هدف هذه المذكرة ، المؤلفة من صفحتين ، التشنيع بمشروع (HARP) . قال أور بوضوح إن جانب البحث العلمي في (HARP) ، الذي يتبجحون به كثيراً ، ليس « إلّا جانباً عرضياً في سياق تطوير معدات تطلق بواسطة المدفع » . وقال أيضاً : « حتى هذا التاريخ لم يتم الحصول إلا على معلومات بدائية قليلة عن المزايا البسيطة للطبقة السفلى من الغلاف الجوي » . وقد شكك أور بنظرية بول القائلة بإمكانية إطلاق قمر اصطناعي بواسطة مدفع ، بجزء يسير من كلفة استخدام الصواريخ ، وأوصى كثيراً بزيادة الاستثمارات لتطوير الصواريخ ، وخلص إلى أنه لا يستطيع التوصية باستمرار الدعم لـ (HARP) بعد 30 حزيران/يونيو 1966 . رايزمان كتب بعجلة على المذكرة : « من وجهة نظر التنمية الصناعية أو الانتاج التوفيري ، ليس من مجال لإستمرار الدعم » ، وأرسل مذكرة أور إلى وزيره دروري . وعندما تسربت أنباء عن خيبة الأمل الكندية إلى الجيش الأميركي ، قرر مسؤولو الجيش حماية مصالحهم بفتح مركز اختبار لـ (HARP) في يوما ، أريزونا ، وتم تحضير مدفع 40 سم آخر لاستعماله بواسطة طاقم وتمويل أميركي . هذه الخطوة جعلت المساهمة الأميركية في المشروع مستقلة تماماً عن أوتاوا .

لكن الخطوة الأميركية لم تجعل القطاع العام يغير رأيه . وفي 9 شباط/ فبراير 1966 ، كتب آر. ك. براون ، وهو أحد كبار الموظفين في جهاز آور ، مذكرة إلى رئيسه قال فيها : « برغم أن المسائل الشخصية لا يجب أن تؤثر على القرار ، لكن لا يمكن تجاهلها ، وأحد أسباب عدم مشاركة أي من علماء الحكومة في توجيه وإدارة المشروع ، أو عدم وجود علاقة مع نشاطات فضائية أخرى ، يكمن في شخصية د. بول ، وثمة حاجة ماسة للقول إنه ستظل هناك صعوبات دائمة في هذا المجال » .

كان بول يبدو وكأنه ذو شخصيتين . فقد كان فظاً وجلِفاً مع منتقـديه ، حصوصاً أولئك الذين في الحكومة . لكنه ، بالمقابل ، كان يظهر ساحراً ومرحاً مع زملائه ، خصوصاً أولئك الذين دعموا عمله . أحد منتقديه الحكوميين وصف سلوكـه بـ « الولـد المدلـع » الذي يصـاب بنـوبـة غضب عنـدمـا لا يستـطيـع فعل ما يريد .

في منتصف شبـاط/ فبرايـر ، وعلى عكس رغبـة آور ، أوصى دُروري بتمويل (HARP) لسنة أخرى ، وقد لخص الأسباب التي دفعته لذلك في وثيقة حكـومية مصنفـة . وقد أدرك دروري أن الصحـافة الكنـدية تقف بثبـات وراء (HARP) وستواجه الحكومة انتقادات كثيرة إذا ألغت المشـروع فجأة . ولعله فضل أن يلعب لكسب الوقت فمنح (HARP) 2,5 مليون دولار أخرى . في الشهر التالي أرسل آور مذكرة سرية أخرى إلى رايزمان يؤكد فيها مرة ثانية على رأيه بأن ـ HARP ـ « غير ضروري » . وأن كل المخصصات الكندية لأبحاث الفضـاء يجب أن تذهب بـاتجاه تـطوير نـظام صواريـخ يعـرف بـاسم (Black Brant) . وقـد أوضح آور أن « (HARP) و (Black Brant) همـا مشروعـان متنافسان ، وفي حين أن (Black Brant) هو مشروع كندي كلياً فإن (HARP) يدار كلياً تقريباً وفقاً للمصالـح الأميركيـة . كان الـ (Black Brant) بـالأسباس مشروع أبحاث حول صاروخ يكون قادراً على حمل معدات علمية إلى الطبقة العليا من الغلاف الجوي ، وكانت تتولاه « بريستول ايروسبايس » ، وكان يحظى بدعم قوي ليس فقط مـن (CARDE) بل أيضاً من مجلس الأبحاث الدفاعية ، وعلى عكس (HARP) كان له مؤيدون في الأماكن الصحيحة .

بول ردّ عبر الصحافة ، فقام مورديـل ،تحت إلحـاحه ، بـإجراء سلسلة مقابلات ، قال فيها إنه بسبب عدم حسم أوتاوا رأيها بخصوص التمويل وصل برنامج (HARP) إلى نقطة التوقف . موقعا (HARP) في باربادوس وهاي ووتر كانا في « حالة شلل تقريباً » وأضاف مورديل « لا نستطيع التخطيط لأي عملية إطلاق . الوضع بكامله سيء على تقدم البرنامج وعلى معنويات العاملين » . وذهب إلى حد القول إنه في حال حـدوث المزيـد من التأخيـر المضر ، فإن الولايات المتحدة قد تمسك بالزمام كلياً إذا ما تراجعت أوتاوا وعنـدها ستنقـل

المشروع والعلماء العاملون فيه إلى جنوب الحدود . وهكذا ، مرة ثانية « وكما حدث مع آفرو آرو » فإن كندا قد تخسر مصدراً علمياً قيماً بسبب مناورات سياسيين غير أكفاء .

في أوتاوا ، التقى بول بالوزير درووري والتمس منه تمويل المشروع لسنة أخرى ، قائلاً إنه في نهاية هذه المدة سيكون (HARP) قادراً على تأمين عقود تجارية كافية ليمول نفسه .

درووري ، الخائف من الصحافة المعادية ، أراد إرضاء بول . لكن شيئاً لم يحدث بسرعة . في منتصف آذار/ مارس أخبر آور ورايزمان الوزير درووري أنه مهما فعل (HARP) فلن يكون قادراً أبداً على جني المال من خلال وضع قمر اصطناعي في المدار ، لأن قمراً اصطناعياً كهذا ، مقيداً بحجم فوهة مدفع الـ 40 سم ، سيكون صغيراً جداً لاستخدامه تجارياً . لكن في أيار/ مايو اتخذ قرار بتمويل (HARP) لسنة أخرى بمبلغ إجمالي هو 1,5 مليون دولار . وقد أوضح درووري أن قرار التمويل اتخذ بناء لوعد د. بول بأن (HARP) سيكون مكتفياً ذاتياً عام 1967 ، ولأنه قد تكون هناك مجازفة باحتمال خسارة أدمغة علمية ستهاجر إلى الولايات المتحدة إذا ما أوقفت المخصصات فوراً .

في هذه الأثناء ، كان الجيش الأميركي يزيد عدد عمليات الإطلاق من مدفع الـ 40 سم في يوما . وفي ليل 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1966 أُطلق أحد صواريخ مارتليت إلى ارتفاع 180 كلم ، فكان رقماً قياسياً عالمياً سيصمد لأكثر من خمس وعشرين سنة .

أعلن بول أن تأخير التمويل أرجع مشروع (HARP) سنتين إلى الوراء على الأقل . وقال إن الحكومة « غير كفؤة بشكل ميؤوس منه » وأنه كانت هناك معارضة من بعض الموظفين الحكوميين «الذين لا يعرفون شيئاً على الإطلاق» وأن «حملة افتراءات » تُشن من قبل علماء يعملون في مشروع صاروخ (Black Brant) . الصحفيون ، الذين أطلق دائماً مشروع (HARP) سراح مخيلاتهم اتهموا الحكومة بـ « بيع » أبرز علماء البلاد . وكنوع من الرد أرسل آور مذكرة سرية إلى درووري ونسخة عنها إلى دكتور هـ. روك روبرتسون ، مدير ونائب مستشار ماك غيل . قال آور : « HARP هو بالأساس مشروع للجيش الأميركي يوجه لتحقيق

أهداف عسكرية أميركية . الجزء الأهم من العمل مركزه مختبر الأبحاث البالسية في أبردين ، ماريلاند، أما العمل الذي ترعاه مـاك غيل فليس غيـر جزء قليـل الأهمية من البرنامج الشامل » . وخلص إلى أنه « إذا كان د. بول يختار توجيه جهود معهد أبحاث الفضاء في خدمة أبحاث خاصة يطلبها الجيش الأميركي ، عندها عليه أن يتجه إلى الجيش الأميركي لطلب دعم مالي كامل ، لا أن يؤنب الحكومة الكندية لتخصيصها الأموال العامة لأمور أكثر منفعة » .

والحقيقـة التي لم يقلها أحـد ، أنـه نتيجـة لتمـويـل الجيش الأميـركي لـ (HARP) أصبـح بول وثيق الصلة مـع البنتـاغـون في أذهـان الكثيـرين من المـوظفين الحكوميين في أوتـاوا . وبسبب حرب ڤيتنـام ، المغامـرة المحتقرة والمكروهة جداً في كندا ، كانت للبنتاغون سمعة سيئة . وهذا الوضع أعـطى مبرراً إضافياً للمعادين لبول لتخريب جهوده .

في وقت لاحق من تلك السنة أكد درووري أن أوتاوا لن تنفق سنتاً إضافياً على (HARP) بعد 30 حزيران/ يونيو 1967 ، وبذا تكون مساهمتها الإجمالية في المشروع قد بلغت 4,3 ملايين دولار . وقد رد بول بالقول : « إن المعاملة التي تلقيناها من أوتاوا كانت عديمة الضمير وغير مفهومة . نكسة المشروع الآن ستجعل الكنديين يبدون وكأنهم حفنة من المغفليـن » .

النصيحة التي قدمتها واشنطن كانت بنقل معهد أبحاث الفضاء من ماك غيل إلى جامعة أميركية تتولى مهمة إيجاد منح مالية من القطاع الخاص . في هـذا الوقت ، بين كانون الأول/ ديسمبر 1966 وآذار/ مارس 1967 . كان الجيش الأميركي وبناء لأوامر من موروفي والجنرال ترودو قد نقل ما قيمته 3 ملايين دولار من المعدات إلى موقع (HARP) في هاي ووتر . وهذه الخطوة طمأنت بول إلى أنه سيكون قادراً على الاستمرار في تجاربه على صواريخ مارتليت ذات الدفع الصاروخي المساعد ، على الأقل .

بدأ بول مفاوضات أولاً مع جامعة فيرمونت ، ولاحقاً مع جامعة نورويتش في فيرمونت لوضع يدها على معهد أبحاث الفضاء . كلتا الجامعتين كانتا مهتمتين وحاولتا المساعدة ، لكنهما ببساطـة لم تكونـا قادرتين على جمـع المال . في حزيران/ يونيو 1967 سحب الجيش الأميركي يده من المشروع ، وأغلق موقع

يوما ، لأن النفقات المتزايدة للحرب في ڤيتنام كانت تفرض تقشف الميزانيات . واستخدم بول ما بقي لديه من ميزانية الأبحاث لدفع كل قروض ماك غيل العالقة . واستقـال . وفي النهـايـة . فـإن (HARP) لم يكلف الجـامعـة شيئـاً ومنحهـا دعاية إيجابية .

تحول (HARP) إلى عبء هائل بالنسبة لموردیل ، لكنه لم يندم أبداً على دعمه . وقد قال لاحقاً « لست متأكداً ما إذا كنت بمثابة القابلة القانونية أو طبيب الأطفـال لـ (HARP) . على أي حال ، وبسبب (HARP) أصبحت صـديقـاً لجيري بول ، وكان هذا أهم شيء بالنسبة لي . كـان رجلاً ذا شجـاعة فـائقة وتصميم صلب . لم يكن شيء يردعه . الصعوبات كانت تشكل حوافز له . وفي حين كان آخرون يستسلمون كان يصمد ويربح » .

كان (HARP) في أسوأ وضـع يمكن أن يمر بـه ، عندمـا ولدت البنت الثـانية ، والـطفل السـابع والأخيـر لبول في تمـوز/ يـوليـو 1967 ، وحملت اسم جاين .

أصبح (HARP) ميتاً ، على الأقل حتى الآن . لكنه كان قد سـاعد في إثبات ، ما يرضي بول ، وهو أن للمدافـع الكبيرة مستقبـلاً علمياً وعسكـرياً . مستعيداً إنجازات (HARP) كتب الجنرال ترودو ، أواخر عام 1990 ، أن ذاك المشروع قد وضع خرائط وقياسات للريح الأيونوسفيرية التي تؤثر على أحـوال الـطقس . وأضاف : « تقـريباً نصف مقـاييس الريـح التي سجلت حتى وقتنـا الحاضر ، أنجزها (HARP) خلال حياته القصيرة نسبياً لكن الفعالة » .

في أوائل أيلول/ سبتمبر 1967 ، اجتمع مسؤولون من ماك غيل والحكومة الكنـدية والجيش الأميـركي في مونتـريال لتقـريـر مـا يجب فعله بمـوجـودات (HARP) . وكان بول قد أخبر سلفاً بأن أوتاوا تريـد تدميـر مدافـع (HARP) بتقطيعها ، وتريد أيضاً تفكيك المختبرات . لكن كانت بيده ورقة رابحة يلعبها ، وكان مصمماً على متابعة البرنامج مع أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن أي طريق سيؤمن المال . وبينما كان الاجتماع مستمراً أرسل بول مساعـد مأمـور التنفيذ لتسليم الجامعة مذكرة تفيد بضرورة الالتزام الكلي بالبنود الواردة في العقد الموقع بين ماك غيل وجيلبآور كوربوريشن بشأن إيجار الأراضي في هاي ووتر . كان

مفعول العقد قد انتهى منذ أسابيع قليلة وبما أنه لم تكن هناك خطوات لتجديده ، فقد طلبت جيلبآور ، وفقاً لبنود عقد الإيجار ، أن يعاد عقار هاي ووتر إلى وضعه الأصلي في غضون ثلاثين يوماً .لتنفيذ هذا الطلب كان على ماك غيل إعادة تشجير مئات الهيكتارات التي كانت قد قطعت أشجارها لإجراء تجارب بالستية. على أثر هذه المذكرة عُلق الاجتماع لإجراء استشارات قانونية . في هذا الوقت تقدم بول بحل . قال إن جيلبآور مستعدة للتنازل عن البند الجزائي إذا وافقت ماك غيل ، وبالنيابة أيضاً عن الحكومة الكندية والجيش الأميركي ، على تحويل ملكية كل موجودات (HARP) في هاي ووتر وباربادوس ، بما في ذلك المدافع والمختبرات وما تحتويها من معدات ، غير ناقصة ، إلى مؤسسة غير تجارية « مقابل مبلغ رمزي » . وكان بول ، قبل ذلك ، قد أنشأ معهد أبحاث الفضاء كمؤسسة علمية غير تجارية لها مكاتب في هاي ووتر ونورث باي . أكثر من ذلك ، عرض بول أن تتحمل جيلبآور كل الالتزامات المالية لصيانة وحماية الموجودات منذ تاريخ نقل الملكية ، وأن تبقيها قيد العمل ومتاحة أمام أي وكالة حكومية أميركية بدون أي مقابل . ماك غيل ، الراغبة جداً في عدم تحمل تكاليف الدعم ، وافقت وكذلك فعلت الحكومة الكندية والجيش الأميركي .

كانت فكرة بول أن يقوم بنقل الموجودات إلى مكتب معهد أبحاث الفضاء في نورث تروي ومن ثم وضعها بإدارة جامعة نورويتش ، التي كانت ما تزال مهتمة كثيراً بالأمر . تحقق ذلك بحلول كانون الثاني / يناير ، وخرجت ماك غيل كلياً من الصورة . طلبت جامعة نورويتش تأسيس شركة أميركية برأسمال كافٍ لإدارة المعهد .

في أيار/ مايو 1968 ، وضع بيتر وادوارد برونغمان ، وهما من عائلة مونتريالية شهيرة بصنع الكحول (سيغرامز) ، اليد على « غرايت وست سادليري » وهي شركة كندية قديمة التأسيس ، واتخذا منها غطاءً استثمارياً لامتلاك شركات جديدة . انجذب الأخوان برونغمان بسحر برنامج (HARP) فوافقا على وضع يدهما عليه . وكان المخطط أن تؤسس شركة جديدة باسم سبايس ريسرش كوربوريشن (SRC) لتحل محل معهد أبحاث الفضاء . وقد اشتريا الموجودات لدى جيلبآور بحوالي مليوني دولار ، ليس نقداً وإنما على

شكل أسهم في غرايت وست . كما قامت غرايت وست سادليري بشراء حصة جامعة نورويتش مقابل الموافقة على دفع كل الديون المترتبة على معهد أبحاث الفضاء .

أصبحت (SRC) الآن شركة مستقلة ، تجارية الغاية ، تسيطر على أحدث مختبرات للأبحاث البالستية وعلى ورش ومدافع كبيرة في باربادوس وهاي ووتر . وقد حصلت على عروض من الجيش الأميركي و (NASA) ، ولأن العمل كان مصنفاً تحت خانة « سري » فقد كان لا بد من القيام به في الولايات المتحدة . عُيّن بول مديراً تقنياً لـ (SRC) ، وباستخدام أموال أمنتها غرايت وست سادليري ، بدأت الشركة بشراء أراضي في فيرمونت متصلة بالأراضي في هاوي ووتر ومع مطلع 1969 كانت (SRC) تمتد على طرفي الحدود ، وقد أعطت لجنة الحدود الدولية إذناً لشق طريق خاصة تربط بين أراضي الشركة على طرفي الحدود . وكان المجمع رسمياً يعتبر تحت السيطرة الأميركية بما يسمح باستخدام تسهيلات كندية مميزة لأغراض عسكرية أميركية سرية .

لكن التراخيص الأمنية الأميركية كانت بطيئة الوصول ، وقد غيّر الأخوان جو برنغمان خططهما لغرايت وست سادليري . وفي نهاية 1969 كانا يريدان الإنسحاب من (SRC) . في هذه الأثناء ، كانت أسهم غرايت وست قد ارتفعت كثيراً ، فباع بول ما يملكه من هذه الأسهم ، ليمتلك نقداً كافياً ليرد للأخوين برونغمان ما كان قد دفعاه ، وليشتري منهما الأرض التي اشترياها في فيرمونت .

بحساب ما كان يملكه من رأسمال ثابت ومُستثمَر ، كان بول مليونيراً ، لكن لم تكن لديه سيولة ، فقام بيتر برونغمان ، الذي تأثر بإصرار بول على دفع كل ديون (SRC) لوست غرايت سادليري ، بتعريفه على فيرست بنسلفانيا بنك ، وساعده في الحصول على موافقة البنك لإقراض جيلبآور كوربوريشن مالاً كافياً لمتابعة مشاريع الأبحاث والتطوير .

ومع فجر عقد جديد ، وجد بول نفسه مالكاً ومديراً لواحد من أحدث مختبرات البالستيات في العالم ، التي يمتلكها أشخاص لا حكومات . كان جاهزاً للإنطلاق في مهنة جديدة بصفته عالم سلاح مستقلاً .

8

كان جيرالد بول في وضع غير عادي . إذ كان يملك ، مع عمه ، موجودات (HARP) في هاي ووتر . كان مواطناً عادياً يمتلك قوة نارية ، في حديقته الخلفية ، تكفي لشن حرب . وكان يسيطر أيضاً على حقل الرماية في باربادوس ، حيث يوجد « بتسي » ، أكبر مدفع في العالم .

كنتيجة لعمله في (CARDE) و (HARP) أصبح لبول شهرة عالمية في البالستيات . في العالم الضيق لتصميم المدافع والقذائف ، كان بول اسماً بارزاً ، وزارات الدفاع ، من تل أبيب إلى تايلندا ، كانت على علم بأن بول قد أطلق صواريخ ، بواسطة « بتسي » إلى ارتفاعات قياسية . ووكالات الاستخبارات راقبت احتضار (HARP) وبدء صعود شركة بول الجديدة (SRC) .

ما كان يتفرد به بول ، هو القدرة على تصميم مقذوفات تقليدية إلى مسافات أبعد بكثير مما لدى الآخرين ، وخلال القتال فإن ذلك قد يعني الكثير. وخلال السنوات العشر ، التي سيدير فيها مجمع هاي ووتر ، تعامل بول مع ما لا يقل عن ثلاثين دولة . عمل لمصر وإسرائيل ، هولندا وإيطاليا ، بريطانيا وكندا ، فنزويلا وتشيلي ، تايلندا وإيران ، جنوب أفريقيا والصين . الكل كانوا يندفعون أفواجاً لاستشارة د. بول ، ساحر المدافع .

عمله المميز الأول حصل عليه من سلاح الجو الأميركي ، وقد أعاده إلى الإنشغال مباشرة في تكنولوجيا المخروط الأمامي . العلماء في قاعدة كيرتلاند التابعة لسلاح الجو في البوغوريغ ، نيو مكسيكو، أرادوا اختبار مخروط أمامي لصاروخ بالستي كانوا قد طوروه . كان طول المخروط.متراً ويزن 45 كلغ . وكانوا بحاجة ، دون إطلاقه بواسطة صاروخ يكلف مليون دولار ، لمعرفة كيفية

طيرانه في سرعة عالية ، وما إذا كان مكيفاً جيداً للبقاء في مسار الهدف المحدد له .

خلال صيف 1969 ، لحم بول أنبوبين إضافيين بالمدفع الـ 40 سم ، ذي السبطانة الملساء ، الموجود في هاي ووتر ، ليصبح طوله 52 متراً ، وفي تشرين الثاني / نوفمبر أطلق المخروط الأمامي بواسطة مدفعه الطويل الجديد ، مستخدماً للدفع حشوة كبيرة جداً ، كانت تهدد ليس فقط بانفجار المدفع بل وجزء من المجمع أيضاً . لكن ثبتت صحة حسابات بول ، وتحمل المدفع قوة الحشوة لحظة انطلق المخروط الأمامي خارجاً من الفوهة بسرعة 3 آلاف متر بالثانية . كانت المرة الأولى التي يطلق فيها مخروط أمامي بهذا الحجم بمثل هذه السرعة . كان المدفع قد نصب بوضع أفقي ، وقد طار المخروط حوالي كيلومتر قبل أن ينسحق لدى اصطدامه بمتراس رملي ضخم . كاميرات خاصة صورت الطيران القصير ، وعبر دراسة الصور عرف العلماء في كيرتلاند كل ما كانوا بحاجة لمعرفته عن مزايا طيرانٍ هذا المخروط .

توقع بول أن يؤدي هذا النجاح لتدفق عقود العمل عليه ، لكن ذلك لم يحصل ، والسنوات الأولى لـ (SRC) كانت قاحلة . فالعمل على اختبار المخروط الأمامي ما أعطي لبول إلا لأنه كان الوحيد الذي يمتلك إمكانية القيام به . والمؤسسة العسكرية الأميركية لم تكن في وارد حجب العقود عن الذين تتعامل معهم بانتظام .

كان بول قادراً على البقاء عائماً لأن بعض الدول وظفته لحل مشاكل صغيرة في أسلحتها المدفعية . إيران أرادت معرفة سبب « تشقلب » قذائفها الجديدة بدلاً من أن تدور بشكل لولبي في المرحلة الأخيرة من طيرانها . تايلندا كانت متحيرة إزاء الأداء الشاذ لمدافعها من عيار 155 ملم . أصبح بول « مستر صلّحها » في عالم المدفعية .

بالنسبة لقسم البالستيات في الشركة ، كان بول قد وظّف الأفضل بين الذين عملوا في (HARP) . مهندسون شباب كان قد دربهم بنفسه، وللعمل في المجمع وفي اختبارات إطلاق المدافع ، وظف أناساً محليين ، ودفع لهم أجوراً عالية جداً . وفي الحالتين ، أعطى بول وحصل على الولاء . وهذا ما سيستمر طوال

حياته ـ الموظفون لديه أصبحوا أصدقاءه . وكان أصدقاؤه مستعدين لفعل أي شيء على الإطلاق لمساعدته . ولعل هذا ما يفسر ، جزئياً ، لماذا قام الجنرال ترودو بكل ما في وسعه لإقناع البنتاغون ، أوائل السبعينات ، بمنح بول عقداً يمكنه من متابعة دراساته حول المدفع الفضائي القادر على مواجهة صواريخ آتية وإسقاط أقمار اصطناعية معادية .

كان العقد هزيلاً ، لكن بول اعتقد ، مرة ثانية ، أنه قد يؤدي إلى كسر جمود أعماله ، وعلى مدى سنتين تقريباً راكم كمّاً ضخماً من الحسابات المعقدة . أصبح البنتاغون متحمساً ومتأثراً بما توصل إليه إلى حد أنه سمح لبول بالإطلاع على الأبحاث العسكرية الأكثر سرّية في ترسانته . وفي أواسط 1972 ، أدرك موظفون كبار في واشنطن أنهم ، بالسماح لبول بالوصول إلى أسرار دفاعية ، خرقوا قوانين أمنية كثيرة ، ليس فقط لأن بول لم يكن يملك الترخيص الأمين اللازم ، بل لم يكن حتى مواطناً أميركاً . لتغطية أخطائهم ، قاموا بإقناع باري غولد ووتر ، السناتور الجمهوري المحافظ عن ولاية أريزونا ، بتمرير مرسوم في الكونغرس ، في تشرين الأول/ أكتوبر 1972 ، لمنح بول الجنسية الأميركية . وبعد ثلاثة شهور أقسم بول يمين المواطنية الأميركية في احتفال خاص . فقد أحضر القاضي الفيدرالي ، الذي رأس الاحتفال ، من نيويورك إلى فيرمونت بالطائرة خصيصاً لهذه المناسبة .

في السنة التالية ، وبعد أن قدم بول خططاً لمدفعه الفضائي ، تخلى البنتاغون عن الفكرة . الأسباب ما تزال مصنفة سرية ، لكن مصادر شاركت مباشرة في ذلك الحين ، تقول إن طبيعة وحجم مدفع بول العملاق جعلاه غير مرن ؛ مداه الناري كان ضيقاً وجامداً ، ولم يكن قادراً أبداً على تغطية مساحة كبيرة كفاية لوقف عدد كبير من الصواريخ الآتية . العاملون على هذا المدفع لن يكونوا قادرين أبداً على إدارة سبطانته بسرعة في قوس واسع لتغطية الأفق ، لذا ستكون هناك حاجة لعشرين أو ثلاثين مدفعاً لتأمين حماية كل موقع .

كان هناك سبب آخر ، أكثر خبثاً . كبريات شركات الأسلحة كانت تعمل على محاربته . كانت تريد إبقاءه على الحافة حيث لا يستطيع أبداً الحصول على قطعة كبيرة من فطيرة ميزانية الدفاع .

في محاولة لجذب اهتمام أكبر في واشنطن ، قام بول بتعيين موظفين رسميين كبار سابقين في مجلس إدارة الشركة . أولاً ، صديقه القديم الجنرال ترودو ، الذي كان الآن قد أحيل على التقاعد ، ولديه منزل في فيرمونت . ثم عُيّن لاحقاً سترلينغ هـ. كول ، عضو سابق في الكونغرس لولاية واحدة ، رأس مرة لجنة الطاقة الذرية المشتركة بين مجلسي النواب والشيوخ . كول قال علناً إن قرار البنتاغون عدم المضي قدماً بمشروع المدفع العملاق ، كان « مأساة كبيرة للأمن القومي » . وقد ظن كول أنه يعرف سبب عدم تدفق العقود التي كان يتوقعها بول ، مخمناً أن مختبرات الأسلحة التابعة للبنتاغون لم تكن قادرة على الإقرار بـ « الكفاءة العالية » لعمل بول دون الاعتراف بعجزها .

على أي حال ، فإن بعض التطورات أبقت اسم بول في الواجهة ، في واشنطن . مستشار الأمن القومي ، هنري كيسنجر ، كان يحضّر لمحادثات سلام سرية لوقف الحرب في ڤيتنام ، عندما شن آلاف الجنود الفيتناميين الشماليين ومقاتلي الفيتكونغ غزواً على الجنوب ، في نيسان/ إبريل 1972 . في الوقت نفسه تقريباً كان السوفيات قد بدأوا إمداد هانوي بمدافع لحماية السواحل من عيار 130 ملم ، يصل مداها إلى 30 كلم . مدافع الـ 12,5م الموجودة على مدمرات البحرية الأميركية كان مداها 20 كلم . وبذا أصبح على المدمرات التي تحاول الاقتراب من الشاطىء أن تبحر مسافة 10 كلم وهي مكشوفة لمدافع العدو وغير قادرة للرد عليها .

كان لبول سمعة تنفيذ أعمال سريعة . الآن ، أرسلت البحرية الأميركية مسؤولاً رفيعاً إلى هاي ووتر . كانوا يريدون من بول تصميم قذيفة يمكن إطلاقها من المدافع الموجودة على المدمرات ، ويمكن أن تطير 10 كلم أكثر من القذيفة العادية لهذه المدافع ، لتجاري المدفع السوڤياتي عيار 130 ملم . وكانوا يريدون القذيفة بسرعة . لاحقاً ، قال بول متذكراً ؛ « كانوا مرعوبين . أعطينا مدة 120 يوماً لانتاج قذيفة جديدة . في الأحوال العادية قد يستغرق ذلك سنتين . لكننا حشدنا طاقمنا وخلال 120 يوماً أصبح لدينا قذيفة لهم . كانت قذيفة مجهزة بسباط يبلغ مداها 35 كلم . وهكذا جعلناهم يركلون الشيوعيين على قفاهم ، مع خمس كيلومترات احتياط » .

كان ذلك بالضبط هو نوع « المهمة المستحيلة » الذي يثير القوة الكامنة داخل بول . لكن مع ذلك لم تكن أعماله منتعشة كثيراً .

بعد فترة وجيزة من افتتاح (SRC) كان بول قد بدأ العمل على ما سيصبح لاحقاً نقطة ارتكاز أعماله . الجيوش في أنحاء العالم تستخدم أنظمة مدفعية من عيار 155 ملم بمدى دون 20 كلم . فقرر العمل على تصميم قذيفة يمكن إطلاقها من المدافع الموجودة لكن بمدى أكبر بكثير . أخذ القذيفة التقليدية المستخدمة في هذه المدافع ، والمصنوعة على شكل رصاصة مسدس كبير ، وجعلها ملساء .

عند هذا الحد ، لم يكن أحد قادراً على التغلب على المشاكل التقنية التي تنتج عن ذلك . فكما صواريخ مارتليت التي صممها لمدفع (HARP) ، كانت أولى قذائف الـ 155 ملم التي صممها بول أقل عرضاً من سبطانة المدفع الذي ستطلق منه . فتم ابتكار سلسلة من نماذج السبّاط لجعل القذيفة متناسبة مع السبطانة ، لكن ظلت هناك عيوب . القذيفة ذات السبّاط التي ابتكرها بول كانت ذات مدى أبعد لأنها كانت أخف وزناً وأكثر ايروديناميه من القذيفة التقليدية . لكنها أيضاً كانت تحمل كمية متفجرات أقل . ومع ذلك فإن الإسرائيليين ابتاعوا قذيفة أعيد تصميمها لتتلاءم مع مدافعهم من عيار 175 ملم ولم يخفوا سراً بأنهم قد يستخدمونها لتهديد دمشق من مرتفعات الجولان .

لكن الناتو لم يكن مهتماً ، فعاد بول من جديد إلى طاولة الرسم لتصميم وتطوير قذيفة جوفاء كلياً ذات مدى أوسع . فكان النموذج الأخير الذي صنعه ذا أنف طويل مستدق عليه أربع عُقَد معدنية ناتئة لتحسين الدوران اللولبي والتوازن ودقة التهديف ، لأنها كانت تتصل مباشرة بالأخاديد الحلزونية داخل السبطانة . وقد أعيد تصميم جسم القذيفة ليتلاءم مع مواصفات محددة للتخفيف من مقاومة الهواء .

أربع سنوات قضاها بول وفريقه في العمل على هذه القذيفة ، لكن عندما انهى العمل ، كانت قذيفته ، المصنوعة الآن من الفولاذ المقوى جداً ، قادرة عند إطلاقها من المدفع نفسه ، الذي يطلق القذائف التقليدية ، على بلوغ مدى أكبر

مرة ونصف . وقد عمل بول على إعادة تصميم جوف القذيفة فملأها بمادة شديدة الإنفجار . وفي اختبار مراقَب ، تشظت قذيفة بول إلى 4756 قطعة ، في حين أن القذيفة التي لدى الناتو ، والمحشوة لمادة (TNT) لا تزيد شظاياها على 1358 قطعة .

في عام 1973 قامت شركة «Poudreries Réunies de Belgique» (PRB) ـ وهي شركة بلجيكية كبيرة لصنع الذخائر ـ بدفع مبلغ 75 ألف دولار لبول لإجراء سلسلة عروض إطلاق لقذيفته الجديدة في حقل رماية في ألمانيا الغربية . كانت (PRB) قد عينت للتو مديراً عاماً جديداً ، ذا شخصية جذابة ، هو رجل أعمال نشيط يدعى جوزف سيڤيرين . وقد ذهب سيڤيرين إلى مونتريال ، وجال في أنحاء مجمع هاي ووتر ونجح في إقناع بول بأن (SRC) قد تكون غنية بما يمكن أن تنتجه من معدات تكنولوجية ، لكنها حتى لا تظل محصورة بالعمل المختبري ، بحاجة لشريك دولي . وبناءً عليه تم تأسيس « سبايس ريسرش كوربوريشن انترناسيونال » (SRC-I) في بروكسل لـ (PRB) 38 بالمئة من أسهمها .

كما أقنع سيڤيرين بول بأن عليه ليس فقط العمل على تطوير القذائف بل أيضاً على أنظمة مدفعية لإطلاقها . واقترح البدء بمدفع هاوتزر عيار 155 ، من طرازين : واحد مصمم ليُجرّ في الميدان بواسطة عربة مسلحة ، والآخر منصوب على آلية نقل خاصة به .

قام بول ومهندسوه بتصميم النظامين على الورق ، وأطلقوا على المشروع اسماً رمزياً هو (GC- 45) . وكانت حسابات بول تظهر أن هذا المدفع بسطانته الأطول قادر على إطلاق قذائف يصل مداها إلى 30 كلم أو أكثر ، مقارنة مع المدى الأقصى لمدافع 155 ملم التقليدية ، مع تأمين دقة تهديف أفضل وشحنة متفجرة أكبر .

نظرياً على الأقل ، كان بول قد طور نظاماً مدفعياً أقوى بكثير مما في ترسانات حلفي الناتو ووارسو . لكنه إذا توقع ، أن تنهال عليه الطلبيات ، فقد خاب أمله . ذلك أنه في الوقت الذي كان يعمل على تطوير مدفع تقليدي ، كان الأميركيون ينفقون ملايين الدولارات على تطوير قذائف ذات دفع صاروخي

مساعد . ورغم أن هذه القذائف تكلف أضعاف كلفة إنتاج قذيفة بول ، إلا أن أداءهما متساويان . ولأن الاستثمارات قد أنفقت على الأبحاث ، ولأن اللوبي العسكري الداخلي كان قوياً جداً ، فقد أدار البنتاغون ظهره لإنتاج بول الأقل كلفة .

في هذه الأثناء ، بدأت (PRB) في توسيع (SRC-I) في بروكسل ، وقامت بحملة إعلامية على مستوى عالمي لترويج القذيفة الجديدة ذات الحشوة الجوفاء كلياً والمدى الأكبر ، كاشفة النقاب أيضاً عن استعداد بول لإنتاج نظام مدفعي جديد لإطلاق القذيفة الجديدة . وكنتيجة لهذه الحملة بدأت وفود أجنبية من جنرالات ووزراء بالتدفق إلى مجمع هاي ووتر للحصول على معلومات ومشاهدة عروض .

عندما أصبح بول في أواسط العمر ، بدأ شيب قليل يغزو شعره ، وأصبح له كرش . وعندما لم يكن مسافراً كان يحاول الحفاظ على لياقته البدنية بلعب كرة القدم مع أولاده الكبار ، وفي الشتاء كان يمكن أن يزوال رياضة التزلج مع ميمي . لكن ، وكثمن لإبقاء شركته مزدهرة الأعمال ، كان يضطر للسفر سعياً وراء أعمال جديدة بمعدل ستة شهور أو أكثر خلال السنة . والجزء الأسوأ هو ابتعاده عن عائلته . حتى أصبح غريباً تقريباً بالنسبة لأطفاله الأصغر سناً . وفي محاولة للبقاء أكثر في البيت سعى لتشجيع الزبائن على زيارته .

كان طاقم العاملين في (SRC) من ذاك النوع المحب للفرح ، بحيث أصبحت الحفلات الباذخة عادة دائمة . وعلى الجانب الأميركي ، من الأراضي التابعة للشركة ، قرب نورث تروي ، قام رجل أعمال محلي باستغلال ازدهار أعمال (SRC) بإنشاء نزل يحتوي ثلاثين غرفة مع مطعم وبار وديسكو . وقد أصبح أفراد الوفود الزائرة يشاركون في الحفلات ، وعندما يكون الوفد مهماً كفاية ، تكون هناك دائماً الكثير من الكنديات ـ الفرنسيات الجميلات ، اللواتي يجئن من مونتريال بدعوة من المهندسين الشباب . كان بول يحب مظاهر الترف .

عادة كانت الوفود تأتي بالطائرة من نيويورك إلى مطار صغيرة خاص في

فيرمونت حيث يكون باستقبالها أحد سائقي بول الكتومين . ثم يؤخذ أعضاء الوفد إلى النزل لحجز غرف له ، ومن هناك يقوم أحد كبار المهندسين باصطحابهم في جولة على أرجاء المجمع .

دائماً كان الزائرون يؤخذون بحجم وامتداد المكان . لكن نادراً ما كان بول يظهر خلال الجولة الأولى ، وكان الزائرون يوعدون بلقائه لاحقاً .

في الليل ، غالباً ما تكون هناك حفلة في النزل ، وعندما يأخذ الزوار ، المهندسون والسيدات اللواتي برفقتهم ، أماكنهم قد يغمر المكان صمت مفاجىء ويدخل العالم الكبير إلى البار .

بسحره وابتسامته وسيطرته على كل ما يحيط به كان بول هو النجم . وكان أعضاء الوفود يشعرون دائماً أنهم محظوظون بلقائهم هذا العبقري ، أعظم عالم مدفعية على قيد الحياة . لحظة وصوله يصبح بول محور كل شيء ، يروي نوادره ، يضحك ، ينكّت ويسلّي الجميع .

في أواسط السبعينات بدأت (SRC) باستغلال وضعها الفريد . فكون ممتلكاتها تمتد على طرفي الحدود كان بإمكانها أن تخلط وتتلاعب بقوانين التصدير للولايات المتحدة وكندا . على سبيل المثال ، كانت الولايات المتحدة تسمح بتصدير أسلحة إلى حلفائها ، كإسرائيل . في حين أن كندا تحظر كل مبيعات الأسلحة لأي من دول الشرق الأوسط . فكان العمل على تصميم القذيفة ذات العيار الأكبر والمدى الأوسع ، يتم في الجزء الواقع على الأراضي الكندية ، في حين كان بول يصنع القذائف في شامبرلين مانيو فكترينغ، التي تدير مصنعاً للذخيرة في سكرانتون ، بنسلفانيا ، وكانت واشنطن تعطي إذن تصدير لبيع هذه القذائف إلى إسرائيل .

في الوقت نفسه ، وبرغم أن أوتاوا تفرض قوانين مشددة على تصدير الأسلحة ، إلا أنها لم تكن تفرض الحصول على شهادات المستخدِم الأخير للأسلحة « غير المجهزة كلياً للاستعمال » المرسلة إلى دول صديقة . وكان هذا يعني أن باستطاعة بول إرسال الأغلفة الخارجية للقذائف ، إلى أي مكان في أوروبا ما دامت فارغة وبدون صواعق أو حشوات متفجرة . بهذه الطريقة كان

بإمكان بول إرسالها إلى (PRL) في بلجيكا ، التي تقوم بدورها بتجهيز القذائف وبيعها إلى أي مكان وفق ما يسمح القانون البلجيكي . والقانون البلجيكي كان أكثر تساهلاً من القانونين الأميركي والكندي . واثقاً من قدرته على بيع منتجاته إلى أي دولة تريد ، أقام بول على الجانب الكندي من المجمع الورش القادرة على إنتاج القذائف الاختبارية الأكثر تطوراً ، بكميات قليلة .

هذا المختبر البالستي وحقل الاختبار ، الواقعين على أرض تمتد على طرفي الحدود ، أصبحا يرزحان تحت عبء هائل لأقدم البنوك الأميركية ، فيرست بنسلفانيا بنك . فبعد تعريف بول إلى هذا البنك ، بواسطة الأخوين برونغمان ، ظل هذا البنك دائماً كريماً معه . إيمان البنك بنجاح أعمال بول ، دُعم بتقارير متفائلة من الجنرال ترودو بالنسبة لمستقبل (SRC) . وبرغم خسارة الشركة حوالى 600 ألف دولار سنة 1971 ، فقد قدم لها البنك قرضاً بقيمة 5 ملايين دولار ، وفي السنة التالية تم إبرام اتفاق لتدوير ديون الشركة . وبموجب هذا الاتفاق امتلك البنك حق الفيتو على القرارات الرئيسية لـ (SRC) . وعندما لم تتحسن الأوضاع خلال ربيع وصيف 1973 ، كان على البنك إقراض الشركة 100 ألف دولار شهرياً لدفع فوائد القرض الأساسي . وبدون أن يدرك ، كان البنك قد تورط كثيراً مع (SRC) بحيث لم يعد قادراً على الإنسحاب . وفي أواخر 1973 قدم قرضاً جديداً بقيمة 4,5 ملايين دولار لمساعدة الشركة على الاستمرار . وفي تشرين الثاني / نوفمبر 1975 بلغ الدين قيمة 11 مليون دولار .

كان بول يتعرض لضغط هائل لتحقيق أرباح مالية . وقد ظهر عليه ذلك ، بالتجاعيد التي بدأت ترتسم حول عينيه الثاقبتين ، وبدأ الصلع يظهر على رأسه ، وازدادت انحناءة كتفيه أكثر .

لم يكن تأمين المال همه الوحيد ؛ ففي عام 1975 خبر بول الحزن بوفاة شخصين عزيزين عليه، كان في زيارة إلى تورونتو في أيلول/ سبتمبر 1974 ، عندما لاحظ بول أن عمه فيل ، الذي كان الآن في السبعينات من العمر، يعاني من الألم . لم يكن يشتكي ، لكن بول أدرك أن الأمر جدي . تشاور في الأمر مع عمه د. جيلبرت فاتفقا على أن يعاين أطباء أصدقاء للعائلة العم فيل . وفي كانون الأول/ ديسمبر خضع فيل لعملية فحص ليكتشفوا أنه مصاب بسرطان لا يمكن

علاجه . العمة أديت قالت إنها لم تلاحظ أبداً شيئاً على فيل ، وكانت صدمة هائلة لها عندما توفي في كانون الثاني / يناير . في أيلول/ سبتمبر 1975 ، توفي أيضاً د. جيلبرت ، والد زوجته ورئيس شركة جيلبآور . كانت نكسة كبيرة لبول ، وما زال أفراد العائلة يتذكرون نوبات البكاء التي أصابت بول خلال الجنازة . لم يكن لديه صداقة رجالية وثيقة كالتي كانت بينه وبين د. جيلبرت . أمضيا ساعات معاً في ليالي الشتاء يلعبان الدومينو ، أحياناً إلى ما بعد منتصف الليل ، يصرخان ويضحكان فرحين بهذه اللعبة البسيطة . موت د. جيلبرت ترك ثغرة لم يكن أحد قادراً على سدها .

عام 1976 أصبحت البحرية التايلندية أول زبائن قذيفة بول الجديدة ، ذات الحشوة الجوفاء ، بشرائها عدة آلاف منها . وفي كانون الثاني / يناير قام سيڤيرين ، مدير عام (PRB) ، بزيارة إلى هاي ووتر مرة ثانية ، وأعطى بول 5 ملايين دولار لتغطية كلفة إنتاج نسخة أولى من مدفع (GC- 45) . أخيراً بدأت الأمور تتحسن .

لكن إذا كانت الأمور قد بدأت بالتحسن بالنسبة للمجمع الرئيسي ، في هاي ووتر ، فإن الأمر لم يكن مشابهاً بالنسبة لموقع باربادوس الحيوي بالنسبة لتجارب إطلاق القذائف ذات المدى الطويل . هناك ، كانت (SRC) عرضة لهجوم من الحزب المعارض ذي النزعة اليسارية ، الذي زعم أن بول يقوم بتحويل الجزيرة إلى موقع عسكري متقدم . وعندما فازت المعارضة بانتخابات أيلول/ سبتمبر 1976 لم تترد في الإفصاح عن عدم ترحيبها ببقاء (SRC) . بمساعدة من رئيس الوزراء السابق ، بارو ، فاوض بول حكومة انتيغوا المجاورة، لإقامة حقل رماية اختباري على أراضيها . وكجزء من الصفقة ، وافق بول على تأمين تدريب قوات الدفاع لدى انتيغوا مقابل توليها مهام حراسة الموقع وموجوداته ، من مدافع وذخائر . أرسلت (SRC) أنظمة رادار إلى انتيغوا للمساعدة في تعقب القذائف خلال طيرانها ونصبت آلة متطورة جداً لرصد البالستيات تم إحضارها من باربادوس . وبحلول عام 1977 كانت انتيغوا مستعدة لتجارب إطلاق قذائف بعيدة المدى .

عندها بدأت المشكلة الحقيقية .

الجـزء الرابع

الاهتمام القاتل تقريباً

9

طبيعة أعمال بول كانت تعني أن حظوظه مرهونة بالحـرب . لذا كـانت أخباراً جيدة بالنسبة لـ (SRC) تلك التي وردت عن استمرار القتال الضاري في أنغولا بعد منحها الاستقلال من قبل البرتغاليين . المجموعات التي كانت تحارب من أجل تحرير البلاد لم تستطع تسوية خلافاتها السياسية فيما بينها ، فلجأ كل منها إلى حلفائها للحصول على السلاح .

برغم أن بول كان بالتأكيد على علم بالوضع ، إلا أن ما من سبب كان يدفعه لربط جنوب غرب أفريقيا بالمكالمة التي تلقاها من بروكسل ، في شباط/ فبراير 1975 ، من كولونيل متقاعد في سلاح الجو الأميركي جون (جاك) فروست . قال فروست ، وهو تاجر سلاح معروف ، أنه يمثل الإسرائيليين ، وطلب من بول بيع تل أبيب 15 ألف قذيفة 155 ملم ذات الحشوة الجوفـاء والمدى الأوسـع (ERFB) . فوجىء بول بهذه الطلبية العاجلة لكنه كان قادراً على ترتيب الأمر بحيث تقوم شامبرلين مانيو فكتورينغ في سكرانتون ، بنسلفانيا ، بصنع الأغلفة الخارجية للقذائف ، لإرسالها إلى الورش في مجمع هاي ووتر لإجراء عمليات الصقل العالي الدرجة ، وبموجب إذن تصدير سلاح من الولايات المتحدة ، تم شحنها إلى (PRB) في بلجيكا لتجهيزها بالصواعق والمتفجـرات قبل شحنهـا إلى إسرائيل .

في هذه الأثناء، كانت الحرب تتصـاعد في أنغـولا . كانت هنـاك ثلاث

مجموعات رئيسية للثوار ، كل منها معروفة بالأحرف الأولى لاسمها البرتغالي ، ولكل منها قوة خارجية تدعمها . في الجنوب كانت (UNITA) بزعامة جوناس سافيمبي ، تقاتل جنباً إلى جنب مع قوات غازية من جنوب أفريقيا . السيطرة في الوسط ، بما فيه العاصمة لواندا ، كانت لـ (MPLA) المتحالفة مع السوڤيات . في الشمال كانت السيطرة لـ (FNLA) المدعومة من الـ (CIA) . لذا لم يكن غريباً ، عندما تحولت المناوشات إلى مواجهات ميدانية واسعة ، أن يطلق على هذه الحرب اسم « حرب الالفباء » . موسكو قررت أنه ليست بمقدورها خسارة أنغولا في تلك المرحلة من الحرب الباردة ، فبدأت بإرسال كميات ضخمة من السلاح ، في حين شجعت الكوبيين على إرسال عشرين ألف جندي ، مدربين تدريباً عالياً ، للقتال إلى جانب (MPLA) بصفة « مستشارين » .

باستخدامها من قبل الكوبيين ذوي الخبرة ، كانت الأسلحة السوڤياتية مدمرة ، خاصة الصاروخ الروسي عيار 122 ملم ، الذي يبلغ مداه 20 كلم . جون ستوكويل ، رئيس قوة التدخل في أنغولا التابعة لـ (CIA) بعث بتقرير إلى واشنطن قال فيه إنه خلال إحدى المعارك الحاسمة في تشرين الثاني / نوفمبر ، سقط ألفا صاروخ على قوة (FNLA) « فتشتت أفرادها وهربوا مذعورين عبر الوادي بفوضى كلية ، متخلين عن أسلحتهم وعرباتهم ورفاقهم المصابين » . في الواقع كانت (FNLA) قد انتهت . بعد فترة تحولت القوات الشيوعية إلى الجنوب لمواجهة قوات (UNITA) وجنوب أفريقيا . يقول ستوكويل : « المدافع العتيقة لدى قوات جنوب أفريقية ضربت بقوة ، لكن قوتها النارية كانت لا تُقارن بصليات الصاروخ ومداها بالكاد نصف مدى الـ 122 ملم » . وقد أُجبرت قوات جنوب أفريقيا على الانسحاب بعد هزيمة مُرّة ، وكانت المرة الأولى التي يتراجعون فيها في أفريقيا ، وقد جعلت هذه التجربة بريتوريا متلهفة للانتقام . كان حظر السلاح الذي فرضته الأمم المتحدة ، لمواجهة النظام العنصري ، قد أقام حاجزاً بين بريتوريا والتكنولوجيا العسكرية الحديثة . أرادت الـ (CIA) ، التي أصبحت الآن داعمة لـ (UNITA) ، إرسال أسلحة تمكّن قوات جنوب أفريقيا من التغلب على الكوبيين والشيوعيين الانغوليين ، لكن وزارة الخارجية أسقطت هذه الفكرة باعتبارها خرقاً فاضحاً للحظر الذي تفرضه الأمم المتحدة .

ومع ذلك ، كانت الـ (CIA) ، مثل موسكو ، غير راغبة بخسارة أنغولا .

إلى الحد الذي كان يهم جنوب أفريقيا ، كانت القذيفة الجديدة والمدفع (GC-45) الذي يعمل عليه بول ، هما بالضبط ما تحتاج إليه . كان الإسرائيليون يتعاونون بشكل وثيق مع جنوب أفريقيا في أمور عسكرية، وفي الحقيقة كانت طلبية الـ 15 ألف قذيفة (ERFB) عيار 155 ملم لصالح بريتوريا. حققت القذائف إداء جيداً في جنوب أنغولا ، وفي تشرين الثاني / نوفمبر 1975 ، قام مسؤولون من جهاز الاستخبارات العسكرية لجنوب أفريقيا بدعوة الليوتنانت كولونيل ، جون كلانس ، من البحرية الأميركية مكلف بمهمة للـ (CIA) في بريتوريا ، لتناول الغداء . وشرحوا مرة ثانية حاجتهم الملحة لمدفعية ذات مدى أطول للرد على الصواريخ السوفياتية ، والتمسوا المساعدة - إن ليس من البنتاغون فمن الـ (CIA) - تُرك كلانسي ليدبر ذلك باستخدام مخيلته ، فقرر أن يؤمن اتصالاً بين مسؤولين من جنوب أفريقيا وجاك فروست في بروكسل . كان فروست قد عمل في صفقات سرية لـ (CIA) في الماضي ، وخمّن كلانسي أنه قادر على المساعدة؛ . في غضون أيام كان دينيس زيدربيرغ وبايت سميث ، وهما من كبار مسؤولي (Armscor) ، يجريان محادثات سرية مع فروست . في كانون الثاني / يناير 1976 ، قام فروست بتعريفهما على لويس بالاسيو ، أقدم الموظفين لدى بول وأكثرهم مصداقية ، الذي كان مسؤولاً عن مكتب (SRC-I) في بروكسل . المسؤولان من جنوب أفريقيا أخبرا بالاسيو أن الصناعة الحربية المحلية في بلادهم - تعرف بشكل جامع باسم (Armscor) - كانت تعمل بشكل سري على مدفع هاوتزر جديد عيار 155 ملم سيكون آلياً ومتحركاً كلياً ، ومناسباً للاستخدام في المناطق الكثيفة الغابات التي تحارب فيها قوات بلادهم . أكثر من ذلك ، كان العمل على تطوير الهاوتزر الجديد يتم وفق مواصفات مشابهة للمدفع الذي يعمل عليه بول . وقد اقترح المسؤولان الجنوب أفريقيين أن تبيعهم (SRC) تكنولوجيا صنع قذائف (ERFB) وفي الوقت نفسه توحيد الجهود لتطوير الهاوتزر بحيث يستطيع مهندسون من جنوب أفريقيا ، خبراء بالستيات ، بالعمل إلى جانب بول ومهندسيه في أبحاث مشتركة . وكجزء من الصفقة ، تقوم جنوب أفريقيا باستثمار أموال كافية في (SRC) لضمان استمرارها . وكل هذا ، قال المسؤولان ، يمكن

أن يتم تحت ستار صارم من السرية . وتمت دعوة بالاسيو لزيارة جوهانسبرغ لبحث التفاصيل ، قبل عقد الصفقة .

اتصل بالاسيو ببول لبحث الموضوع . وكان بالتأكيد بأمس الحاجة لزبون كبير ، كما كان متعاطفاً مع الدور الذي تقوم به جنوب أفريقيا في أنغولا ـ القتال لمنع موسكو وكوبا من السيطرة على البلاد . موضوع العنصرية لم يؤخذ أبداً بعين الاعتبار . وتحت ضغط المتاعب التي تواجهها أعماله ، طلب بول من بالاسيو المضي قدماً لاستكشاف إمكانيات إبرام صفقة .

ذهب بالاسيو إلى جنوب أفريقيا أوائل آذار/مارس ومن ثم طار إلى ريو دي جانيرو للاجتماع ببول وجوزف سيڤيرين ، من (PRB) ، اللذين كانا يدرسان اقتراحاً بإنتاج (GC-45) من البرازيل ، حيث يمكن تصديره من هناك إلى كل أنحاء العالم . وبدأ الثلاثة في التركيز على مزايا ومشاكل التعامل مع جنوب أفريقيا . كان سيڤيرين بشكل عام محبذاً لفكرة السماح لبريتوريا بالمساهمة المالية في إنتاج المدفع الجديد بشرط أن تتفهم بوضوح أنها ستحظى بحقوق الانتاج لاستعمالاتها المحلية فقط ، في حين سيتم تصنيع هذا الموقع الجديد في مكان آخر لبيعه في أنحاء العالم . كانت (PRB) قد تعاملت كثيراً مع بريتوريا ، وكان سيڤيرين يطمئن بول بشأن عائق حظر السلاح المفروض بالقول : « الجميع يخرقونه » . بالاسيو أيضاً كان متحمساً وبدأ بول يشعر بالاطمئنان لمستقبل وضعه المالي .

كان مؤشراً على حماس وعجلة جنوب أفريقيين لتحقيق اقتراحهم ، وصول زيدربيرغ وسميث إلى هاي ووتر للقاء بول ، في 28 آذار/ مارس 1976 ، بعد يوم. واحد من عودة بول من ريو دي جانيرو . وقد أحضر المسؤولان من (Armscor) معما الكولونيل پ . م لومبار ، رئيس مدرسة المدفعية التابعة لجنوب أفريقيا وهو الذي قاد مدفعية بلاده في المعركة المدفعية في أنغولا . وحضر أيضاً ج . سوارت وم . ج سميث ، وهما مسؤولان من (Cementation) إحدى الشركات التي تتألف منها (Armscor) . قام المسؤولون الخمسة بجولة على أرجاء المجمع ، وأقيمت لهم حفلة في النزل . وفي 7 نيسان/ إبريل ، وقبل مغادرتهم ، وقعوا عقداً لشراء 35 ألف قذيفة (ERFB) عيار 155 ، مع حق طلب

15 ألف قذيفة أخرى . وُقع العقد بين باراغون هولدينغ ليمتـد ، وهي شركـة وهمية أسسها بول وأعطاها اسم البيت الذي استخدموه في بـاربادوس ، وبين مؤسسة كوليت ترايدينغ ، وهي شركة في ليخنشتاين تستخدمها بريتوريا واجهة لتغطية صفقاتها .

قبل نهايـة ، شهر آذار/ مـارس اجتمع بـول مع مسؤولي مكتب مـراقبة الذخائر في واشنطن ، التابع لوزارة الخارجية ، أراد التأكد من عدم وجود قيود على تصدير الأغلفة الخارجية التي تصنعها شامبرلين ، في سكرانتون ، وحصل على جواب إيجابي ، لأن هذه الأغلفة الخارجية لا تعتبر أسلحة . ولمزيد من الاطمئنان أتبع بول الاجتماع برسالة ، فطُمئِن مرة ثانية برد مكتوب هذه المرة . لاحقاً سيقول مكتب مراقبة الذخائر أنه ظن أن هذه القذائف كانت سترسل إلى إسرائيل . في 30 نيسان/إبريل 1976 طلب بول من شامبرلين صنع 53 ألف غلاف خارجي لقذائف (ERFB) .

بعـد فترة وجيـزة ، طار بـول إلى جنـوب أفـريقيـا ، أُعجب بـالجنـوب أفريقيين ، وجدهـم صريحين ، غير سخفاء ، وقد أثاروا إعجابه فوراً بمعرفتهم بالمدفعية وباهتمامهـم العميق بعمله . أُعجب بول بما كانوا قد حققوه من تقدم في مدفع 155 ملم ، خصوصاً العمل على جعله متحركاً . لكنه كان أكثر تقدماً منهـم في مجال البالستيات ، وقد صُدم بالتجهيزات العتيقة التي كانوا يستخدمونها في حقول الاختبار .

كان سهلاً جداً الحصول على مساعدة بول . فقد كان يريد إسعـاد الآخرين إلى حد أنه نادراً ما يرفض طلباً ما بشرط إحساسه أن الآخرين بحاجة إليه وأنه مرغوب فيه . وهذا ما حصل ، إذ وافـق على أن يعمل فريق من مهنـدسي جنوب أفريقيا جنباً إلى جنب مع فريق مهندسيه في مكـاتب (PRB) في بروكسـل . بالإضافة إلى ذلك ، قال بول إنه سيرسل فريقاً إلى جنوب أفريقيا لإقامة حقل تجارب حديث ولتعليم كيفية شحن وتجهيز قذائف (ERFB) عيار 155 ملم .

لم يرد ذكر التمييز العنصري ، وبالنسبة لبول فإنه لم ير سوى أن السكان

السود بدوا بوضع أفضل من أوضاع السود في بقية أنحاء أفريقيا . وقد أقنعته هذه الزيارة بأن ليس من خطأ في التعامل مع بريتوريا ، وأن مشاعر العـداء لجنوب أفريقيا التي تعم أميركا الشمالية هي من عمل الإيديولوجيات اليساريـة . يقول شارلز مورفي « شب بول في كندا في وقت لم يكن هناك سود فعلياً . لم يكن لديه تعاطف مع مشاكل السود لأنه لم يتعامل مع أناس سود » . أياً كان السبب ، فإن بول لم يشغل نفسه في اختيار حقيقة الأخلاق ذات المظاهر المخادعة في جنوب أفريقيا . وفي الحقيقة ، وعند إدراكه أن المشروع بدأ يسير ، ابتعد بول كلياً عن الصفقة مع جنوب أفريقيا للتركيز على إيجاد فرص عمل جديدة ، وعلى إقامة حقل الاختبار في انتيغوا . ولفترة ، لم يعد مشاركاً أو حتى عارفاً بالخطوات التي قطعتها الصفقة .

في غياب بول ، تولى رودجرز غريغوري ، وهو كولونيل سابق في الجيش الأميركي وأحد مسؤولي جامعة نورويتش ، إدارة عمليات (SRC) في الولايات المتحدة ، وقام بزيارة جنوب أفريقيا بنفسه . وتولى بالاسيو تنظيم برنامج العمل المشترك في بروكسل ، في حين عُيّن ستيف أدامس ، وهو مهندس من فيرمونت كان يشغل مركز مدير عملية تطوير القذيفـة (ERFB) ، مسؤولاً على عمليات (SRC) في جنوب أفريقيا .

خلال شهري أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر قام غريغوري وأدامس بشحن نظام رادار لتعقب القذائف خلال طيرانها ، من مطار ميرابل في أوتاوا إلى مؤسسة (Cementation) للهندسة في جوهانسبورغ ، كما أرسلا سبـع قذائف مبتـورة لاستخـدامهـا في التـدريب على كيفيـة شحن وتجهيـز القـذائف بالمتفجرات والصواعق .

في هـذه الأثناء ، كـان بول قـد أحيى اهتمـام الجيش الأميـركي بالمـدفع (GC-45) . فصنعوا سلسلة من سبطانات المدفع وفق مواصفات بول في ترسانة الجيش الأميـركي في ووترفـلايت ، نيويـورك . وكان بـول سعيـداً لأن صنـع السبطانات تم سريعاً ، لأنه في تشرين الثاني/ نوفمبر من تلك السنة هُزم جيرالد فورد في الانتخابات الرئاسية أمام جيمي كارتر المتدين ، الحاكم السابق لولاية جورجيا . أصدقاء بول في البنتاغون كانوا مرعوبين من فوز كـارتر ، وتحـدثوا

بتشاؤم عن سياسات حقوق الإنسان الساذجة التي يمكن أن تضر بأنظمة صديقة من إيران إلى الفيليبين . كان هناك شعور عام بأن تدابير الدفاع ستصبح أكثر تشدداً ، وصفقات الأسلحة أكثر صعوبة .

في كانون الأول/ ديسمبر استخدمت بريتوريا حقها المتضمن في العقد بطلب 15 ألف قذيفة إضافية ، وزادت الضغط لاستلامها بسرعة .

مع اقتراب السنة من نهايتها ، بدأ بول التحضير لإجراء اختبارات على الذخيرة وعلى السبطانات ، التي صنعها الجيش الأميركي ، في انتيغوا .

بدأت التجارب في كانون الثاني / ينـاير 1977، ومع أداء جيمي كارتر اليمين الدستورية كرئيس للولايات المتحدة ، زادت وتيرة المعارضة السياسية لرئيس وزراء انتيغوا ، فيري بيرد ، الذي اتهمته المعارضة باستيراد الأسلحة ، بما فيها أطنان الأسلحة الصغيرة ، زاعمة أنه يخطط للبقاء في السلطة بالقوة وإقامة دكتاتورية عسكرية ، وقد تخوف بول من تصاعد هذه الحملة بحيث توقف الاختبارات . وتحسباً لذلك ، تم شحن نظام آلي كامل لاختبار البالستيات من نيويورك ، على متن طائرة تابعة لجنوب أفريقيا ، إلى مقر (Cementation) في جوهانسبورغ ، بعد الحصول على إذن تصدير من مكتب مراقبة الذخائر ، باعتبار أن القطع المفككة لهذا النظام ليست مدرجة على لائحة المحظور تصديرها . ومع ذلك فإن هذه الشحنة مثلت خرقاً لروح حظر الأسلحة على جنوب أفريقيا ، لأن تجميع القطع المفككة يؤدي إلى امتلاك جهاز لا غاية له غير اختبار بالستيات المدفعية .

في أواخر أيار/ مايو شحنت (SRC) 14800 غلاف خارجي كامل من سان جون ، نيوبرونشويك، إلى انتيغوا . وقد منحت الحكومة الكندية إذن تصدير للقذائف المنشطة ، على أساس أنها ستستخدم في حقل انتيغوا . وخلال الأسبوع الثاني من حزيران/ يونيو قامت سفينة الشحن (SS Tugelaland) ، المملوكة جزئياً من قبل حكومة جنوب أفريقيا ، بنقل هذه القذائف من انتيغوا إلى كاب تاون .

الآن ، أصبحت بريتوريا راضية عن إمكانية إتمام الشحنات بتكتم . وفي

7 تموز/ يوليو 1977 اجتمع ج.س كويتزي ، مدير عام قسم المبيعات التجارية في (Armscor) ، في لندن مع بول ومحاميه ومسؤولين عن فيرست بنسلفانيا بنك ، الذي كان ما يزال يشرف على شركة بول ويتحمل ديون (SRC) البالغة أكثر من 10 ملايين دولار . كان كويتزي يمثل شركة « سبايس كابيتل انترناشيونال » ن.ف. وهي شركة مالية مسجلة في أمستردام . استغرق التوصل إلى اتفاق يومين ، وبانتهاء المساومات استثمرت سبايس كابيتل مبلغ 10 ملايين دولار مقابل 19,9 بالمئة من أسهم « كندايان تكنيكل اندوستريز » ، وهي شركة هولدينغ يستخدمها بول للسيطرة على (SRC) . فقام بول بتسديد 6,5 ملايين دولار من ديون (SRC) لفيرست بنسلفانيا بنك ، الذي وافق على استخدام المبلغ المتبقي لمتابعة أعمال الشركة .

في غضون أسابيع ، بعد اجتماع لندن ، استدعيت (Tugelaland) إلى سان جون لتقوم بشحن 32 مستوعباً ، من بينها 10 فارغة ، وفي داخل الـ 22 الباقية أغلفة خارجية - 10 آلاف قذيفة (ERFB)) . في انتيغوا تم إنزال 12 مستوعباً ، بينها الـ 10 الفارغة ، وتم شحن 3 مستوعبات أخرى . اثنان كانا مليئان بقذائف 155 ملم مستهلكة ، لدراستها ، والثالث كان يحتوي سبطانتين من بين السبطانات التي صنعها الأميركيون للاختبار . كان « مانيفست » السفينة يشير إلى أنها تقصد باربادوس ، لكن اتجاهها الحقيقي كان إلى كاب تاون .

مع استمرار التجارب في حقل انتيغوا خلال الصيف ، ازدادت الاحتجاجات السياسية . وبنهاية آب/ أغسطس حدثت سلسلة من عمليات التسلل إلى الموقع ، وسُرقت بعض القذائف ، وبدأت عمليات رشق العاملين بالحجارة ، وأصبح الحقل تحت الحصار بشكل فعلي . علّق بول التجارب إلى حين هدوء الأوضاع .

في خريف تلك السنة، زار جوشوا نكومو- أحد قادة الثوار السود الذين يحاولون إسقاط حكومة الأقلية البيضاء برئاسة إيان سميث في روديسيا- فيديل كاسترو في كوبا . أخبره كاسترو أن لدى المخابرات الكوبية تقارير موثوقة من انتيغوا تفيد بأن شركة مركزها في كندا تقوم بشحن أسلحة صغيرة إلى روديسيا . كان نكومو في طريقه لإلقاء خطاب في كندا ، وما أن وصل إلى أوتاوا حتى دعا

إلى مؤتمر صحفي ، وكشف فيه ، بدون تسمية (SRC) ، المعلومات التي قدمها له كاسترو .

المعلومات التي كشفها نكومو أثارت سخط رئيس وزراء كندا ، بيار ترودو ، فأمر بإجراء تحقيق فوري . ولم تكن الشرطة الكندية بحاجة لأكثر من ساعة لتعرف أن (SRC) هي الشركة الكندية العاملة في مجال الأسلحة ، التي لها روابط مع انتيغوا . وبعد ساعة من معرفة ذلك ، اكتشفت الشرطة وجود 55 مستوعباً لـ (SRC) على رصيف مرفأ سان جورج جاهزة للشحن إلى انتيغوا . وقبل حلول الليل كان رجال الشرطة يملأون المكان . محتويات المستوعبات كانت مطابقة لإذن التصدير المُعطى . 21624 قذيفة غير منشطة مرسلة إلى حقل الاختبار في انتيغوا . أرسلت الشرطة تقريراً إلى أوتاوا يفيد بأن كل شيء مطابق للأصول ، ثم أظهرت تحقيقات أخرى أن (SRC) ود. جيرالد بول لم يعملا أبداً في مجال الأسلحة الصغيرة . المخابرات الكندية اتصلت بجهاز (M16) البريطاني الذي أكد أن نظام سميث في روديسيا لا يستخدم - بل حتى لا يملك - تكنولوجيا بول المتقدمة في مجال المدفعية .

كان يمكن أن تنتهي المسألة عند هذا الحد ، غير أن استخبارات الشرطة الكندية أرسلت عميلاً للتأكد فقط من أن كل القذائف تستخدم في الاختبارات فعلياً . وقد وجد العميل أنه يستحيل معرفة عدد القذائف التي أطلقت بالضبط ، لكن عند القيام بكشف على قائمة الموجودات في الحقل تبين اختفاء السبطانتين الأميركيتي الصنع . وعندما سأل عن مكانهما أجيب بأنهما لكثرة استعمالهما في إطلاق القذائف قد تمزقتا فألقيتا في البحر. كان الأمر مقنعاً بالنسبة للسلطات الكندية ، التي كانت ميالة للاقتناع بأن نكومو كان مخطئاً وبعدم وجود صفقات أسلحة غير شرعية تمر عبر انتيغوا . الآن أحست هذه السلطات بوجود عملية تمويه فأخذت تتعمق بالقضية .

في هذه الأثناء ، كانت اتهامات نكومو قد أحدثت هيجاناً في انتيغوا ، فوعد رئيس الوزراء، بيرد، بإجراء تحقيق مستقل ، في حين أبقى بول حقل الاختبار مقفلاً . وتم إلغاء الشحنة من نيو برونشويك ، وبقيت القذائف غير المنشطة على الرصيف .

في 20 تشرين الأول/ أكتوبر غادر ستيف أدامز ، مدير مشروع قذيفة الـ 155 ملم ، فيرمونت مع فريق مؤلف من عشرة أشخاص ، كلهم من العاملين مع بول منذ خمس سنوات على الأقل ، وكانوا مهندسين وتقنيين متوسطي المستوى ـ خبراء كومبيوتر ، تقنيي تصوير ، رماة مدفعية ومتخصصين بالرياضيات . وقد أخبروا أصدقاءهم أنهم مكلفون بعمل في مكتب الشركة في بروكسل لمدة ثلاثة أسابيع ، سُمح لم بإبلاغ زوجاتهم فقط أنهم مسافرون إلى جنوب أفريقيا .

في بروكسل استلم أفراد الفريق بطاقات السفر إلى جوهانسبورغ ، في رحلة مقررة لليوم التالي. نفقات السفر تم دفعها نقداً . وقد أُعلموا بعدم التقاط صور أو شراء تذكارات ، وأُعطي كل منهم قصاصة ورق مشابهة لأوراق جوازات سفرهم . وفي جوهانسبورغ وضع موظفو قسم الهجرة فيزا دخولهم إلى البلاد على هذه القصاصات لانتزاعها عند المغادرة . من جوهانسبورغ أخذ الفريق بالطائرة إلى كيمبرلي ، مركز صناعة الالماس ، ومن كيمبرلي أقلتهم عربات عسكرية مسافة 100 كلم إلى مجمع سكني ناءٍ ، يدعى شميدتس دريفت ، الذي يتألف من مخازن صغيرة وفندق . قربه ، كان هناك حقل اختبار تابع لقوات الدفع ، بعيد عن الأنظار وسط دغل تحيط به أسوار شائكة. ووجد الفريق بانتظاره كل أجهزة الرادار والكومبيوتر والمعدات التقنية المتطورة ، التي تم شحنها طوال السنة الماضية ، وأيضاً حوالى 30 ألف غلاف خارجي جاهز لقذائف (ERFB) عيار 155 ملم .

على مدى أسبوعين، عمل أفراد الفريق على ترتيب المعدات لإقامة حقل اختبار للبالستيات وفق أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا ، ثم بدأوا تدريب العاملين لدى (Armscor) على كيفية استخدامه ، ووضعوا برنامجاً لتسليح القذائف غير المنشطة ، بحشوها بالصواعق والمواد شديدة الانفجار .

بعد أسبوع من عودة الفريق إلى فيرمونت ، أعلن رئيس وزراء جنوب أفريقيا ، جون فورستر : « هناك من يظن أنه سيركّع جنوب أفريقيا بفرض حظر أسلحة إلزامي . لهؤلاء أقول إن هناك كلاماً آخر قريباً » .

وفي مطلع السنة التالية ، أخذ أدامز الفريق إلى سميدتس دريفت لإجراء

دورة تدريبية ثانية لتقنيي جنوب أفريقيا . وفي أثناء وجوده في جنوب أفريقيا أثار ستيف أدامز اهتمام كبار مسؤولي (Armscor) كثيراً، ليس فقط لأنه كان ذا معرفة كلية بنظام المدفع الجديد وخصائصه البالستية ، بل لأنه أظهر أيضاً معرفة كبيرة بتطوير الأسلحة ومصادر التمويل . فعرضت (Cementation) عليه العمل لديها براتب لا يستطيع رفضه ، وفي آذار/ مارس 1978 استقال من (SRC) للانتقال إلى جوهانسبورغ . بول استشاط غضباً، ليس بسبب ما اعتبره خيانة من قبل أدامز فقط ، بل لإدراكه أنه تعرض لخيانة مزدوجة .

بعد أسبوع من استقالة أدامز ، حُوِّل مبلغ مليون دولار من حساب سويسري مباشرة إلى فيرست بنسلفانيا . بدأ الدين ينخفض وأخذ الضغط المالي يخف على بول . ثم كانت هناك أخبار جيدة من انتيغوا . فالتحقيق ، الذي أجرته حكومة انتيغوا بشأن الاتهامات التي أطلقها نكومو ، برأ (SRC) من أي مخالفة . ولم يلق التقرير اهتماماً ملموساً ، لأنه صدر في وقت كان إيان سميث قد بدأ في نقل السلطة إلى الأكثرية السوداء ، وبدا أن معركة الديمقراطية في روديسيا بدأت تنتصر .

بالكاد انتبه بول لهذه التطورات لأنه كان منشغلاً باهتمامات أخرى . في وقت مبكر من السنة الحالية كان قد قام برحلتين إلى إسبانيا ، وأعلن الآن عن التوصل إلى عقد مع الحكومة الإسبانية لشراء قذائف (ERFB) عبر شركة وكيلة تدعى (Barreros Hermanos International) . وفي آذار/ مارس 1978 ، قامت سفينة هولندية بتحميل الـ 21624 قذيفة ، التي كانت مخزنة في سانت جون طوال الشهور الخمسة الماضية وأبحرت بها إلى برشلونة .

صفقة القذائف مع إسبانيا أثارت من جديدة اهتمام الشرطة الكندية . وفي نيسان/ إبريل أرسلت عميلاً آخر إلى انتيغوا ، فوجد أن لدى (SRC) 2508 قذيفة في المخزن ، وجمع أدلة تظهر عدم إطلاق أكثرمن 2000 قذيفة خلال الاختبارات كلها . وبما أن 30 ألف قذيفة تم شحنها إلى انتيغوا وفق أذون التصدير ، فقد كان هناك 25492 قذيفة مفقودة .

اتصلت الشركة الكندية بـ (M16) البريطانية ، التي كانت بدورها مهتمة

جداً بمعرفة سبب بقاء القذائف التي أُرسلت إلى برشلونه على رصيْف التحميل . في أيار/ مايو ، بعد شهرين من تفريـغ القذائف في بـرشلونة ، راقب عمـلاء بريطانيون ، السفينة الهولندية (Breezand) وهي تقوم بتحميل هذه القذائف ، وتم رصد السفينة في إبحارها جنوباً لتفرغ حمولتها في دوربان ، جنوب أفريقيا .

لم تُعلم المخابرات البريطانية الشرطة الكندية ـ ربما لأنها كانت تحقق في صفقات أسلحة أكبر حجماً ولم ترد إثارة حذر بريتوريا في حال اتخذت الشرطة الكندية إجراء ما بحق بول ـ وبسذاجة منحت أوتاوا إذن تصـدير آخـر للسماح لـ (SRC) ببيع المزيـد من القذائف غيـر المنشطة إلى إسبـانيا في صيف تلك السنة . في تموز/ يوليو قامت سفينة شحن ألمانية غربية غير نظامية ، بشحن 12 ألف قذيفة من مونتريال إلى برشلونة ، ومن هناك أُعيد تحميلها لتصل إلى دوربان مرة أخرى .

بعد اتهامات نكومو أصبح بـول عصبياً جـداً حيال تسليط الأضـواء على أعماله . لكنه ظن أن القضية برمتها قد طواها النسيان حتى نهاية صيف 1978 ، عندما بدأ برنامج (Panorama) الذي تبثه هيئة الإذاعة البريطانية وبرنامج (Fifth estate) الذي تبثه هيئة الإذاعة الكندية تحقيقاً مشتركاً حول صفقـات بول مـع جنوب أفريقيا .

وقد بث هذا التحقيق الوثائقي في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر 1978 ، وادعى أن بول قام بشحن قذائف إلى جنوب أفريقيا . الشرطة الكنـدية كثفت تحقيقـاتها ، وفي غضـون شهر دعت الحكـومة الأميـركية هيئـة محلفين كبرى للانعقاد لتقرير ما إذا كانت (SRC) قد خرقت قوانين التصدير الأميركية . استقال بول من رئاسة (SRC) وطار إلى بلجيكا ليضع يده على (SRC- I) تاركاً لرودجرز غريغوري أمر ترتيب الفوضى الحاصلة . أول ما فعله غريغوري هو إتـلاف كل الملفات المتعلقة بـ « ميامي » (الإسم الرمـزي الذي أُطلق على العـلاقة مـع جنوب أفريقيا) ، وبعد أسبوع أو أسبوعين ، قامت الشرطة الكندية ، في 20 كانون الأول/ ديسمبر بالإغارة على مكاتب (SRC) في هاي ووتر بحثاً عما كان قد أُتلف بالفعل .

رئيس وزراء انتيغوا ، بيرد ، أعلن عبر الإذاعة أنه إذا كانت المزاعم التي

تضمنها التحقيق الوثـائقي ، صحيحة سيـطلب من (SRC) مغادرة الجـزيرة . وتحولت المسألة إلى قضية سياسية دولية ، وحاولت قوى المعارضة استغلالها لإجبار بيرد على الاستقالة .

وصل بول إلى بلجيكا ولديه شعور بأنه وحيد وعرضة للهجوم . وقد أدرك أن المزاعم ، التي بُثت الآن في أنحاء العالم ستجعل أمر الحصول على عقود أميركية وكندية أخرى شبه مستحيل . كما أن جنوب أفريقيـا باتت تمتلك كـل التكنولوجيا اللازمة لتقوم وحدها بإنتاج مـا كانت تشتـريه منـه . وإذا أراد إنقاذ (SRC) عليه البحث عن أعمال جديدة . وحدها (PRB) لم تأخذ هذه الكارثة بجدية ، وألحت على بول لنقل كل عملياته إلى بلجيكا ، وفي غضون ذلك أن يبدأ مفاوضات مع (Voest- Alpine) ، شركة لتصنيع الأسلحة مُؤممـة من قبل الحكومة النمساوية ، لإبرام صفقة تحصل بموجبها هذه الشـركة على رخصـة لتصنيع وبيع الهاوتزر (GC- 45) وقذائفه الأبعد مدى . لكن بول كان خائفاً من التحقيق القضائي الجاري في أميركا الشمالية . كان خائفـاً من إدانته من قبـل الوسط الأكاديمي ، ومن العار الاجتماعي الذي ينتظره .

كان يفترض أن يكون عمل هيئة المحلفين الكبرى سرياً ، وقد ثار غضب بول ومحامي (SRC) كيرك كاراسزكيوتش ، من فيلادلفيا ، بسبب التسريبات ، وبالأخص لـ (Burlington Free Press) ، التي عينت شاباً متحمساً لتغطية هذه القصة ، هو سام هيمنغواي ، وعلى مدى السنتين التاليتين سيقوم هيمنغواي ، النحيل ، والصحفي المستقل ، وليام سكوت مالون ، بتكريس ساعات لا تُعد لنبش العلاقة بين (SRC) وجنوب أفريقيا ، وبفضل قوانين حرية الإعلام ومئات المقابلات ، نجحا في جمع أجزاء القصة بكل تفاصيلها وعمقها .

في هذا الوقت تقريباً ، تلقى بول دعوة من لندن من رجل ادعى أن اسمه مايكل تشانغ (اسم غير حقيقي) لمناقشة مسائل تجارية . طار بول إلى بريطانيا لاجتمـاع سري في المنـزل الفخم لرجـل الأعمال . كـان تشانـغ في حـوالي الخمسين من العمر ، يتكلم الإنكليزية بطلاقة تقريباً . وله هدوء ومشية الكبرياء التي لرجل دبلوماسي . بدأ أولاً بإخبار بول كم أنه قد أعجب بالعمل الذي أنجزته (SRC) على المدفع عيار 155 ملم . ثم شرح بعد ذلك ، كيف غادر الصين عام

1948 عندما استولى الشيوعيون على السلطة ، وأن العديد من أصدقائه قد عانوا الأمرّين تحت حكم ماو . على أي حال ، قال تشانغ ، فإنه منذ زيارة ريتشارد نيكسون إلى بكين عام 1972 بدأت بالانفتاح على الغرب في حين ظلت متخوفة من موسكو . وأفضل تكتيك الآن ، أضاف تشانغ ، هو أن يقوم الغرب بتقوية روابطه مع الصين ، لأن ذلك من شأنه فقط شد هذا البلد إلى القيم الغربية وبعيداً عن الشيوعية الهدامة . ويمكن افتراض ، حسب تشانغ ، بأن التعامل مع بكين قد يكون عملاً معادياً للشيوعية .

بعدها تناقش الرجلان في أحد المواضيع المفضلة لدى بول : الحرب العالمية الثانية . وأخيراً كشف تشانغ أن لديه « جهة راعية » ترغب أن يقوم بول بزيارة بكين لإلقاء نظرة على مصانع الذخيرة ، وربما لإلقاء محاضرة في إحدى الجامعات ، وفي الأخير أن يدرس فكرة الدخول في منافسة مع آخرين ، من بينهم الحكومة البريطانية ، ملهوفين لإبرام عقود لبيع معدات عسكرية للصين .

وكما دائماً ، نجح أسلوب التملق مع بول ، لكنه مع ذلك لم يكن قد حزم أمره عندما غادر منزل رجل الأعمال . وبرغم أن فكرة التعامل مع الشيوعيين الصينيين بدت له بغيضة . إلا أنه أحس بالفرح لوجود من يحتاج في وقت يصعب إيجاد الأصدقاء القدامى . امتنع من اتخاذ قرار . لكنه خلال الأسابيع التالية ، بدأ يتكلم كثيراً عن انفتاح بكين على الغرب وحكمة كسب ود أقوى جيران الاتحاد السوڤياتي عسكرياً .

في هذه الأثناء ، كانت أسوأ مخاوف بول على وشك الحدوث . في 9 كانون الأول/ ديسمبر ، أعلن غريغوري أنه بسبب خسارة عقود عمل أصبحت (SRC) مهددة بالإغلاق ، وتم طرد 45 عاملاً من وظائفهم . وبعد عشرة أيام أعلن غريغوري عن « مشكلة ميؤوس منها » في انتيغوا ، حيث كان بيرد قد قرر وجود ما يدل على علاقة مع جنوب أفريقيا وطلب من (SRC) مغادرة البلاد .

في مطلع 1979 ، بدأت هيئة المحلفين الكبرى بعرض الحصانة على المدعى عليهم ، وبدأ بعض أفراد طاقم (SRC) من الذين سافروا إلى جنوب أفريقيا ، الإدلاء بشهاداتهم سراً .

في 28 نيسان/ إبريل ، أعلنت جنوب أفريقيا بتبجح كريه عن قيامها بتطوير

نـظام هاوتـزر عيار 155 ملم مـع قذائفـه ، بجهودهـا الخاصـة وخلال « وقت قياسي » . رئيس الوزراء . پ.دبليو. بوتا ، قال إن المزاعم القائلة بـأن هذا النظام قد تم تهريبه من بلد آخر ، « بعيدة كلياً عن الحقيقة » .

مع حلول فصل الصيف عاد بول من بروكسل إلى موطنه ليستلم زمام الأمور بدلاً من غريغوري .

بعد شهر اجتمع زميل هيمنغواي ، مالون ، مع بول في واشنطن وأقنعـه بالكلام . واعترف بول ، بملء إرادته ، بأن فريقـاً من (SRC) قد زار جنـوب أفريقيا لكنه أصر على أن « وكلاء أعمال أوربيين عديمي الضمير » كانوا مسؤولين عن تحـويـل وجهـة القـذائف . وقـال : « لقـد أبـرمنـا صفقـة شـريفـة مـع الجيش الإسباني ».

في ذلـك الشتاء ، بـدأت النيابـة العامـة الأميركيـة بـالضغط على بـول وغريغوري للاعتراف . بسبب الرسالة التي لدى بول والموجهة إليه من مكتب مراقبة الذخائر ، لم تكن الحكومة تملك قضية متينة ضده . سراً ، كان المحامون يقولون إن الضغط يأتي من واشنطن ، حيث كان الرئيس كارتر يريد إظهار التزامه بسياساته الصارمة المناهضة لبريتوريا ، وكان بحاجة لأمثولة . كان رد بـول أن الـ (CIA) والجيش الأميركي كانا دائماً على علم ووافقا على صفقاته مع جنوب أفريقيا . ثم إن فروست ، الوثيق الصلة بالـ (CIA) هو الـذي عرّف الجنـوب أفريقيين بـ (SRC) في المقام الأول ، لم يكشف بول أبداً عن امتلاك فروست أسهماً في عمليات (SRC) في بلجيكا ، لكن هذه الحقيقة تشير إلى أنه لم يكن مستحيلاً على الـ (CIA) أن تكون مطلعة على كل عمليات (SRC) .

ولمـواجهة دفـاع بول اقتـرح محامـو الإدعاء تسـوية : إذا اعتـرف بـول وغريغوري والشركة بالذنب في تهم مخفضة يتم إسقاط التهم عن كل العاملين في الشركة ؛ أما إذا رفض بول وغريغوري ذلك ، فإن التهم ستوجه لكـل شخص يثبت تورطه في عملية تهريب التكنولوجيا إلى جنوب أفريقيا . توسل غريغوري إلى بول أن يجاري اقتراح الإدعاء .

في 25 إذار/ مارس 1980 اعترف بول وغريغوري و (SRC) أمام قاضي المقاطعة جايمس س. هولدن ، بالذنب في تهم مشتركة ، بأنهم صدّروا على

الأقل 30 ألف غلاف خارجي لقذائف ، وسبطانتي مدفع هاوتزر عيار 155 ملم وجهاز رادار للتعقب ، إلى جنوب أفريقيا ، خارقين بذلك القانون الأميركي والحظر المفروض من قبل الأمم المتحدة . في البدء قال بول أمام المحكمة إنه يعترف بالذنب بالنسبة لسبطانتي المدفع وجهاز الرادار ، لكن بعد مباحثات إضافية مع محاميه اعترف بكل التهم . وقد أُخلي سبيل بول وغريغوري بكفالة 35 ألف دولار . وكان بول يرتجف وهو يغادر المحكمة . « أشعر أني مرهق جداً » قال .

وصل إلى البيت ليلاً ليتلقى المزيد من الأخبار المؤسفة . العمة أديت كانت مريضة جداً في كينغستون ، وبعد أيام قليلة توفيت . لكنها بعملها الأخير ألقت إلى بول طوف النجاة ، إذا أوصت على تقسيم ثروتها بين جيري وأبناء أعمامه ، من آل كيلي ، فكانت حصة بول 80 ألف دولار جاءت في وقت كان بأمس الحاجة إليها .

تطور القضية القضائية بحق بول في الولايات المتحدة فاجأ مسؤولي وزارة العدل الكندية ، لأنهم لم يتوقعوا أن تتم تسوية على أساس الاعتراف بالذنب . وباتوا الآن غير واثقين بما سيفعلون بالتحقيقات التي يجرونها . ولم تتخذ أوتاوا أي قرار عندما عاد بول وغريغوري إلى المحكمة لإصدار الحكم في 16 حزيران/ يونيو .

القاضي هولدن قال إن القضية كانت « مأساوية » بسبب ما لبول من سمعة كعالم ، والسجل العسكري المدهش لغريغوري ، والذي يتضمن وسام « القلب الأرجواني » الذي يمنح لجرحى الحرب . وقد سُئل المتهمان ما إذا كان لديهما ما يريدان إضافته . رد بول بصوت هامس : « إني آسف جداً على هذه الغلطة وما يمكن أن تكون قد سببته من إضرار بصورة البلد . أنا فخور جداً لكوني أميركياً وأؤمن بعمق بما تنادي به » .

حُكم على بول وغريغوري بالسجن لمدة سنة واحدة ، خُففت لستة شهور ، وغُرّمت (SRC) بدفع مبلغ 105 آلاف دولار . ميمي وستيفن ، البلغ من العمر 21 عاماً ، كانا يجلسان مباشرة وراء بول في قاعة المحكمة المزخرفة ، أجهشا بالبكاء . وقد أُمر بول وغريغوري أن يقدما نفسيهما إلى السجن خلال مدة لا تتعدى ظهر 30 تموز/ يوليو 1980 .

10

لم يصدق بول أبداً أنهم قد يرسلونه إلى السجن ، لذا جاء قرار المحكمة صدمة حقيقية له . كان مقتنعاً بأنه لم يفعل شيئاً خاطئاً . لاحقاً ، قال إنه عند سماعه الحكم الصادر بحقه شعر كأنه يغرق .

في الأيام التالية ، زاد قلق ميمي ، إذ وقع بول في حالة إحباط وبدأ يتجول في أنحاء المجمع في هاوي ووتر ، يتمتم لنفسه . ورغم محاولتها الحفاظ على هدوئها للتخفيف من أزمته ، إلا أنها كانت شاحبة اللون بفعل صدمتها الناتجة عن اعترافه بالذنب. فقد كانت أكيدة بأن جيري قادر على رد التهمة . ولم يكن من خصاله الهرب من المواجهة .

طلبت ميمي المساعدة من مارسيل باغويت . وهو محامي كندي وصديق مقرب لبول ، لكنه لم يستطع مواساتها . كان بول « منهاراً » قال باغويت وأضاف « الحكم كافي تقريباً لقتله . وعندما يذهب إلى السجن لن يكون هو نفسه أبداً » .

كان على بول وغريغوري قضاء فترة الحكم في معسكر سجن آلنوود ، في مونتغومري ، بنسلفانيا ، الذي يخضع لإجراءات أمنية مخففة جداً . وقد برز اسم هذا السجن في الأخبار باعتباره « البيت المؤقت » للمدانين في قضية ووترغيت ، وعلى سبيل التنكيت وصفه البعض بـ « النادي الريفي » . كان سجناً مؤلفاً من مهاجع مفتوحة على بعض ، بلا قضبان حديدية أو زنزانات أو أبراج حراسة . في الواقع كان السجناء هم السجانون . وقد أرسل شخص ما رسماً كاريكاتورياً يصور رجل أعمال غني بزي السجن المقلّم، يدخن سيكاراً ويطلب كأس جنّ بالتونيك من حارس السجن الذي كان يتولى الخدمة وراء البار . لكن

هذا الكاريكاتور لم يُفرح بول أبداً .

بدأ بول يشرب الكونياك أغلب الأيام من بعد الظهر حتى الليل . وبدل أن يريحه ذلك بدا أنه يزيد مشاكله سوءاً . لم يكن قادراً على النوم فأخذ يتناول حبوب النوم . الكحول وحبوب النوم جعلته في حالة إنهاك دائم . أصبح هزيلاً وقليل الطعام . الإسراف في الشرب جعله ثرثاراً . وكان كلما بدأ بتناول الطعام يعيد تكراراً « الحقائق » كما يراها . مرة تلو أخرى .

بالتأكيد كان بول يعرف أن « سبايس كابيتل انترناشيونال » الشركة التي استثمرت أموالاً في (SRC) ، لها روابط مع بريتوريا ، لكنه ما كان ليعترف بذلك أبداً . وبالطريقة ذاتها ، كان يعرف بالتأكيد أن قذائفه ستصل إلى جنوب أفريقيا ، لكن أيضاً ما كان ليعترف بذلك . لقد كذّب على نفسه ثم أخذ يصدق كذباته . كان دائماً هشّاً عاطفياً ، والآن بدأ يصبح غير مستقر عقلياً .

هذا هو الوقت الذي كان يمكن أن يجد فيه الراحة مع أطفاله . لكن بدل أن يزداد اقتراباً منهم نأى أكثر عنهم . الآن كان ، فيليبي ، الابن الأكبر ، متزوجاً ويعيش في النمسا حيث كان يدرس الطب . كان ميشيل يعيش في كويبك سيتي ، وكذلك ستيفن الذي كان يدرس في جامعة لافال . أما الأربعة الآخرون فكانوا يعيشون في البيت . كان ريتشارد في التاسعة عشرة ، بوبي في السادسة عشرة ، كاثي في الخامسة عشرة وجاين في الثالثة عشرة . يقول ميشيل : « عزل أبي نفسه عن العائلة . مشاكله كانت ساحقة ، وقد جاءت في وقت كان أخوتي الأصغر بأمس الحاجة إليه » . وهكذا حدثت فجوة في علاقة بول مع بعض أولاده ، لم تُسو أبداً بشكل مناسب ، ولم تستطع كاثي وجاين التعرف جيداً على والدهما أبداً .

بعد تسعة أيام من صدور الحكم ، أغلقت (SRC) أبوابها ، وتم صرف 200 عامل ، بينهم كل العاملين في ورشة الإنتاج والمكننة . في ذلك اليوم ، لم يغادر بول سريره .

في اليوم التالي أجبر بول نفسه للتعامل بطريقة عملية نوعاً مع ما يحصل . كانت ميمي قد عنّفته لبقائه ساكناً لا يفعل شيئاً ، فاستجمع قواه بما يكفي لدعوة

خمسة عشر شخصاً من المهندسين والتقنيين الأساسيين في الشركة ، وقال لهم إنه يأمل أن يعودوا للعمل معه من جديد يوماً ما . وقال لهم أيضاً إنه لم يكن يريد أن يرى هذا العدد الكبير من العمال ، الأقل مستوى مهنياً ، يُطردون ، لأنه يعرف كم سيكون صعباً عليهم إيجاد عمل في تلك المنطقة المتدهورة اقتصادياً .

كان بول وعائلته يملكان 80 بالمئة من أسهم « كندايان تكنيكل أندوستريز » الشركة التي تسيطر على (SRC) . لكن ديون الشركة كانت تتحملها « سبايس كابيتل انترناشيونال » التي تمثل مصالح جنوب أفريقيا وتملك 20 بالمئة من أسهم الشركة، وتسيطر على كافة موجودات «الكندايان تكنيكال» وقد طلبت جنوب أفريقيا حماية استثمارها وأصرّت على تسييل موجودات الشركة قبل أن يتقدم دائنون آخرون بمطالبهم . وبالتأكيد لم تكن جنوب أفريقيا لتهتم بمشاكل البطالة في زاوية صغيرة من أميركا الشمالية .

ما أن أغلقت أبواب الشركة حتى أصرّ مسؤولو الجمارك ، الأميركيون والكنديون ، على سد الطريق الذي يعبر الحدود ، وعلى إلغاء كافة امتيازات عبور الحدود . وقام بولدوزر صغير بجرف الطريق الذي يربط بين طرفي المجمع .

سجل بول أفكاره بكتابة مهزوزة في دفتر مذكرات صغير ، وقد احتوى الكثير من التجديف بحق جنوب أفريقيا . فبطريقة أو بأخرى ، امتلكت جنوب أفريقيا كل تكنولوجيا مدفعه الجديد ، وكان ذلك كافياً لإنقاذ قواتها في أنغولا ، أو على الأقل الثبات في وجه الكوبيين وقد ردت له الجميل بإغلاق شركته . المسألة ليست شخصية ، قالوا له ، بل مسألة « بيزنيس » .

في هذه الأثناء ، كان مارسيل باغويت يفاوض الحكومة الكندية للتوصل إلى مساومة تضع حداً للتحقيق الذي تقوم به الشرطة الكندية . لم تكن ، أوتاوا راغبة بتحمل تكاليف محاكمة طويلة . وقد فرح بول كثيراً عند سماعه أن أوتاوا ستقاضي الشركة فقط لا الأشخاص . سراً ، أخبر محامو الحكومة الكندية باغويت أنهم صُدموا بالحكم الذي صدر في الولايات المتحدة ، وأنهم لا يعتقدون أن الدليل يبرر الحكم بالسجن .

وبينما كان باغويت يساوم على حجم الغرامة الملائمة في كندا ، كانت صحة بول العقلية تتدهور أكثر . وبدا أنه فقد ارتباطه مع الواقع . أغلب الوقت كان ثملاً ويقضي ساعات طويلة ، وهو بهذه الحالة ، يهذي بكلام غير مفهوم لوحده . ازداد قلق ميمي عليه فاستدعت طبيباً نفسانياً نصح بإرساله فوراً إلى مستشفى . في البدء رفض بول ، لكن عندما قال له باغويت إن الوقت الذي سيمضيه في المستشفى قد يُحذف من فترة حكمه ، وجد هذه الفكرة أشبه بقارب إنقاذ . إذا كان دخول المستشفى سيجنبه دخول السجن فإنه موافق . في 17 تموز/ يوليو أُدخل بول إلى « مؤسسة سيلفر هيل » ، في نيو كنآن ، كونيكيتكوت ، وهي مؤسسة بارزة لعلاج الأمراض العقلية .

خلال المقابلة الطويلة التي تُجرى مع المرضى الجدد ، قال بول إن الحياة ما عادت تستحق العيش لأجلها . د. روبرت هومفريس ، الإخصائي الذي كُلف بالاشراف على حالته ، قرر أن بول على حافة اليأس الكلي ، وعين ممرضة لمراقبته على مدار الساعة . وقد أطلق عليها بول اسم « الأم سان » . الصديق الوفي ، شارلز مورفي ، الذي كان يزوره كل أسبوع ، استنتج أن المستشفى جيدة لبول ولو فقط لأنها أوقفته عن شرب الكحول .

بدأ بول سلسلة جلسات علاج نفسي مطولة ، وأخذت تفاصيل طفولته الخالية من الحب وغير الآمنة تتدفق في تداعيات ذاكرته . د. هومفريس كتب إلى القاضي جايمس هولدن يقول إن بول قد أظهر « ميولاً انتحارية وميلاً باتجاه تدمير الذات » ، وأنه سيبقى في المستشفى لأربعة أسابيع على الأقل ويمكن أن تطول إلى شهرين . المحامي الجديد لبول ، ج. ستانلي بوتينجر ، الرئيس السابق لقسم الحقوق المدنية في وزارة العدل الأميركية ، كتب أيضاً يطلب منه تخفيف الحكم . رفض هولدن تخفيف الحكم لكنه وافق على أن لا يقدم بول نفسه للسجن في 30 تموز/ يوليو مع غريغوري . وبدل ذلك ، أجل موعد بدء مدة سجن بول إلى 30 آب/ أغسطس .

في 13 آب/ أغسطس وبينما بول ما يزال في سيلفر هيل ، توصل باغويت إلى اتفاق مع الحكومة الكندية ، اتهمت بموجبه (SRC) بتصدير 53 ألف قذيفة مدفعية ، بعيدة المدى ، إلى جنوب أفريقيا بخرق للحظر المفروض من قبل

الأمم المتحدة . وبالنيابة عنه ، عن بول ، قام محامون يمثلونه بالإقرار بالذنب في محكمة مونتريال ، وفي 15 آب/ أغسطس غُرمت الشركة بمبلغ 55 ألف دولار ، وأعلن أنه في غضون أسبوع سيتم بيع كل موجودات (SRC) ـ المقدرة بقيمة 15,7 مليون دولار ـ لأفضل عروض مقدمة .

بوتينجر رفع إلى القاضي هولدن عريضة من أطباء سيلفر هيل ، تقول ، إنه برغم تحسن حالة بول إلا أنه ما يزال « بوضع نفسي يائس إلى حد ما » ولا يتلاءم مع السجن . هذه المرة طلب بوتينجر والأطباء السماح لبول بقضاء فترة حكمه في مستشفى الأمراض العقلية . القاضي أجّل موعد بدء فترة سجن بول إلى 30 أيلول/ سبتمبر رافضاً تخفيفها أو الإجازة بتمضيتها في المستشفى .

الآن كان بول مستعداً لفعل أي شيء يجنبه دخول السجن، وآماله بأن ينفذ من ذلك بدخوله المستشفى سقطت . في منتصف أيلول/ سبتمبر ادعى أنه تعرض لضغط من المحامين للاعتراف بذنبه في المقام الأول، طلب السماح له بتغيير التماسه . وقال د. هومفريس إن بول ربما كان في وضع غير قادر على اتخاذ قرارات حاسمة عندما اعترف بذنبه .

كان الأطباء يقولون إن « الأنا » لدى بول ، وبرغم ضخامتها وغناها على السطح وفي مجال العالم ،كانت جاهزة للتفكك على المستوى الشخصي . كان بول قد أمضى سنواته الخمس والعشرين الأولى في حياته وسط عاصفة عاطفية ، وكان الضغط لمجرد البقاء عائماً قد ترك ندوباً عميقة بداخله . اكتفاؤه كان يأتي من خلال إثارة إعجاب الناس بإنجازاته العلمية والأكاديمية . كانت سمعته تشكل شيئاً سامياً بالنسبة له . فإذا تضررت سمعته يفقد كل شيء . ولهذا فإن الذهاب إلى السجن ـ أشبه بالمجرم العادي ـ يمكن أن يدمره .

في الالتماس الذي رفعه إلى المحكمة ، قال بوتينجر : « عانى د. بول بالفعل من ردود فعل قاسية بشكل غير معقول ، من الإهانة وفقدان الكبرياء واحترام الذات . لقد حقق الحكم هدفه المنشود » .

لكن النظام القضائي الأميركي ليس موجهاً للأخذ بعين الاعتبار « الأنا » الهشة للناس ، لذا أمر القاضي هولدن بأن يقدم بول نفسه للسجن في الساعة

الثالثة بعد ظهر الأول من تشرين الأول/ أكتوبر .

كان بول قد ظهر بنفسه في المحكمة خلال تقديم الالتماس الأخير ، وكان مورفي وباغويت موجودين لدعمه. وما ان خرج من المحكمة حتى رأى بول الصحفي هيمنغواي في موقف السيارات ، فارتفعت قبضته وركض صوب هيمنغواي صارخاً « سأضربك » لكن قبل أن يصل إليه كان مورفي وباغويت قد أمسكا بصديقهما وأدخلاه إلى السيارة . وما ان انطلقت السيارة حتى أجش بول بالبكاء .

في اليوم التالي.قام مورفي وميمي وصديق آخر للعائلة بمرافقة بول إلى سيلفر هيل لإجراء فحص نهائي . ومن هناك قصدوا آلينوود . في الثانية والنصف بعد ظهر اليوم التالي سلم بول نفسه لإدارة السجن .

11

لم يكن سجن آلينوود سيئاً كما كان بول يخشى . اجتياز البوابات في اليوم الأول كان الجزء الأصعب . لكن ما أن حصل على الأثواب العسكرية التي سيرتديها خلال بقائه ، حتى وجد أن السجن ليس محروساً أكثر مما كانت الحراسة حول مجمعه . تشارك في غرفة مع يوغسلافي كان قد قاتل مع الأنصار خلال الحرب العالمية الثانية . أحبه بول فوراً ، وما أن انتهى الأسبوع ، حتى كانا يجلسان يتبادلان الحديث حتى الثانية أو الثالثة صباحاً. وقد خطرت على بال بول فكرة كتابة مذكرات هذا الرجل .

الفترة التي أمضاها في المستشفى أفادته . للمرة الأولى منذ بلوغه الرشد كان قادراً على الكلام بصراحة ، واتزان وعمق عن طفولته . أخبر الأطباء عن إحساسه بالمسؤولية لوفاة أمه . وقد تعقب الأطباء هذا الإحساس إلى حديث تناهى إلى سمعه وهو طفل . ربما أخته بيرنيس أو العمة أديت ، قالت أنه ما كان على أمه أن تنجب هذا العدد من الأطفال ، وأنها لو لم تكن كاثوليكية لكانت على قيد الحياة لأنها ما كانت لتنجب أبداً الطفلين الأخيرين . ويبدو أن بول قد قال لنفسه وهو صغير إن ولادته قد أضعفت أمه بحيث ما عادت قادرة على تحمل ولادة طفلها الأخير ، فماتت .

عندما رافقت ميمي زوجها حتى بوابات السجن ، قال لها إنه لا يريد أن يزوره أحد . « إنسني طوال الشهور الستة المقبلة » قال « إنسي أني موجود حتى » . لكنها ظلت تزوره كل أسبوع ، وكذلك موريي . وكان واضحاً أن رؤيتهما كانت تسعد بول . « بطريقة ما ، كان الأمر مريعاً » تتذكر ميمي « كنا في غرفة مع كل الموجودين الذين كان بإمكانهم سماع ما نقول . كانت سبايس

ريسرش كوربوريشن في حالة إفلاس ، وكل أسبوع كان عليّ أن أزوره حاملة كدسة أوراق ليوقّع عليها . كان يوقع على أوراق خسارته كل ما عمل لأجله . وإذا سألته عما يريدني أن أفعل كان يقول لي إحرقي كل شيء » .

في أحد الأسابيع اصطحبت ميمي معها الأولاد الأربعة الأصغر سناً . « أردته أن يعرف أنهم لا يشعرون بالعار ، وأنهم ما زالوا فخورين به كما السابق » ، تقول ميمي . الحكم بسجن والدهم كان بمثابة صدمة حقيقية للأولاد . كانوا يعرفون أن والدهم يواجه مشكلة قانونية ، لكن لم يكن لديهم أدنى فكرة عن مدى جديتها . كان بوبي في السادسة عشرة من العمر ، وهو يتذكر جيداً اليوم الذي ذهب فيه والده إلى السجن : « كان أمراً مؤذياً . . . مؤذياً جداً » .

بعد أسبوعين من دخول بول إلى السجن، تلقت ميمي مكالمة من مايكل تشانغ في لندن . قال تشانغ انه صُدم لسماعه أن بول في السجن ، وأنه واثق من لا عدالة الحكم ، وسأل ميمي ما إذا كانت تقبل بنقل رسالة إلى زوجها .

حملت الرسالة معها نفحة ارتياح . وتضمنت دعوة جديدة لبول للعمل مع جمهورية الصين الشعبية . وحسب الرسالة ، فإن بكين كانت مهتمة جداً بأفكار بول حول المدفع عيار 155 ملم البعيد المدى وقذيفته الجديدة .

تقول ميمي : « كنا قد فقدنا كل شيء تقريباً بسبب الإفلاس . توليتُ أمر التفاصيل المالية . وكل المال الذي جناه بول من التعامل مع الأخوين برونغمان ، وكل موجودات (HARP) ، والأرض والعقار ، كلها ذهبت لتسديد الديون » . وقد تمكنت ميمي من الاحتفاظ بالبيت في سان برونو والبيت في هاي ووتر مع هكتارين من الأرض . وكان لديهم أيضاً 80 ألف دولار ، حصة بول من إرث العمة أديث . وبهذا المبلغ سينطلق بول في أعماله ، وسيعوِّم عائلته من جديد .

مع انتهاء الخريف وبداية الشتاء كان جيري قد خرج من حالة الإحباط ، وتحولت شفقته على نفسه إلى غضب ، غضب تدفق في 8 كانون الأول/ ديسمبر عندما وافق بول على استقبال وارن بيرلي ، الصحفي في « مونتريال غازيت».كان قد رفض قبلاً عشرات الطلبات لإجراء مقابلات معه في تلك السنة ، لكن بيرلي

ضرب على وتر حساس لديه ، عندما قال في رسالته أنه يريد ببساطة فرصة للتعبير عن وجهة نظر بول . التقيا في قاعة استقبال السجن ، الصغيرة لكن المريحة . في البدء بدا بول خجولاً ولبقاً . لكن بعد مرور بعض الوقت أصبح بول مفعماً بالحيوية . كانت يداه وذراعاه في حركة دائمة وهو يضع النقاط على الحروف معبراً عن وجهة نظره . « أذكر أنه كان صريحاً جداً وسريع التأثر » . يقول بيرلي « لقد فوجئت بأنه رجل نزيه جداً » .

قال بول انه يشعر بالمرارة وإن الحكم بالسجن لم يكن عادلاً . كان قد فهم أنه يعمل بمباركة من الـ (CIA) في تهريب التكنولوجيا العسكرية إلى جنوب أفريقيا ، لكنه الآن يشعر بأنه قد استخدم كبش فداء من قبل جيمي كارتر لأنه عندما وصل جيمي كارتر إلى السلطة أصبحت جنوب أفريقيا فجأة منبوذة في واشنطن . للتأكيد على هذا المناخ الجديد قال بول ، قررت إدارة كارتر أن تقدم عبرة ، للإشارة إلى أن كل أشكال التعاون مع بريتوريا قد انتهت .

أكد بول مراراً أنه لم يرتكب أي خطأ وأنه ليس نادماً ولا يشعر بتأنيب الضمير . هناك مفارقة مرّة ، قال بول ، لكونه أدين بتهمة إرسال أسلحة إلى جنوب أفريقيا ، في حين قدمت الحكومة الأميركية الأسلحة لأنظمة ديكتاتورية عسكرية مثل ڤيتنام الجنوبية ، إيران وتشيلي .

وماذا عن المستقبل ؟ أجاب بول : « العمليات في أميركا الشمالية قد انتهت . لدي عروض من كل أنحاء العالم . ما أن أصبح حراً للسفر سأخرج من هنا ، سأرحل ، أرى الأمل في بلد مثل الصين . هناك لديهم الطبيعة الأخلاقية للتصدي لروسيا » .

في 13 شباط/ فبراير 1981 أطلق سراح بول ، بعد أن أمضى أربعة شهور وسبعة عشر يوماً . حصل على تخفيف ثلاثة وأربعين يوماً لحسن سلوكه .

كانت ميمي بانتظاره أمام بوابات السجن ، وفي حقيبة يدها بطاقات سفر إلى المارتينيك وحجز في أحد الفنادق لمدة ثلاثة أسابيع يقضيانها في الاستجمام تحت شمس الكاريبي . بدا بول بحال أفضل بكثير مما كان عليه قبل سنتين أو ثلاث .

على الشاطىء والبار أمضى بول وميمي وقتاً طويلاً وهما يقيّمان ما حصل وما بقي لديهما . سابقاً لم تكن ميمي تشارك عن قرب في إدارة (SRC) ، لكن مع دخول زوجها إلى السجن وجدت نفسها مجبرة على إدارة عملية الإفلاس . الآن كانا لا يملكان شيئاً غير المال الذي حصل عليه من إرث العمة أديث .

وقد أخبرت ميمي بول شيئاً أربكه وأفرحه ، وجعله أيضاً غير مرتاح . فخلال وجوده في السجن ، اتصل العديد من إخوته وأخواته ، الذين انقطعت علاقتهم به منذ وقت طويل ، اتصلوا بميمي أو كتبوا إليها مبدين تعاطفهم وعارضين المساعدة .

في الوضع الراهن كان المستقبل يبدو قاتماً . خياراته كانت محدودة جداً . كونه خارجاً حديثاً من السجن فليس من جامعة قد تقبله لديها . كانت أعماله محصورة في عقود حكومية ، وسيعمل اللوبي المناهض للتمييز العنصري ما بوسعه لمنعه من الحصول على أي عقد من واشنطن أو أوتاوا . وبغض النظر عما قاله لبيرلي بشأن وجود عروض أمامه « من كل أنحاء العالم » ، فلم يكن أمام بول غير عرض واحد ، من الصين . وافقت ميمي على فكرة ذهابه إلى أوروبا ، ليعيد بناء نفسه هناك ، ليكون قادراً على العودة للعمل في أميركا الشمالية ، بعدما تكون ذكريات ما حدث قد نُسيت .

اتفقا على أن تقيم ميمي في البيت ، في مونتريال ، وأن يسافر هو للبحث عن عمل . وتوقعا أن تكون البداية صعبة عليه ، أن ينتقل باستمرار حاملاً حقيبة ثيابه ونازلاً في فنادق رخيصة ، لذا ارتأيا أن لا جدوى من ذهاب ميمي معه ، إضافة إلى أن الأولاد الأربعة الأصغر سناً ما زالوا بحاجة لبقائها معهم .

كان بول يشعر بخيبة أمل من أميركا الشمالية ، إلى درجة أنه رفض الذهاب إلى مونتريال ، من الكاريبي ، لإحضار الثياب التي قد يحتاجها . بدل ذلك ، طار في 5 آذار/ مارس من غوادلوب إلى باريس ، في حين عادت ميمي وحدها إلى كندا . من باريس ذهب إلى بروكسل واستأجر غرفة مع مطبخ صغير ، في فندق صغير . كانت ما تزال له اتصالات قوية مع (PRB) وكان يأمل بالحصول على مساعدة لإيجاد عمل . « كانت فترة حزن ووحدة » . تقول ميمي « اشتاق

إليّ واشتاق إلى الأولاد ، وقد اشتقنا إليه كثيرا ، كثيراً جداً » .

عندما انتقل بول إلى أوروبا وجد هناك قضية أخرى مُثارة أقلقته : كان هناك كلام عن مساهمته في البرنامج النووي لجنوب أفريقيا . القصة تعود إلى 22 أيلول/ سبتمبر 1979 ، عندما رصد قمر اصطناعي أميركي للتجسس فوق جنوب الأطلسي بريقاً غامضاً بمحاذاة شاطىء جنوب أفريقيا . في تقرير إلى البيت الأبيض ، قالت الـ (CIA) إن معلومات وتحاليل تقنية « تشير » إلى أن البريق ناتج عن تفجير نووي بقوة أقل من 3 كيلوطن (قوة انفجارية تعادل تلك التي لألف طن من ثالث نتريت التولوين) . وأعلمت الوكالة البيت الأبيض أيضاً أن جنوب أفريقيا تقوم بأبحاث مكثفة في مجال الأسلحة النووية ، وأصبحت قادرة على إنتاج متفجرة نووية . وأضافت الوكالة : « لم يشارك الإسرائيليون في بعض أوجه النشاطات النووية لجنوب أفريقيا فحسب ، بل إنهم عرضوا أنواعاً عديدة من الأسلحة المتطورة غير النووية وقاموا بنقلها إلى جنوب أفريقيا » .

الآن بدأ صحفيون محققون في كاب تاون ، يؤكدون في تقاريرهم أن جنوب أفريقيا نجحت في تطوير « رصاصة نووية » بعد تعديل قذيفة بول الجديدة من عيار 155 ملم . كانوا ببساطة يضعون رأساً نووياً صغيراً للقذائف ، بطريقة مشابهة كثيراً لما تفعله دول عديدة في حلف الناتو . أحد المراسلين قال : « المراقبون الغربيون على يقين بأن جنوب أفريقيا تهدف لإنتاج صواريخ نيوترونية ، باعتبارها قد قررت أن هذه الصواريخ هي الرد على أية محاولة عسكرية مشتركة تقوم بها الدول الأفريقية السوداء لغزوها خصوصاً إذا كان هذا الغزو مدعوماً من قبل القوى الشيوعية » .

هذه التقارير تبعتها اتهامات ، وُجهت عبر برنامج « ورلد إن أكشن » الذي يبثه التلفزيون البريطاني . مفاد هذه الاتهامات أن بول قد ساعد بشكل فعال إسرائيل وجنوب أفريقيا في تطوير أسلحة نووية . وقال البرنامج إن البريق الذي رصده القمر الاصطناعي الأميركي أتى من رأس نووي وُضع على رأس إحدى قذائف بول والتي أطلقت من أحد مدافع بول . عندما سُئل بول عن رده على هذه الاتهامات ، لوح يديه في الهواء ، وهتف : « إنها كذبة بالكامل ! لم نعمل أبداً على الأسلحة النووية في سبايس ريسرش » .

وعندما هدأ ، شرح بول أن أي قذيفة ، بما فيها قذيفته عيار 155 ملم ، يمكَن ان تَكيَف لإطلاق رؤوس نووية . وقد أظهـرت حسابـاته أن أقصى وزن يمكن أن تحمله قذيفة من عيار 155 هو بحدود 18 كلغ ، 14 كلغ منها يمكن أن تكـون نوويـة « وهكذا » قـال « فإن القـدرة النوويـة التي لقذيفـة 155 ملم لا تزيـد عن عما تحدثه 150 طناً من المواد الشديدة الانفجار » . (قنبلة هيروشيما كانت أقوى مئة مرة من ذلك) . « وأي شخص ينفق بليون دولار على أعمـال التطوير ، فإنه بالتأكيد يريد بالمقابل شيئاً أكثر بكثير مما توفره القذيفة النووية عيار 155 ملم . ثم انها ليست حتى رادعاً كافياً » .

مصادر حسنة الاطـلاع على صلة بصناعة القذائف النووية الأميركية ، يقولون إنهم متأكدون بأن ليس لبول شأناً ، في الأسلحة النووية . « إنه ببساطة لا يملك ذاك النوع من المعرفة » يقول أحد العلماء الأميـركيين ، ويضيف « ليس هناك أدنى دليل لربط بول ببرنامج جنوب أفريقيا النووي . كما لا يوجد أي دليل على أن لدى بريتوريا قذائف كهذه . . . » ومع ذلك ، فإن هذه القضية ساهمت في تلطيخ اسم بول أكثر . وجعلت أمر حصوله على عقود عمل جديدة أكثر صعوبة .

لا عجب أن بول كان مستقتلاً لأن تنتهي مسألة جنوب أفريقيا ، التي بدا أنها امتلكت آلية ذاتية ، إذ أصبحت شاغلاً يومياً ، حتى كان الثلاثون من آذار/ مارس 1982 ، عندما اجتمعت لجنة متفرعة عن مجلس النواب الأميركي خاصة بشؤون أفريقيا ، في جلسة خاصة لسماع شهادات حول هذه القضية . قدمت أمام اللجنة الفرعية، دراسة أعدهاستيف وايزمان ، أكدت أنه ما بين 1976 و 1978 ، قامت (SRC) بشحن حوالي 55 ألف قذيفة مدفعية عيار 155 ملم ، من ضمنها ثلاثة نماذج متطورة ، وغيرها من المساعدة التقنية والتكنولوجية إلى جنوب أفريقيا .

شدد وايزمان على أن الرسالة التي تلقاها بول من مكتب مراقبة الذخـائر « شجعت SRC ومموليها ، فيرست بنسلفانيا بنك على المضي في خطط شحن أسلحـة إلى جنوب أفـريقيا » . وأضـاف : « واستناداً إلى دليـل راجح ، فمن المحتمل أن مستشاراً عسكرياً أميركياً ، كان يساعد الـ (CIA) في خطة عملها السرية في أنغولا ـ وكان تحت إشراف ضابط الـ (CIA) ـ قد خطط مع مسؤولين حكوميين في جنوب أفريقيا لإيصال شحنات أسلحة أميركية الأصل إلى جنوب

أفريقيا لاستخدامها في أنغولا . في أقل تقدير ، كان هناك تجاهل خطير لدور الوكالة . وأغلب الظن أن هناك احتمالا بقيام عناصر من الـ (CIA) عمداً بتجاوز سياسة الولايات المتحدة » .

وقال التقرير إن وزارة العدل قد قبلت بالمساومة فقط لأنها خشيت من أن يظهر خلال المحاكمة « احتمال إجازة حكومة الولايات المتحدة لـ (SRC) بشحن الأسلحة إلى جنوب أفريقيا » . وقال وايزمان إن صفقة الأسلحة بلغت قيمتها 19 مليون دولار مما سمح لـ (SRC) بإيفاء ديونها لفيرست بنسلفانيا بنك .

« إن الصفقة بين (SRC) و (Armscor) » استخلص وايزمان « أدت إلى زيادة كبيرة في القدرة العسكرية الإجمالية لجنوب أفريقيا . قبلاً ، كانت جنوب أفريقيا تملك فقط عدداً قليلاً من أنظمة مدفعية عيار 155 ، أجنبية الصنع ، ذات مدى يعادل الصوارخ السوفياتية عيار 122 ملم ، بواسطة (SRC) ، امتلكت جنوب أفريقيا مدفع الهاوتزر (G 4) مع قذائفه الأطول مدى ، الذي تفوق على المدفعية السوفياتية من عيار 122 ملم و 130 ملم ، بالمدى والقوة » .

وكشف التقرير أيضاً أمراً مذهلاً آخر. كان جاك فروست، مصدر المعلومات الخاصة لـ (CIA) في بروكسل ، قد خاف من الصفقة بعد تورطه فيها عام 1975 . كثيرون كانوا على معرفة بها مما يجعلها قابلة للإنفضاح في أي وقت . لذا ، وليحمي نفسه من أية إدانة في المستقبل، قام بإعلام مكتب مراقبة الذخائر بأن صفقة أسلحة لجنوب أفريقيا تجري في الظل . لكنه لم يكن بحاجة للخوف ، إذ لم يتم أبداً فتح تحقيق حول الموضوع .

منذ الأيام الأولى لصفقة الأسلحة لجنوب أفريقيا ، فإن بعض المسؤولين داخل (CIA) ووزارة الخارجية والبنتاغون كانوا يعرفون كل شيء . تركوا الصفقة تتم لأنها كانت تتناسب مع أهدافهم . ما كانوا يريدون أن تنجح الحكومة الماركسية في أنغولا ، مدعومة بقوات كوبية ، في سحق قوات (UNITA) الموالية للغرب . وإذا تطلب ذلك تسليح جنوب أفريقيا فليكن .

عادة ، تتكتم سلطات جنوب أفريقيا حول صفقات الأسلحة ، لكن بريتوريا قدمت لمحة عن صفقة (SRC) في أواخر عام 1984 ، عندما تحدث

بـايت مارايس ، رئيس مجلس إدارة (Armscor) ، إلى مجلة « انتـرناشيـونال ديفينس ريفيو » . فقد أكد أن قوات جنوب أفريقيا كانت تستخدم عام 1975 قطعاً مدفعية قديمة ، قطر سبطانتها 14 سم ، في أنغولا بمدى حوالي 17 كلم ، لكن الأسلحة الروسية كانت متفوقة عليهـا ، فبدأت (Armscor) عمليـة « استطلاع حول العالم » بحثاً عن مدفعية ذات مدى 26 كلم . « وصلنا إلى هذا الرجل ، جيري بول . . . نجحنا في دفع بـول للقيام بـالحسابـات النظريـة» . تم إنتاج واختبار نموذج لمدفع بول (GC-45) في انتيغوا . « بعد الاختبارات »قال مارايس « أحضرنا كل المعدات إلى جنوب ، بالأجزاء والقطع : سبـطانات المـدفع ، الرُّكوبات التي كانت تُختبر عليها ، وبعض أدوات الاختبار . بعد ذلك بدأنا في تطوير نظام مدفعي . جماعة بول قدموا لنا مساعدة في بعض الحسـابات مـرة ثانية ، لكن من 1976 وصاعداً كان العمل يتم في جنوب أفريقيا » . وقد ذهب مارايس إلى حد القول إن نموذجين من تصميم بول قد صنعا لكنهما « لم يعملا على الإطلاق » . وأصر على أن خبراء البالستيات في جنوب أفريقيا هم الذين نجحوا لوحدهم في تعديل خطط بول وفي إنتاج نظام مدفعي من أفضل الأنظمة الموجودة في العالم ، الذي عرف بـ (G-5) .

في مـطلع 1991 ، والتزامـاً بقانـون حرية الإعـلام ، أجـازت وكـالـة الاستخبارات العسكرية الأميركية الاطلاع على دراسة حول صفقـات بول مـع جنوب أفريقيا. تقول الدراسة: «لم يكن الجنوب أفريقيون بدون قدرات محلية خاصة لتصميم النظام الضروري ، نظرياً ، لكنهم كانوا يفتقدون لجهاز كومبيوتر متطور ضروري للمساعدة في تطوير مدفعية أطول مدى . كان بول في ضائقة مالية مـريعـة . . . طـور نمـاذج سبـطانـات للمـدفـع وصنعهـا إلى جـانب مقذوفات جديدة » .

على الأرجـح ، لن نعرف أبـداً مَنْ ساهم في تـطوير الـنظام المـدفعي الذي امتلكه جنوب أفريقيا ، ومدى حجم هذه المساهمة . لكن الأكيد ، أنه كان عملاً مشتركاً ، كانت المساهمة الكبرى فيه لجنوب أفريقيا . أنتج هذا العمل أولاً قطعة مدفعية عيار 155 مقطورة ، أطلق عليها الجنوب أفريقيون اسم (G-5) ،

وكانت تجسيداً لفكرة بول حول السبطانة الطويلة بقـطر 45 . من هذا النـظام الأولي قام الجنوب أفريقيون بتطوير مدفع ذاتي الحركة أطلقوا عليه اسم (G-6) . وكان هذا المدفع البالغ وزنه 52 طناً قادراً على إصابة هدف بدقة ويمدى يصل إلى 40 كلم ، أي 10 كلم أكثر من المدافع التي يمتلكها الناتو . ضابط جنوب أفريقي قال إنه بمدى 30 كلم « يمكن إصابة ذبابة على حائط بواسطة (G-6) دون إصابة البيت بكامله » . الجنوب أفريقيون ، أكثر من غيرهم ، نجحوا في إتمام عمل بول وأنتجوا قطعاً مدفعية هي الأفضل بين شبيهاتها في أي مكان . كانت تلك هي المدافع الكبيرة التي أوقفت تقدم القوات الشيوعية في جنوب أنغولا . ذاك المـأزق هو الـذي أوصل إلى انسحـاب القوات الكـوبية من أنغـولا وإلى استقلال ناميبيا .

الجزء الخامس

الريح تصفّر شرقاً

12

بعد أيام قليلة من نزول بول في غرفته الصغيرة ، في الفندق المتواضع ، أقام صديق من كويبك، كان قد انتقل إلى بروكسل قبل سنوات ، حفلة للاحتفال بعيد ميلاد بول الثالث والخمسين . وصل بول إلى الحفلة ليجد ميمي بانتظاره ، كانت قد جاءت إلى بروكسل خصيصاً لهذه المناسبة ، وكانت مفاجأة مميزة أفرحت بول كثيراً .

كانت فرصة العمل الوحيدة المفتوحة أمام بول هي الصين . لكن برغم كل تبجحه كان غير مطمئن للمضي قدماً في هذا الرب. لم يكن واثقاً من قدرته على تبرير عمله مع حكومة شيوعية ومع ذلك،اتصل بمايكل تشانغ في لندن ، الذي لم يتأخر عن دعوة بول وميمي للعشاء في منزله والتعرف على زوجته ، و « استكشاف » المستقبل . سارت الأمور بشكل ممتاز بين الأربعة . كان تشانغ تاجراً متنقلاً مستقلاً له علاقات مع ممولين أوروبيين يتعاملون تجارياً مع الشرق الأقصى . وعلى أثر نجاحه في إتمام صفقة معينة ، غير عسكرية ، طلبت بكين منه التحري عن إمكانية شراء نظام مدفعي جديد . وكانت بكين مهتمة بشكل خاص بعمل جيرالد بول .

تشانغ وزوجته أول صديقين لبول وزوجته منذ زمن طويل . كانت ميمي قد شاركت بول خشيته من العمل لبكين ، لكنهما الآن شعرا بالاطمئنان .

يتذكر مايكل تشانغ : « وجدنا بول إنساناً بسيطا ، لطيفاً ، جادّاً للتعاطف والتقدير . تجربة السجن جعلته يشعر أنه قادر على فعل كل ما يريد » . كان بول الآن يكنّ عداءً حاداً للغرب . وبفعل تركيبة شخصيته كان يكفي أن لا ترضى واشنطن بأن يتعامل مع الصين ، ليصبح لديه مبرر إضافي للقيام بذلك .

قبل أن تغادر ميمي إلى مونتريال ، تباحثت مع بول مطولاً بشأن حياتهما معاً . في السابق لم تكن تسأله أبداً عن عمله. عندما تعرفت عليه كان مشاركاً في أبحاث عسكرية ، لكنها لم تهتم بذلك كثيراً ، رغم أنها مسالمة بطبيعتها . شدد بول على أنه يعمل في مجال « الصناعة الدفاعية » وأنه يؤمن بقوة بحق كل الشعوب في الدفاع عن نفسها . لكن الآن ، كانت ميمي تتساءل ما إذا كان عليه تغيير عمله . بهذه الطريقة سيكون أسهل عليه العودة إلى كندا . قال بول إنه راغب جداً بتغيير عمله لكنه لا يجد فرصة لذلك .

في هذه الأثناء ، قال بول ان لا معنى لانتقال ميمي إلى بروكسل ، لأنه قد يكون مسافراً أغلب الأوقات ، وستبقى وحدها . لكن عندما يعرف أنه سيبقى في المكان نفسه مدة شهر يمكنها أن تحضر للبقاء معه . على المدى البعيد ، كان ما يزال يحب هاي ووتر ، ويتمنى أن يتقاعد هناك يوماً ما .

في الشهر الثاني ، نيسان/ إبريل 1981 ، طار بول وتشانغ إلى بكين . استقبلهما أحد الوزراء وتم اصطحابهما إلى فندق فخم ، وعوملا كأنهما في زيارة رسمية . كان بول مدعواً لإلقاء محاضرات أمام عدد من كبار المهندسين والأكاديميين ، حول البالستيات بشكل عام ومشروع (HARP) بشكل خاص . كانت الجلسات هادئة يسودها تهذيب مفرط ، وكان يتبعها أسئلة متحمسة.تأثر بول بما رآه حوله . بدأ يشعر بالراحة في بكين . لم يكن يشرب ولم يعد بحاجة لحبوب النوم . مرة ثانية ، عاد أستاذاً مشهوراً يحيط به التلاميذ .

« كان بإمكاني أن أرى تجدده » يقول تشانغ « الكثير من أفعال جيري كانت مرتبطة بصدمة إرساله إلى السجن . لم يستطع فهم كل ما أثير حول مسألة التعامل مع جنوب أفريقيا . كان ساذجاً في السياسة . كان شخصاً لطيفاً جداً ضائعاً في عالم لم يستطع فهمه » .

بعد أيام قليلة من وجوده في بكين ، طلب منه ضباط كبار في الجيش الصيني القيام بجولة على منشآت صناعة الأسلحة . كان مندهشاً لضخامة المعامل حول بكين والمدن الداخلية الرئيسية ، كانت هذه المصانع قد بنيت بإشراف سوفياتي في الخمسينات ، وفُرض نظام إنتاج يتلاءم مع متطلبات حلف وارسو ، بصرامة خانقة . وعلى مدى ثلاثين عاماً ظل الحزب الشيوعي الصيني يدير مصانع إنتاج الأسلحة هذه بواسطة تعليمات مكتوبة ، بدون أي تغيير أو تطوير . كان على عمال المصانع أن يتبعوا التعليمات حتى في أتفه التفاصيل ، بما في ذلك تحديد اليد التي سيمسكون به مفك براغي ، بغض النظر عما إذا كان العامل عسراوياً أو يستعمل يده اليمنى . كان نظاماً متخلفاً وبطيئاً ، لكنه كان يعمل .

في بكين أخبر ضباط في الجيش بول أن الصين تريد امتلاك مدفع جديد . بين 1964 و 1969. بلغت المناوشات العسكرية على الحدود الشمالية مع الاتحاد السوفياتي حوالى الخمسة آلاف ، وقد تعلمت بكين ، كما تعلمت جنوب أفريقيا لاحقاً ، أن الأسلحة السوفياتية الحديثة تتفوق بمداها على ما تمتلكه الصين من مدافع وهاوتزرات . وقد أمضت بكين السبعينات وهي تحاول تطوير نظام مدفعية أطول مدى ، لكنها فشلت . الآن تريد شراء خبرة بول ، ففي حين أن السنوات العشر الأخيرة كانت هادئة ، والعلاقات مع موسكو قد طُبعت ، إلا أن الحدود ما تزال مغلقة ، والقوات والمدافع ما تزال في مواقعها على طرفي الحدود .

كان الصينيون عنيدين في الحفاظ على استقلاليتهم واعتمادهم على أنفسهم . وأي نظام جديد كانوا يشترونه ، كانوا يصرون على امتلاك كل حقوق الترخيص التي تجيز لهم صنع كل أجزائه في الصين . وحسب آلية صنع القرار الصيني المعقد ، فإن القرار الأخير بشأن أي مدفع يجب شراؤه يتخذ ليس من قبل القيادة السياسية فقط ، بل بقرار جماعي يشارك فيه عمال المصنع والجيش والمؤسسة الحزبية . أدرك بول أنه لا يستطيع التعامل مع نظام بيروقراطي بهذا الحجم ، لكنه وافق على تقديم اقتراحٍ مكتوب لبيع نظام GC-45 إلى بكين . بشرط أن يقوم تشانغ بمهمة الوسيط ، لتمهيد الطريق ، كما فعل مورديل بالنسبة

لمشروع (HARP) .

عاد بول إلى أوروبا وأنهى كتابة اقتراحه خلال أسابيع قليلة ، مقترحاً أن يقوم الصينيون بشراء مجموعة كاملة من الرسوم والتصاميم الخاصة بالمدفع 155 ملم الذي كانت قد بدأت Voest- Alpine النمساوية بإنتاجه . كانت الشركة النمساوية قد اشترت التكنولوجيا الكلّية من (SRC) عام 1978 بشكل مقطوع مقابل مليوني دولار ، ولم تدفع بعد ذلك أي جُعالة (المال الذي يدفع مقابل الحصول على امتياز صنع سلعة ما) ، برغم أنها قامت بتعديل مدفع بول (GC-45) وأخذت تبيعه تحت اسم (GHN- 45) .

في الحقيقة كانت الصفقات التي أبرمها بول لبيع مدفعه (GC- 45) سيئة بشكل مروع . كان قد أرغم على ذلك ليس فقط تحت ضغط حاجته اليائسة إلى المال لمتابعة أبحاثه ، بل أيضاً لحاجته الفورية للمال لتغطية الرواتب الشهرية للعاملين في شركته . لو كان بول مفاوضاً أفضل ، لكان يفترض أن يحصل على نسبة 5 بالمئة من سعر بيع كل الطلبات التي قامت جنوب أفريقيا والنمسا بتلبيتها . بأرقام تقريبية ، بيعت كل قطعة مدفعية بسعر مليون دولار ، فتكون حصته 50 ألف دولار من كل قطعة مباعة ، أو 5 ملايين دولار من كل مئة قطعة مباعة . وقد بلغت مبيعات جنوب أفريقيا والنمسا معاً من نماذج المدفع المصنوع وفق تصميم بول ، 600 قطعة ، خلال النصف الثاني من الثمانينات ، أي كان يفترض حصول بول على 30 مليون دولار ، وهذا يكفي لجعله مليونيراً كبيراً .

خلال مساومته مع الصينيين ، اقترح بول أن يقوموا بشراء حقوق إنتاج قذيفته الجديدة ، الجوفاء والبعيدة المدى ، مضيفاً عليها بعداً جديداً يسمى « القاعدة النازفة » . الفكرة لم تكن من اختراع بول ، لكنه في ذلك الوقت كان عالم البالستيات الوحيد القادر على تحقيقها . وهي فكرة بسيطة نظرياً ، لكن معقدة عملياً .

عندما تطير القذيفة باتجاه هدفها تكون هناك قوى عدة تعيقها . إحدى هذه القوى هو الفراغ الذي يتشكل فوراً وراء القذيفة خلال انطلاقها إلى الأمام . يقوم هذا الفراغ فعلياً بامتصاص القذيفة المتحركة مسبباً مجّة إلى الوراء (كما يمج

شخص سيكارته) مما يقلص مدى القذيفة . صمم بـول محركـاً صغيراً جـداً ليوضع في قاعدة كل قذيفة . عند إشعاله يحرق هذا المحرك مركباً كيماويا يمكن أن يطلق أو « ينزف » غازاً يملأ الفراغ ويوقف المج . حتى بول دُهش بالنتائج خلال تجارب أجريت في هاي ووتر وفي حقل الاختبار في انتيغوا .

قال بول للصينيين إنه ، باستخـدام قذيفته الجوفـاء الأطول مـدى وذات القاعدة النازفة ، يصبح للنموذج الـذي تصنعه(Voest- Alpine) وفق تصميم مدفعه من عيار 155 ، مدى يبلغ 40 كلم ، مما يوفر لبكين امتلاك النظام الأكثر تطوراً في السوق . وأبـدى بول استعـداده لتعديـل النظام حسب متـطلباتهم ، وللعمل كمستشار طوال المدة اللازمة لتنفيذ العقد .

بعد انتهائه من وضع تفاصيل اقتراحه للصينيين ، عاش بول فترة من الوحدة الحزينة . كان يتصل بميمي كل يوم . أعضاء في فريقه القديم ممن عملوا معه في (SRC) و (SRC- I) اتصلوا به لتشجيعه . لويس بالاسيو ، كان ما يزال في بـروكسل حيث كـان يتولى إدارة (SRC- I) ، وقـد استلم عمـلاً جـديـداً مـع (Mecar) ، وهي شركة أسلحة أميركيـة مقرهـا الرئسي في بلجيكـا . مونيـك جاميني ، « فتاة الجمعة » البلجيكية ، التي كانت أشبه بمدير مكتب (SRC- I) ، تعمل الآن مع (PRB) . مهندسون وعلماء من الفريق القديم الذي عمل في هاي ووتر استلموا وظائف ما بين مونتريال وملبوررون . في حين كان بول قابعاً في غرفته المستأجرة ، يمضي وقته بالتخطيط .

على مدى صيف وخريف 1981 كلفت (PRB) و (Voest- Alpine) بول بأعمال صغيرة . العمل الأهم جاء بعد حادثة حصلت خلال تجربة قطعة مدفعية اختبارية . (PRB) تولت تأمين بارود الدفـع في حين تولت (Voest- Alpine) تأمين سبطانة المدفع . خلال أول عملية إطلاق انفجر المدفـع مسبباً أضـراراً جسيمة . فحدث نزاع حاد بين الشركتين حول من يتحمـل مسؤولية الخـطأ ، والذي عليه دفع التعويض عن الأضرار . فكلف بول القيام بـدور الحَكم ، عميل حر مفوض لتحديد المسؤولية القانونية . كان عملاً صعباً ومعقداً يفـرض تنقلاً دائماً ما بين بروكسل وفيينا .

في مونتريال كانت ميمي قلقة من أن يكون بول على وشك الوقوع في حالة

إحباط من جديد . كان صوته على التلفون يبدو فاتراً وكلامه يخلو من أي أثـر للمرح . ميشيل ، الذي أصبح الآن محاسباً مؤهلاً يعمل في كـوبيك سيتي ، لاحظ الغم الواضح على وجه أمه . في حزيران/ يونيو سافر إلى بروكسل ليجد والده في وضع مرير ومحزن . لكنه بـالمقابـل صُدم بمـا لدى جيـري بول من معنويات ودينامية لا تلين . فقد كان من نوع الرجال الذين يشع إيمانهم بأنفسهم أكثر في الأوقات الأكثر حرجاً .

للمرة الأولى أحس ميشيل بأن والده بحاجة إليه . « لم يكن قادراً على أن يطلب مني البقاء معه، لأنه لم يكن يملك شيئاً يقدمـه غير الاستقـرار». يقول ميشيل . لكن والده لـم يكن بحاجة ليطلب منه ذلك . عاد ميشيل إلى كوبيـك سيتي ، قدم استقالته من عـمله ، وبمباركة عصبية من زوجته ، دانييـل ، أخذ مدخراتهما البالغة 10 آلاف دولار وانتقل إلى بروكسل . وكان الاتفاق أن تلحق به زوجتـه عندمـا يجد بيتـاً ، وحتى ذلك الحين، يمكن أن يعـود إلى كندا لمـدة أسبوع كل شهر .

بـدأ الأب والإبن بالسفـر معاً ، يتشـاركان في غـرفة واحـدة في الفنادق ويتناولان الهمبرغير معاً . كان دور ميشيل الإمساك بالجوانب المالية عندما يبدأ تدفق المال . لكنه واجه مشكلة منذ البداية : د. بول قد يفضل العمل للاشيء مقابل المجازفة بخسارة صفقة .

حـل الخريف ، وردت بكين على اقتـراح بول بـاهتمام ، لكنهم كـانوا يريدون إجراء تعديلات على قاعدة اللف التي تحمل المدفع لتكون قادرة على العمل في الوحل العميق ، ويريدون اقتراحات لجعل المدفع أكثر دقة ، ويريدون تصاميم لبناء مصانع لإنتاج المدفع ، ويريدون أيضاً أرقاماً محـددة للتكاليف . والأهم أنهم كانوا يريدون رؤية عينات ، وكان بول قد اقترح أساليب إنتاج مبتكرة لكن الصينيين رفضوها. فقد شددوا على أنهم غير مهتمين بالتكنولوجيا المتطورة جداً ، لأنها عـرضة للكثيـر من الأخطاء ، الكثيـر من الاخفاقـات ، الكثير من الصعوبات ، مما قد يؤدي إلى فشل العمال ، أو الجنود أو مسؤولي الحزب في إنجاز الأهداف المـطلوبة منهم ضمن الجـداول الزمنيـة المحددة ، وهـذا أمر مكلف ، على المستويات الشخصية ، في ظل النظام الصيني . كانوا يخافون من

الأفكار الجديدة فلا يجازفون في تطبيقها .

إيجاد العينات كانت المشكلة الأصعب ، لكن أخيراً نجح بول بإقناع (Voest- Alpine) ببيع مدفعين للصينيين . وفاوض أيضاً (PRB) لبيع حشوات دفع لتقوم شركة سويسرية بصنع عينات لقذائفه ذات « القاعدة النازفة » . الآن بدأت الأمور تتحرك .

مرة كان في لندن للتباحث مع تشانغ ، فاتصل به صديق بريطاني ، كان مديراً لحقل الاختبار في انتيغوا ، ودعا بول لتمضية عدة أيام في منتجع تورغواي ، في ديفنشاير ، فأغرم بول بالقرية والمنطقة . كانت على بعد 3 ساعات بالقطار من لندن ، ومع ذلك فقد استأجر بول بيتاً هناك ، وبدأ يعمل فيه على تصميم مواصفات المدفع الصيني .

في الوقت نفسه ، تابع بول وميشيل جولاتهما حول أوروبا ، وهما يقومان بأعمال استشارية صغيرة لشركات الذخائر ، لتغطية مصاريفهما . في إحدى هذه الرحلات تلقيا اتصالاً من سركيس صوغاناليان ، وهو لبناني معروف بأنه واحد من أغنى تجار السلاح في العالم ، ويطلق عليه اسم « تاجر الموت » . قال صوغاناليان لبول إن لديه علاقات متينة مع العراق وأنه يساعد في تسليح هذا البلد في حربه مع إيران . دعا صوغاناليان بول لزيارة بغداد ، مع تغطية كل النفقات ، للتباحث بإمكانية تحديث مدفعية سوفياتية عمرها ثلاثون سنة .

لبى بول الدعوة مطلع 1982 ، لكن عندما اتضح للعراقيين أنه لا يملك غير رسوم بيانية فقدوا اهتمامهم . وعندما عاد إلى بروكسل اتصل بميمي ليخبرها عن رحلته داخل العالم العربي ، لكن لسبب ما قلقت ميمي من هذا الخبر .

خلال الشهور الأولى من عام 1982 ، عمل بول أياماً طويلاً على المقترحات المتعلقة بالمدفع الصيني ، في منزله في تورغواي . بقي معه ميشيل عدة أسابيع في إحدى المرات . في نيسان/ إبريل أرسلت بكين فريقاً من ثمانية خبراء بالستيات لبدء مفاوضات جدة بشأن مقترحات بول . كانت المفاوضات متوترة وصعبة ودامت خمسة أسابيع . وقبل نهاية أيار/ مايو وقّع الصينيون عقداً مع د. بول وشركته الجديدة ، التي حملت أيضاً اسم (SRC) . بعد التوقيع طار بول

وتشانغ إلى بكين ومن هناك أُخذا إلى حقل اختبار ناءٍ في منشوريا ، قرب الحدود المتنازع عليها مع الاتحاد السوفياتي ، حيث كانت نماذج المدافع جاهزة للتجارب . الآن ، بدأ الصينيون يضغطون على بول للقيام بالمزيد والمزيد مقابل القليل . كانت التجارب تتم بواسطة طواقم مدفعية من الجيش الصيني ، الذين كانوا يتباهون بالمدافع التي تطلق القذائف بدون توقف حتى تذوب سبطانتها . كانوا مهتمين بمسألتين : الأولى هي أداء المدفع في ظروف القتال ، والثانية معرفة دقة تهديفه . وخلال التنقل فوق وحل عميق تحطم جزء من محمل أحد المدافع ، وترطبت ذخيرة « القاعدة النازفة » بحيث لم يعمل جزء منها . ومع ذلك تأثر الجيش بمدى قذائف بول وغزارة النيران التي تقدر المدافع على توفيرها . لكن في الرياح العالية المألوفة في منشوريا ظهرت قذائف بول الإنسيابية أقل ثباتاً خلال الطيران من النماذج السوفياتية القصيرة والعريضة ، كما طلب الصينيون دقة تهديف أكبر . وقد ضمن لهم بول أنه قادر على تحقيق ذلك .

كانت مسألة دوران . عند انطلاقها من الفوهة كانت قذائف بول تدور دورة كاملة خلال كل ثلاثة أمتار تقطعها وبما أنها تطير بسرعة 900 متر تقريباً بالثانية ، كانت القذائف تدور بمعدل 18 ألف دورة كاملة بالدقيقة . ثم إن توازن القذائف المصنوعة في النمسا للاستخدام في التجارب لم يكن متقناً . كما كانت الأغلفة الخارجية للقذائف أكثر سماكة بمعدل واحد على الألف من السنتيمتر الواحد في بعض الأماكن ، مما كان يسبب تذبذب القذيفة خلال الطيران . كان شيئاً يعرف بول أنه قادر على إصلاحه .

في المسائل التقنية الدقيقة أصرّ الصينيون على التفاوض مباشرة مع بول ، فلم يكن تشانغ قادراً على حمايته . وهكذا ظل بول ـ أسوأ رجل أعمال في العالم ـ يوافق ويوافق ، وفي النهاية وقّع على عقد ، بدون توجيه من ميشيل ، يلزم (SRC) بالقيام بضعفي العمل الذي كان متوقعاً أصلاً مقابل ثلث السعر المتوقع . وعندما رأى ميشيل ، الذي أصبح الآن نائب الرئيس التنفيذي لـ (SRC) ، الوثائق النهائية للعقد أصيب باهتياج شديد . لكن مسؤولين حكوميين صينيين أدركوا أخيراً أن بول كان يعرض الكثير جداً مقابل القليل جداً ،

فردوا بعض التنازلات التي كانوا قد ربحوها . فقد خافوا أن ينتهي بول إلى تدمير نفسه دون أن ينتج شيئاً .

عاد بول إلى لندن وقام مع ميشيل بوضع استراتيجية عمل للمستقبل . كانت مدة العقد الصيني سنة واحدة ، لكن المال أصبح متوافراً الآن لاستئجار مكتب والبدء بإعادة تجميع الفريق القديم . شدد ميشيل على ضرورة أن يتم كل شيء فوق السطح ووفق القانون . يجب أن لا تكون هناك أخطاء كما حدث مع جنوب أفريقيا . لهذا طار ميشيل إلى واشنطن للقاء مكتب مراقبة الذخائر الأميركي ، لوضعه في أجواء الصفقة مع الصين وطبيعة التكنولوجيا التي ستُباع لهم . فتم التوافق على أن بعض هذه التكنولوجيا أميركية الأصل ، لكن بعد أسابيع من التباحث أصدر المكتب إذن تصدير . كانت الصفقة منسجمة مع الخطوط العامة للسياسة الأميركية . وفي الحقيقة ، إنه في ظل إدارة ريغان أصبح الحصول على إذن تصدير ذخائر وأسلحة أكثر سهولة . وقد شجع المكتب ميشيل لإبقائه على علم بالأمور .

« لا علاقة لهم بالموضوع أبداً » هذا ما قاله بول ثائراً عندما عاد ميشيل إلى بروكسل . مع ذلك ، فقد لاحظ ميشيل أن والده كان مسروراً لأن الصفقة قد أُجيزت .

راودت بول فكرة شراء بيت في تورغواي لإدارة العملية من هناك ، لكن ميشيل أصرّ على أن بروكسل تناسب أكثر . وفي حزيران/ يونيو 1982 تم استئجار مكتب صغير على مقربة من المقر الرئيسي للمجموعة الأوروبية الاقتصادية واستأجر ميشيل بيتاً قريباً وانضمت إليه زوجته ، لكن بول استمر في العيش في غرف الفنادق . قائلاً إنه قد يضطر للسفر كثيراً . وخلال معظم المدة المتبقية من 1982 عمل لوحده في بيت تورغواي .

ستيف أدامس كان أحد أول الذين انضموا لبول من أفراد الطاقم القديم . اتصل أدامس ببول من جنوب أفريقيا. كان عمله على المدفع 155 ملم قد انتهى ، وكان يبحث عن عمل ، كما كان يريد إصلاح الأمور بينه وبين بول . بعد دقائق قليلة على التلفون ، وافق بول على نسيان غضبه . وأفضل ما في الأمر ، قول

أدامس أنه قد جمع مبلغاً محترماً من المال في جنوب أفريقيا، وأنه قادر على العمل بدون راتب لشهور عدة .لن ينقضي وقت طويل حتى يصبح أدامس نائباً لرئيس الشركة الجديدة .

عندما جُدد العقد الصيني لسنة أخرى ، عام 1983 ، قام ميشيل باستئجار سلسلة مكاتب خاصة في بروكسل وتم تجميع معظم أفراد الفريق القديم . مونيك ولويس بالاسيو انضما إلى جانب ستة من المهندسين والمصممين الذين عملوا مع بول في هاي ووتر . وعلى مضض تخلى بول عن بيت تورغواي للانتقال إلى بروكسل . وفي تلك السنة قام برحلة صعبة جداً . فللمرة الأولى منذ تركه أميركا الشمالية ، عاد بول إلى مونتريال لحضور حفلة زفاف ابنه ستيفن .

ورغم أن ميمي قامت برحلات كثيرة إلى أوروبا آخذة معها الأولاد الأصغر سناً ، إلا أنها كانت المرة الأولى التي تجري فيها حفلة عائلية حقيقية ، منذ زواج ميشيل قبل ثلاث سنوات ، وأملت ميمي أن يشجع ذلك زوجها للتفكير بالعودة إلى كندا ويتخذ منها قاعدة لعمله من جديد . لكن الأعمال كانت قد بدأت بالإنطلاق في بلجيكا ولم يكن بول مستعداً للتخلي عنها .

في ربيع 1984 وقّع الصينيون عقداً لثلاث سنوات مع (SRC) لإتمام نظام المدفع 155 ملم . هذا العقد أوقف الشركة على قدميها أخيراً . الآن ، استأجر بول مكتباً من ثلاثة طوابق ، في 63 شارع ستالي ، على الطرف الفخم للمدينة ، وارتفع عدد العاملين إلى حدود الستين .

العقود الصينية الثلاثة الموقعة رسمياً مع « نورث تشاينا اندوستريز كوربوريشن » (Norinco) التي تملكها الحكومة ، كانت قيمتها الإجمالية 25 مليون دولار . وقد حصل الصينيون مقابل أموالهم على قطعة مدفعية عيار 155 مقطورة ، التي أسموها لاحقاً (MF 45) . يبلغ مدى هذا المدفع 40 كلم باستخدام قذائف ذات « قاعدة نازفة » ، و 30 كلم باستخدام قذائف تقليدية . وبعد عمل واختبار مكثف من قبل بول كانت دقة التهديف ، برغم السرية ، قد وصفت بأنها « غير عادية » . وهذا المدفع هو نسخة أكثر تطوراً من المدفع النمساوي (FHN-45) ، الذي هو بدوره نسخة معدلة عن مدفع بول (GC-45) .

كما كان يتميز بقدرة أكبر للعمل في المناطق الوعرة . وكجزء من الصفقة ، كان على بول أن يؤمن لبكين تصاميم المصنع ونسق الإنتاج بتعليمات مفصلة عن طريق صنع كل جزء من المدفع ، من أصغر برغي إلى صناعة السبطانة . كما وفر بول تفاصيل إنتاج قذائفه الجديدة ، الجوفاء والأطول مدى وذات « القاعدة النازفة » .

في أواسط الثمانينات ، كان بول يقضي شهرين أو ثلاثة من كل سنة في الصين ، غالباً في مواقع نائية محظور دخولها على غيره من الأجانب . وأقيم مكتب أبحاث لبول وطاقمه في جامعة (Xi An) ، وقدمته جامعة (Nanjing) بصفة محاضر زائر منتظم . مرتان ، سافرت ميمي إلى الصين لقضاء إجازة مع زوجها ، وقد ذُهلت بالاحترام والتكريم الكبيرين للذين يحظى بهما زوجها هناك .

بعد انهيار (SRC) عام 1980 ، قام عدد من كبار مهندسيها بتأسيس شركيتن. دينيس ليستر وسي . ب شيبيرد أسسا «فونيكس للهندسة» ، في نيوبورت ، فيرمونت ، في حين أسس آخرون « نورث تروي للهندسة » . ومع توسع أعمال الصفقة الصينية عرض بول عقوداً على زملائه القدامى . فأصبح ليستر وشيبرد مشاركين في أبحاث تتصل بالكومبيوتر ، حتى أنهما زارا الصين مرة لتقديم مشورة بخصوص إحدى مشاكل الإنتاج . كل ذلك كان يجري تحت رقابة مشددة من قبل عملاء الجمارك الأميركيين أنفسهم المسؤولين عن إثارة الإتهامات في قضية جنوب أفريقيا .

مطلع عام 1984 شكلوا لجنة تحقيق رسمية هدفها رفع المزيد من الاتهامات بحق بول لبيعه ، بشكل غير شرعي ، تكنولوجيا عسكرية للصين . ثار غضب بول ، وصرخ خلال مقابلة أجرتها معه « بوسطن غلوب » عبر الهاتف : « بعض عملاء الجمارك في فيرمونت المتخلفة يريدون رؤيتي ميتاً ، ويريدون رؤية (SRC) ميتة . حسناً ، حكومة الصين لا تريد أن تموت (SRC) . لم أسمع أبداً شيئاً حقوداً ومقرفاً كهذا . إذا أرادت الجمارك النيل مني ، فليأتوا ويجدوني » .

عميل الجمارك ، جون أوهارا ، مسؤول لجنة التحقيق ، رد بقوله : « بول يخضع لتحقيق . إنها ليست مسألة انتقام على الإطلاق . الآن ، وبدلاً من الشحنات إلى جنوب أفريقيا ، إنها شحنات إلى بلد شيوعي » . في 29 آذار/ مارس داهم عملاء الجمارك منزلي ليستر وشيبرد بحثاً عن أدلة عينية . وقد أصر الرجلان على عدم ارتكاب أي خطأ ، لكن الجمارك مررت « دليلاً » إلى المدعي العام الأميركي وأوصت بتوجيه تهم . الادعاء وصل إلى وزارة الخارجية ، وبعد تحقيق داخلي لم يُتخذ أي إجراء آخر . بالنسبة لواشنطن كانت صفقات بول مع الصين في إطار القانون .

13

بحلول ربيع 1984 كان بول يعيد ترتيب أولوياته . فبفضل قوة العقود الصينية نهضت شركته وبدأت تتقدم من جديد . مع ذلك كان ما يزال يعيش في غرف الفنادق ويقضي نصف الوقت مسافراً . الشيء الوحيد الواضح هو أنه لم يكن يريد إقامة أي ارتباط شخصي مع بروكسل ، لم يكن يريد سيارة ، لم يكن يريد شقة . ولم يكن يريد أن تنتقل ميمي إلى هناك . أراد أن يكون حراً ، يأتي ويذهب كما يريد ، بدون أية روابط . قال بول لزوجته إنه ما يزال غير قادر على تقليص التزاماته التي تفرض عليه السفر ، وإنها إذا كانت في بروكسل قد يشعر بالذنب لتركها وحيدة . في مونتريال تكون محاطة بالعائلة والأصدقاء . كان يتجنب المسؤولية مضحياً ببيته لإشباع طموحه .

الآن ، كانت ميمي تزور بروكسل ثلاث أو أربع مرات في السنة ، وفي كل مرة تقضي ما بين أسبوعين وثلاثة . وكان بول قد بدأ يكرس عادة بالعودة إلى مونتريال لقضاء أعياد الميلاد أو قضاء عطلة الصيف هناك . ولكن في الغالب، كان يقضي ثلاثة شهور في السنة مع ميمي . التضحية كانت ثقيلة عليهما .

في تلك السنة قاما بشراء بيت صغير ، من ثلاث غرف ، على الطرف الجنوبي لإسبانيا ، بالقرب من جبل طارق ، ليكون مخبأهما . « لم يأخذ بول إجازة أبداً ، كان دائماً يعمل ويسافر » . تقول ميمي ، « الآن أصبح لدينا مكان نكون فيه لوحدنا معاً . كل عدة شهور كنا نمضي أسبوعين في إسبانيا . للمرة الأولى منذ زمن طويل جداً كان قادراً على الإخلاد للراحة . أحياناً نلعب التنس وطاولة الزهر . وأحياناً نسير على الميناء ونتطلع إلى الزوارق » .

ولكن حيثما ذهب ، كانت قضيتان تشغلان ذهنه ، الأولى ، الإدانة التي لحقت به من جراء مسألة جنوب أفريقيا ، التي أفقدته الاحترام في أميركا الشمالية . والآن بدأ يسعى للحصول على عفو . فقد أقنع نفسه أنه إذا أعيد النظر فيها بشكل مناسب ، من منظور سياسي معين ، يمكن رؤية أنه لم يرتكب أي جريمة وأنه كان ضحية لتغير سياسات واشنطن . وبوجود إدارة ريغان المحافظة في السلطة ، بدا أن العفو محتمل . القضية الثانية كانت تتعلق بجنسيته الكندية . ففي عام 1978 تقدم بطلب لتجديد جواز سفره الكندي ليبلغ بأنه لم يعد مواطناً كندياً بعد الآن ، وليعرف أنه بموجب القانون الكندي يحق للحكومة سحب الجنسية إذا تقدم كندي بطلب الحصول على جنسية بلد آخر عندما يكون مقيماً على أراضيها. وشخص ما في أوتاوا ـ لم يتمكن بول من معرفته أبداً ـ أراد تطبيق هذا الخيار . صحيح أن بول أصبح مواطناً أميركياً وأقسم اليمين أمام قاضٍ فيدرالي في بيت في فيرمونت ، لكنه عاد في الليلة نفسها ونام في منزله في كندا ، كما أنه لم يقم أبداً في الولايات المتحدة . كان بول مقتنعاً بأن قرار سحب جنسيته الكندية هو عمل انتقامي حقود . لأنه كان يعني أن يسافر بجواز السفر الأميركي وهو كان يكره ذلك . فالأميركيون هم الذين أرسلوه إلى السجن . فبدأ بتكليف محامين للتحقيق من إمكانية استعادته جنسيته الكندية .

في رحلته الأخيرة إلى أميركا الشمالية ، زار بول الجنرال ترودو ، الذي كان الآن يعيش في واشنطن . وقد وافق الجنرال على أن يسعى بول للحصول على عفو ، واقترح عليه رفع قضيته مكتوبة وكاملة بالوثائق الداعمة . وهذا ما فعله بول . حضّر ثلاثة مجلدات ، بلغ عدد صفحاتها 1169 صفحة ، تقريباً بحجم الأعمال الكاملة لشكسبير .

العمل على تحضير هذه المجلدات ، التي احتوت تفاصيل دقيقة وتطلبت تجميع رسائل وتقارير وعقود ووثائق عن مجريات المحاكمة ، شغلت بول كلياً . وعندما أنهاها ، في أيلول/ سبتمبر 1985 ، أصبح بول مهووساً بقضيته . من الآن فصاعداً لن يمر يوم دون أن يتكلم عنها بالعمق مع أحد العاملين لديه أو أحد أصدقائه في بروكسل . كل الاهتمامات الأخرى تراجعت أهميتها . نسخ عن المجلدات الثلاثة وصلت إلى أصدقاء وقيادات مؤثرة في الكونغرس والبنتاغون .

لكن الاهتمام كان ضئيلاً جداً أو معدوماً .

في هذا الوقت ، كان بول قد انتقل للسكن في غرفة في فندق أقرب إلى مكتب الشركة . كانت الغرفة كئيبة ، وفي أول زيارة لها وجدت ميمي أنها محبطة ولا تقدر على البقاء فيها ، حتى لفترة بعد الظهر فقط . في مكتب (SRC) أخبرها أحد المهندسين عن شقة للإيجار على مقربة من المكتب . في اليوم التالي ذهبت ميمي لرؤية الشقة . كانت في الطابق السادس من بناية متوسطة المستوى ، في مجمع سكني من ثلاث بنايات على جادة فرانسوا فولي ، في منطقة من بروكسل تُسمّى « أوسل » . أكثر ما أعجب ميمي بالشقة أنها كانت مشرقة وبهيجة ، إذ أحست بالانتعاش لمجرد وجودها بداخلها .

في تلك الليلة ، أقنعت بول بتفقد الشقة واستئجارها . وبقيت ميمي أسبوعاً إضافياً لشراء الأثاث والقيام بالهندسة الداخلية . وقد اختارت للأثاث ألواناً وردية برّاقة بهدف إضفاء مسحة ربيعية .

أطلق جيري مشروعاً شخصياً ، هذه المرة لإشباع هواه . فقد بدأ العمل على كتاب حول مشروع (HARP) وبناء أكبر مدافع في التاريخ . وهو الموضوع الذي كان هواه المهني الأول ، وسرعان ما كان يقضي معظم وقته عليه . أصبح مفتوناً بـ « مدافع باريس » التي استخدمها الألمان عام 1918 لقصف باريس من مسافة تقارب 120 كلم . لا شيء تقريباً كان معروفاً عن هذه المدافع ، التي دُمرت من قبل الإلمان بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة ، فبدأ سلسلة أسفار غير عادية ، باحثاً في أنحاء أوروبا عن أي معلومة حول هذه المدافع ، قاطعاً آلاف الكيلومترات إلى المتاحف وبيوت المتقاعدين في ألمانيا الغربية حيث وجد مهندسين كان قد عملوا على المبادىء العامة لهذه المدافع ، وأخيراً وظّف باحثاً متفرغاً يتكلم الألمانية . وعندما جمع الملفات والمخطوطات عن الرسوم والتصاميم الهندسية المنسية منذ زمن طويل ، أعاد خلق المدافع على الورق باستخدام اختبارات مفصلة بواسطة الكومبيوتر لتحليل أدائها .

استدعى بول صديقه القديم شارلز مورفي ، الذي كان ما يزال يعمل مع الجيش الأميركي ، وعهد إليه بحسابات أكثر تعقيداً تخص هذا العمل. كان بول

سيقوم بالجزء الأكثر من التحليل والكتابة لكنه أراد أن يكـون اسم مورفي على غلاف الكتاب إلى جـانب، اسمه . لم يكن السبب ، أن بـول أراد المزيـد من « البرستيج » بقدر ما كان يريد أن يشكر مورفي على دعمه وصـداقته لـه خلال الأوقات الصعبة . وقرر بول أن يدمج قصة مدافع باريس وقصة مشروع (HARP) في كتاب واحد .

على مدى السنوات القليلة المقبلة ، وبعدما أعاد بول النظر في مشروع (HARP) واحتمالاته ، أصبـح أكثر اقتنـاعاً من ذي قبـل بأن مـدفعاً مصنـوعاً خصيصاً ـ ليس مدفع البحرية القديم الـذي حُوّل لاستخـدامه في (HARP) ـ يمكن أن يكون قادراً على إطلاق أقمار متـوسطة الحجم ، ذات فـائدة علميـة كبيرة . أكثر من ذلك ، إن هذا المدفع ، بعد الانتهاء من صنعه ، قد يكون قادراً على القيام بعمليات إطلاق بكلفة 5 آلاف دولار للعملية الواحدة ، أي جزء بسيط من كلفة الإطلاق بواسطة صاروخ . الآن أصبح بول أكثر حماساً لبناء مدفع يطلق أقماراً اصطناعية ، من أي وقت مضى .

كان منهمكاً في عمله على الكتاب ، وكانت آماله قوية بـالحصول على عفو ، في أواخر عام 1985 ، عندما تلقى بول دعوة مفاجئة . فقد طُلب منه تقـديم محـاضـرة حـول مشـروع (HARP) في مؤتمـر علمي سـري حـول الاستعمالات العسكرية للمدفع العملاق . المؤتمر الذي يستمر يومين ، والذي سينعقد في 4 و 5 تشرين الثاني / نوفمبر في ايرلينغتون ، فيرجينيا، وينظمه مكتب التكنولوجيا الاستراتيجية التابـع لوكـالة مشـاريع الأبحـاث الدفـاعية المتقـدمة (DARPA) في البنتاغون . طلب بول من بالاسيو مرافقته ، واعتبر أن الدعوة ترحيب غير رسمي بعودته إلى داخل حرم المؤسسة العلمية العسكرية الأميركية .

في هذا المؤتمر ستقدم خمس أوراق فقط ، وسيحضر اثنان وعشرون عالماً فقط ، بمـا فيهم بول وبـالاسيو ومـورفي . ولم تكن هناك أي إشـارة لجنـوب أفريقيا ، وقد عومل بول كعالم متميز .

افتتح المؤتمر د. فريد كويل ، من مكتب الأبحاث البحرية في بوسطن . الذي كشف في كلمته أنه خلال السنـوات الخمس عشرة منـذ انتهاء بـرنامـج

(HARP) توفرت معدات توجيه متطورة قادرة على تحمل قوى الجذب العالية لإطلاق المدفع . وقال إن هذه المعدات يمكنها تحقيق درجة توجيه بدقة لم تكن معروفة من قبل ، ويمكن وضعها داخل قذائف تطلق من مدافع كبيرة ، بما يوفر « إمكـانية إيصـال حمولات عبـر القارات أو وضعهـا في المدار بتكاليف ملفتة للغاية » . ثم حدد ، للمرة الأولى ، الهدف الحقيقي لما أسماه « هذه الورشة » فقال إنها نُظّمت « لمعرفة كيف يمكن استغلال هذه التكنولوجيا الجديدة بأفضل طريقة ، وأيضاً لفهم ضوابـطها وتحـديد أهم الأهـداف العسكريـة التي يمكن تطبيقها وترسيخ مسار تكنولوجي متين لتحقيق هذه الأهداف » .

اثنان من علماء (DARPA) ، د . آل برانديشتاين ود. شيرمـان كارب ، قالا إن جهازاً بحجم علبة الدخان تقريباً قد تم تطويره بحيث يمكن وضعه داخل مقذوف يطلق من مدفع عيار 155 ملم . ثم يقوم هذا الجهاز بتوجيه المقذوف مباشرة إلى أي هدف ثابت على مدى 25 كلم . الآن كانوا يسألون بول ما إذا كان هناك جدوى من محاولة تطوير جهاز مشابه لتوجيه مقذوفات تطلق بواسطة مدافع إلى مسافة ألف كيلومتر أو أكثر . المهمات المحتملة لمثل هذه المقذوفـات ، على حد قولهم ، يمكن أن تتضمن شن هجمات بعيدة المدى ضد مستودعات أو مراكز قيادة أو مطارات . أما بالنسبة للجانب المدني ، فإن هذه المقذوفات يمكن استخدامها ، حسب اقتراحهم ، لإيصال التموين إلى محطة فضائية في المدار .

كانوا يتكلمون عن حلم بول . ومع ذلك ، وبينما كان يمشي باتجاه المنصة لإلقاء كلمته ، كان صديقه القديم بالاسيو قلقاً . على مدى سنتين راقب بالاسيو صديقه بول يقوم بعروض وهو يحاول بيع دول الناتو أنظمة مدفعية دون أن ينجح . يتذكر بالاسيو : « خسر بول الكثير من السحر ، بسبب مسألة جنوب أفريقيا . محاضراته وعروضه أصبحت مملة . لم أعتقد أنه سيثير إعجاب الأميركيين » . لكن فجأة كأنما عاد إلى الحياة من جديد . أطلق العنان لمخيلته لتحلق عاليـاً مطمئناً علماء البنتاغون أن المدى العابر للقارات يمكن تحقيقه بواسطة المدافع ، وأنه بالفعل يمتلك التكنولوجيا اللازمة لوضع حمولة في المدار .

قـال لـ (DARPA) إنهم إذا كان بـإمكانهم تـأمين جهاز تـوجيه ، فـإن بإمكانه توفير الخبرة البالستية لبناء مدفع عملاق ومقذوفات . وأظهر لهم صوراً

لصواريخ مارتليت التي بناها لـ (HARP) . وقال إن بإمكانه صنع المقـذوفات الجديدة على أساس تصاميم هذه الصواريخ . وأنهى كلمته مقترحاً أن يـدرس البنتاغون فكرة بناء مدفع عملاق يمكن أن تكون فوهته بقطر متر واحد وسبطانته بطول 150 متراً تقريباً .

كان أفضل عرض قدمه بول على الإطلاق . « كنت فخوراً جداً به » يقول بالاسيو . « الكل تأثروا للغاية . كان يقدم أفضل ما عنده عندما يعمل على الحد القاطع للعلم » .

طلبت (DARPA) من بول تقديم اقتراح رسمي لبناء مدفع عملاق يكون قادراً على إطلاق حمولات عبر المحيطات . فقدم الاقتراح في مطلع 1986 ، وظن بول أن المسألة لن تحتاج لأكثر من شهور قليلة قبل أن يستدعيه البنتاغون ويكلّفه بإنتاج المدفع العملاق . تلقى بول إشعاراً من (DARPA) باستـلامها الاقتراح وبأنه موضع دراسة . لكن الأمر انتهى عند هذا الحد . وُضعت الفكرة على الرف . « أظن أنهم كانوا يبحثون عن شيء أكثر تقنياً من مدفع بارود . كانوا يفكرون بأنظمة دفع أخرى » . يقول مورفي .

كان بول يقضي أوقات راحته بالقراءة دائماً ، وعندمـا غاص عميقـاً في الكتاب الذي يعده ، أخذ يركز على كتب تاريخ الحـربين العالميتين . خـلال زياراتها إلى بروكسل كانت ميمي ترى هذه الكتب مكدسة فوق بعض في الشقة الجديدة . وهي تتذكر : « قال إن على كل شخص أن يقرأ حول الحـروب ، ليعـرف بالضبط كيف يكـون السيـاسيـون الأغبيـاء ، وليكـون قـادراً على فهم الأهوال . قال إنه لو عرف كل شخص كم كانت الحرب مريعة لما كان هنـاك المزيد من القتال . وقال إن الناس قد يتوقفون عن ارتكاب الأخطاء نفسها » .

في هذا الوقت ، بدأ بول يمارس هواية جديدة . بدأ يستأجر سيارة خلال العطلات الأسبوعية ويقود باتجاه مـدافن ضحايـا الحرب على مسـافة سـاعتين بالسيارة غرب بروكسل . أصبح خبيـراً بساحـات القتال ، يعـرف بالضبط أين حدثت الاختراقات والهجمات العسكرية العنيفـة التي تم صدهـا . لكنه كـان يمضي معظم وقته وهو يمشي بين الصلبان البيضاء، وهو يقرأ بصوت عالٍ أسماء

وأعمار الجنود الموتى « يا إلهي » قد يقول لأي شخص يكون بجانبه « إنه ولد في السابعة عشر . أتساءل مَنْ يتذكره الآن » . وبعد أن يقضي ساعتين في قراءة الأضرحة تكون الدموع قد ملأت عينيه ، فيكون وقت العودة إلى البيت .

كيف لرجل يكره منظر الدم ويبكي على أضرحة ضحايا الحرب ، أن يعمل في ميدان تطوير آلات الحرب ؟ إنه جانب آخر من شخصية د. بول المعقدة والمتناقضة . قال مرة لابنه ميشيل إن الدفاع هو عمل صحيح وواجب . فالبشرية كانت دائماً من الأجناس المحاربة . الموت هو نفسه إنْ بحجر يرميه رجل كهف أو بانفجار نووي . لكن السلاح ليس المشكلة ، قد يقول بول ، المشكلة هي في الرجال خلف السلاح .

ميشيل أصبح مقتنعاً في أعماق نفسه أن والده ليس سعيداً بعمله في مجال الدفاع . كانت شركته (SRC) حلاً مؤقتاً على الدوام لتجميع ما يكفي من مال للعودة إلى مشروع (HARP) .

مع اقتراب نهاية 1985 كان الجزء الأساسي من العقد الصيني قد أوشك على الانتهاء ، وكانت بكين راضية جداً على العمل الذي أُنجز . فقد منح مدفع بول الصينيين الثقة بالنسبة للوضع على حدودهم الطويلة مع الاتحاد السوفياتي ، مما شجعهم أكثر على التقاط فرصة السلام مع موسكو . لكن حنفية العقود الصينية كانت قد نضبت ، وأصبحت (SRC) بحاجة لمصدر جديد للدخل . حاولت الشركة اقتحام السوق المصرية ـ كانت القاهرة تبحث عن مدفعية جديدة ـ لكنها فشلت . لكن الحظ كان أفضل مع يوغسلافيا وإسبانيا . فقد تم توقيع عقد كبير مع الشركة الإسبانية (Explosivos Rio Tinto) لتصميم قطعة مدفعية أطلق عليها لاحقاً اسم (FGH- 155) . بالأساس كان المدفع الإسباني شبيهاً بالمدفعين ، النمساوي والجنوب أفريقي ، لكن بول أعاد تصميمه لتقليص عدد الأجزاء المتحركة بنسبة 30 بالمئة . « كلما كان المدفع أبسط كلما كانت هناك أخطاء أقل وكلما طالت فترة استخدامه » قال بول .

بالنسبة ليوغسلافيا ، قام بول بتوفير تحاليل وحسابات سمحت للجيش



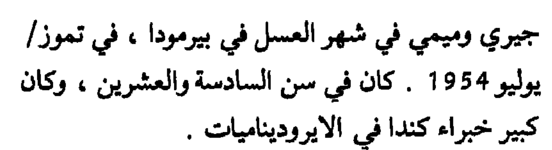
صورة التقطت عام 1907 في نورث باي ، وهي تظهر جيرترود والدة جيري ، جالسة على الكرسي . كانت في الرابعة عشرة من العمر ، أي قبل أن تتزوج بسنتين . إلى يمينها أختها فلورنس ، التي توفيت في العام التالي نتيجة إصابتها بالتهاب الزائدة . إلى شمالها ، واقفاً أخوها ميلتون ، وجالساً أخوها فيليب (العم فيل) .

جيري بول في سن العاشرة ، في خريف 1938 ، قبل بدء الفصل الأول في كلية ريجيوبوليس ، في كينغستون ، أونتاريو .







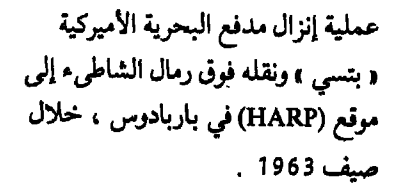


جيري وميمي في شهر العسل في بيرمودا ، في تموز/ يوليو 1954 . كان في سن السادسة والعشرين ، وكان كبير خبراء كندا في الايروديناميات .

العمة أديث والعم فيل خلال حفل زواج جيري وميمي في كويبك سيتي ، تموز/ يوليو 1954 .



جيري بول الطالب في جامعة تورونتو عام 1948 .

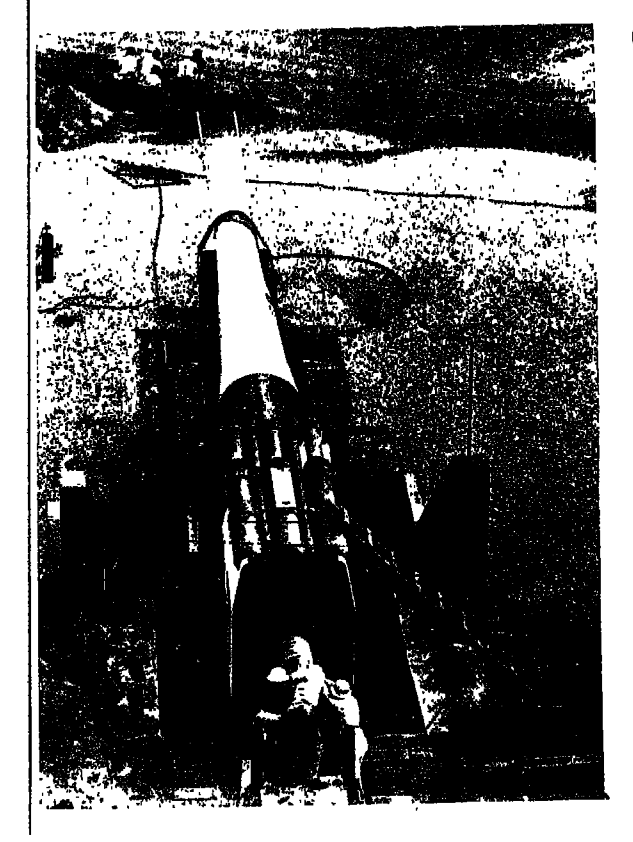


عملية إنزال مدفع البحرية الأميركية « بتسي » ونقله فوق رمال الشاطىء إلى موقع (HARP) في باربادوس ، خلال صيف 1963 .

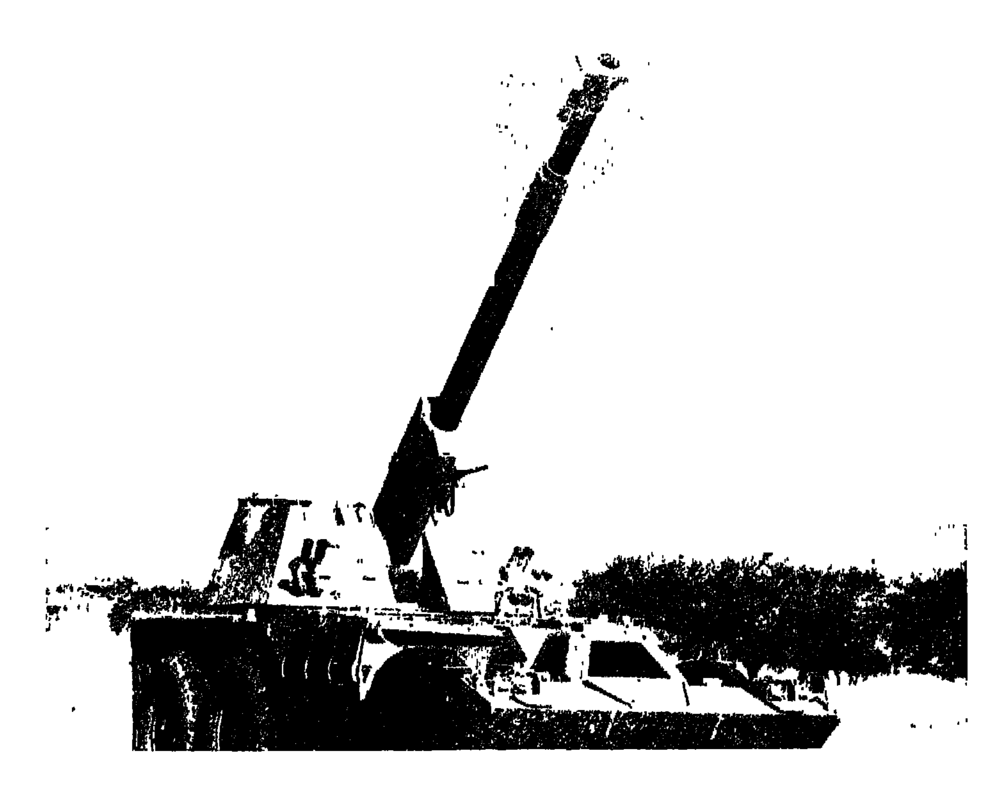


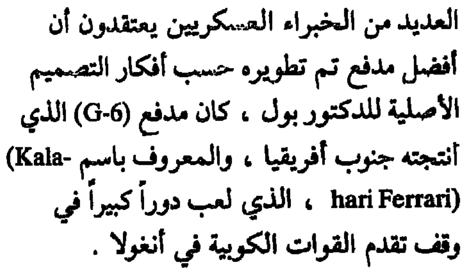
د. بول يأخذ استراحة خلال اختبارات على المدفع ، عام 1965 ، في إطار مشروع (HARP) في باربادوس .

د. بول يتكلّم على الهاتف في مقر قيادة (HARP) في باراغون هاوس . وهو يجلس أمام لوحة المراقبة في ليلة سبقت إجراء اختبار إطلاق مهم في أواسط الستينات .



مدفع « بتسي » منصوباً في موقعه ، في باربادوس .





العديد من الخبراء العسكريين يعتقدون أن أفضل مدفع تم تطويره حسب أفكار التصميم الأصلية للدكتور بول ، كان مدفع (G-6) الذي أنتجته جنوب أفريقيا ، والمعروف باسم (Kala-hari Ferrari) ، الذي لعب دوراً كبيراً في وقف تقدم القوات الكوبية في أنغولا .



مدفع د. بول ، عيار 210 ملم ، ذاتي الحركة المعرف باسم « الفاو » ، كما ظهر خلال معرض بغداد الدولي للإنتاج العسكري في أيار/ مايو 1989 ، لم يسمح للزوار بالاقتراب من المدفع ، الذي وصف بأنه أكبر قطعة مدفعية متحركة في العالم . لكنه لم يكن منتهياً كلياً ، وكان سيحتاج إلى خمس سنوات أخرى بعد أن يبدأ انتاجه .



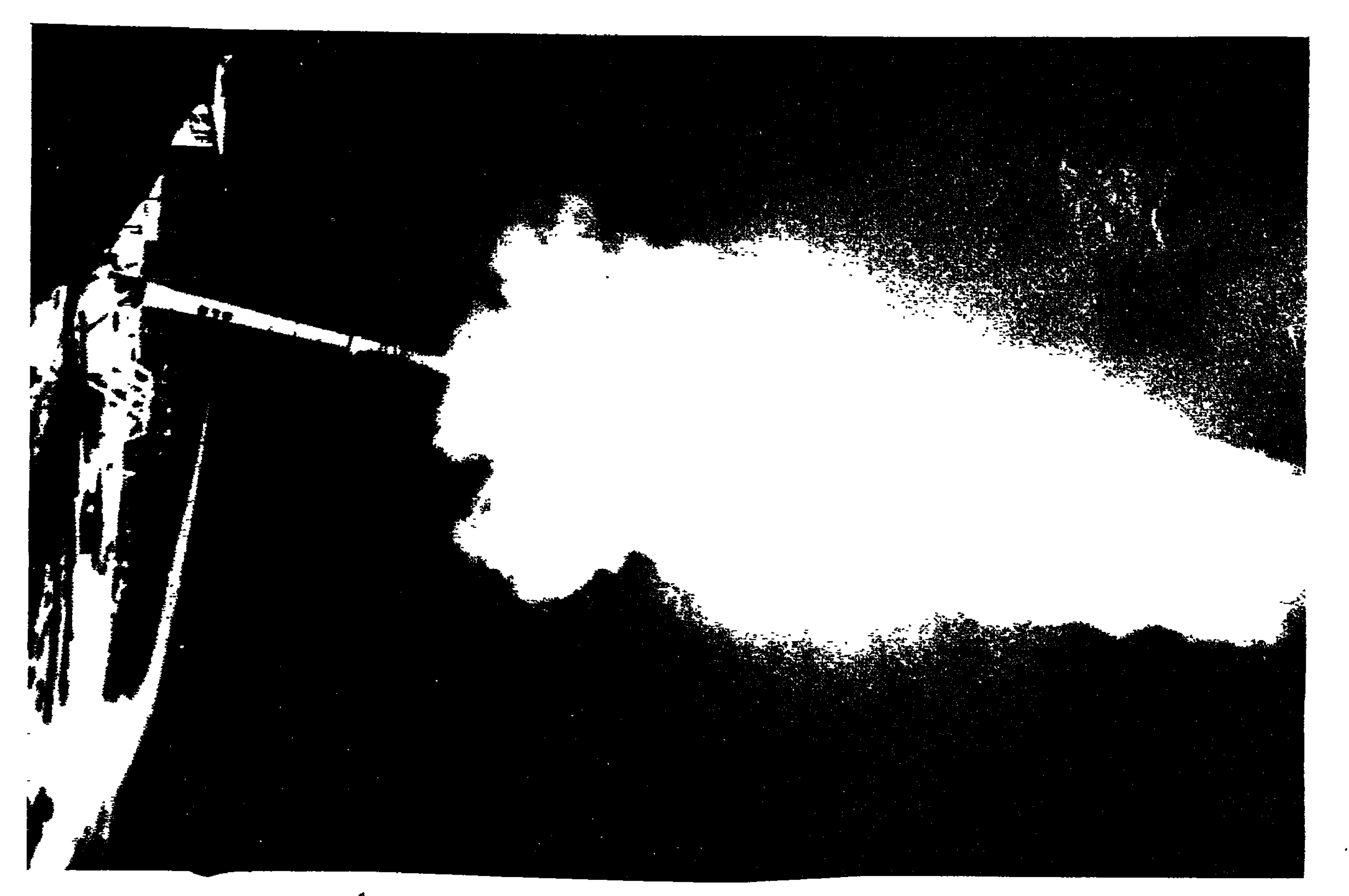
ميمي وجيري خلال مأدبة جامعية في بكين عام 1985 . لم يكن جيري يقوم بتصميم مدفع جديد للصينيين فقط ، بل كان يلقي سلسلة محاضرات حول البالستيات للطلبة المتخرجين .



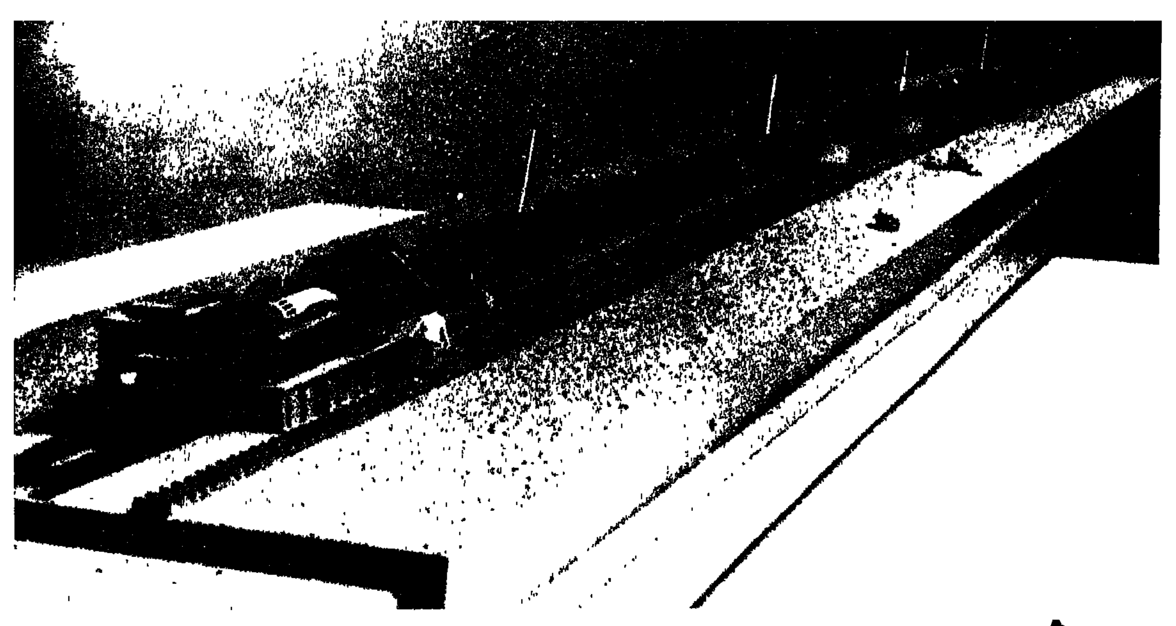
ميمي تسير وراء نعش زوجها في مونتريال ، في نيسان/ إبريل 1990 .



إحدى الصور الأخيرة التي التقطت لجيري بول ، ويظهر فيها خلال تناول العشاء مع ميمي في نيو أورليانز ، في شباط/ فبراير 1990 خلال احتفالات « ثلاثاء المرفع » . سيتم اغتياله بعد شهر .

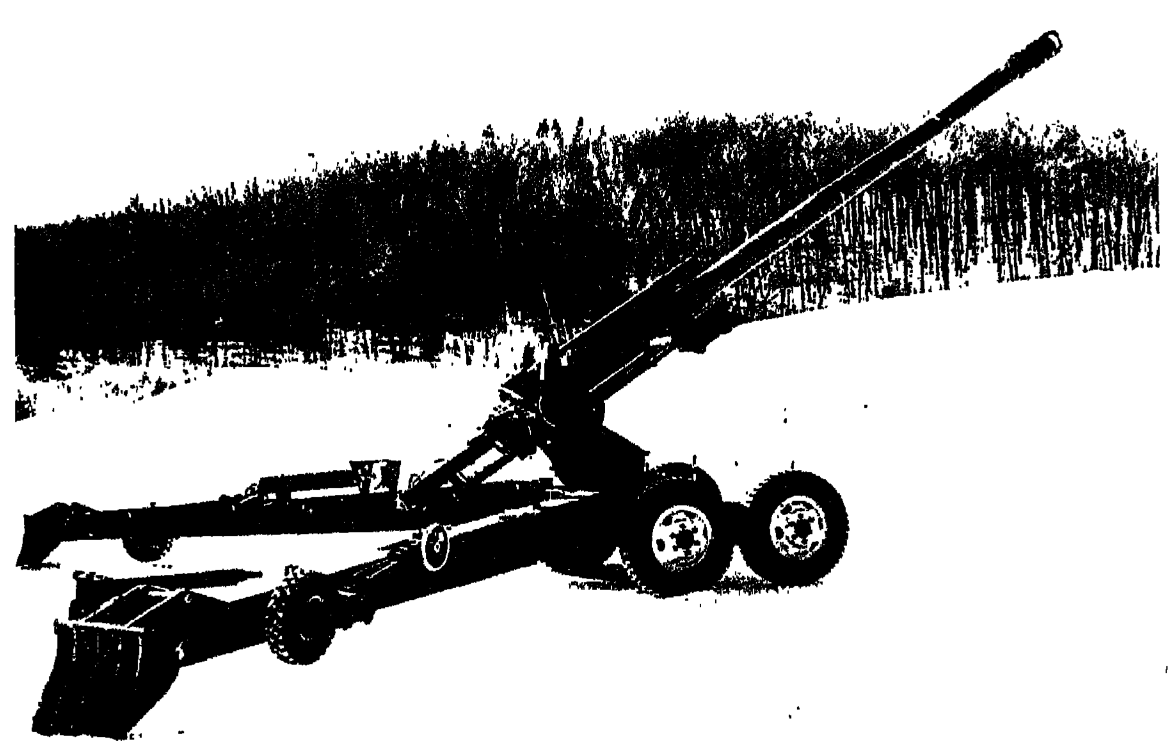


بتسي يطلق صاروخ مارتليت في سماء باربادوس المعتمه ، مطلع 1963 . لاحقاً تمت زيادة طول السبطانة . فأصبح ضعفي الطول الأصلي .



نموذج مشروع بابل الذي عرض في معرض بغداد الدولي للإنتاج العسكري في أيار/ مايو 1989 .

المدفع الأصلي للدكتور بول (GC- 45) الذي تم تصميمه وتطويره في مجمع (SRC) في هاي ووتر ، كـويبك ، في أواخـر السبعينات . هـذا هو المـدفع الـذي بدأ ثـورة في عالم المدفعية .



اليوغسلافي بتعديل ما لديه من مدافع سوفياتية قديمة من طراز M46 ، عيار 130 ملم ، لتصبح قادرة على إطلاق ذخائر 155 ملم غربية الصنع . وقد تم ذلك عن طريق إبدال سبطانات المدافع السوفياتية بسبطانات غربية الصنع بقطر داخلي - 45 ، مما أدى إلى زيادة دراماتيكية في مدى المدفع عند استخدام قذائف بول ذات « القاعدة النازفة » .

في هذا الوقت ، كان ستيفن قد تخرج من جامعة لاڤال ، كلية هندسة الكهرباء ، فانضم إلى الشركة في بروكسل . كان ستيفن عصبياً وغير واثق من نفسه وغير مدرب على الإدارة ، لذا سرعان ما أصبح غير محبوب من قبل العاملين . وفي حين كان ميشيل يتمتع بخبرة مالية ودبلوماسية فطرية - ميزتان كانتا (SRC) بأمس الحاجة إليهما - كان ستيفن مجرد ابن الرئيس ، بدون أي دور حقيقي في الشركة .

وكان كلما بذل جهده أكثر كثرت أخطاؤه . بول لم يكن صبوراً ، وكان يمكن أن يصرخ على ستيفن أمام العاملين . وقد أدى ذلك إلى انخفاض معنويات العاملين وإلى قدر كبير من المشاكل العائلية . لكن ذلك لم يكن عادلاً ، لأن ستيفن في الحقيقة كان عاملاً دؤوباً متحفزاً لتعلم المهنة ومساندة والده .

أخيراً أصبح ستيفن يقوم، إلى حد ما، بدور نائب ميشيل. وكان أمام الأخوين مسألتين أساسيتين . الأولى ، محاولة ضبط الميزانيات واستلام زمام المفاوضات المالية في عقود العمل . وفي أحسن حال لم يتمكنا من تحقيق نجاح كامل ، لأن والدهما كان يملك حق الوصول إلى دفاتر شيكات الشركة فكان ينفق بحرية ، من حسابات العقود ، على أبحاثه الشخصية المتعلقة بالكتاب الذي يعده عن مشروع (HARP) والمدافع الكبيرة في التاريخ . وفي النهاية ، كان الزبائن يريدون التعامل مباشرة مع بول . كانت له سمعة أسطورية في بلوغ النتائج . ولعل الأهم من ذلك ، أن الزبائن كانوا يعرفون أنهم يستطيعون التحدث معه بخصوص كل شيء تقريباً .

المسألة الثانية التي شغلت ميشيل وستيفن كانت القانون الدولي ، حظر الأسلحة والإصرار الأميركي المستمر بأن بعض التكنولوجيات الأساسية

لـ (SRC) قد تم تطويرها في الولايات المتحدة ، وبالتالي خاضعة لأنظمة نقل التكنولوجيا الأميركية .

د. بول كان قد ضاقَ صدره كلياً من واشنطن ، ولم يرَ ما يدعو لاستشارة وزارة الخارجية حول كل عقد . لكن ولديه أصرا على ضمان عدم تكرار قضية جنوب أفريقيا . وقد أدى ذلك إلى الكثير من الاحتكاك بين أفراد طاقم الشركة ، وفي منتصف 1988 كان الطاقم قد انقسم بين معسكرين ـ الذين يدعمون بول ويؤيدون أساليبه الحرّة والذين يدعمون ولديه ويؤيدون إصرارهما على العمل وفق ضوابط .

هذا الانقسام ازداد حدة مع نقص المداخيل المالية . كانت العقود الصينية قد انتهت تقريباً ، برغم أن بول كان قد اقترح طرازاً جديداً من المدفعية عيار 203 ملم ذاتية التلقيم ، وقد بدا على بكين الاهتمام . العمل لليوغسلافيين كان قد أُنجز والعقود الإسبانية في مراحلها النهائية . كانت هناك أعمال صغيرة الحجم ، لكن كان لا بد من تأمين زبون كبير بأسرع وقت . في منتصف 1988 عجزت الشركة عن دفع رواتب شهرين لكبار موظفيها . « كنا نعيش بحالة إفلاس » تتذكر مونيك جاميني . « لكن كان يحدث أن يصل شيك كبير من مكان ما ، فيحصل الجميع على مستحقاتهم ، وكان يمكن أن تقام حفلة بالمناسبة . كنا أشبه بعائلة . لم يكن أحدنا قادراً على توقع حصوله على راتبه في نهاية الشهر ، لكن د. بول كان أشبه بالبابا الكبير وكان الموظفون مستعدين لفعل أي شيء من أجله » .

في (PRB) كانوا يسمّون (SRC) بـ « البروفسور وتلامذته » ، وكان هذا التصوير يفرح بول . أحب فكرة كون (SRC) مركزاً للتعلم ، نوعاً من جامعة لتعليم البالستيات . مع ذلك ، لاحظ العاملون أن أطباعه ازدادت سوءاً مع انتهاء السنة . محاولاته الحصول على عفو وصلت إلى حائط مسدود . والأكثر إزعاجاً أنه كان قد بدأ يسمع شائعات عن أن البنتاغون قرر المضي قدماً لتنفيذ أفكاره حول المدفع العملاق لكن دون إشراكه هو بالعمل . وحسب الشائعات فإن العمل بدأ فعلاً في « مختبرات لورنس ليفيرمور » ، في كاليفورنيا ، على مدفع يمكن استخدامه لوضع حمولات في المدار . كان الآن يواجه الاحتمال المرّ بأن يُهزم

في مشروعه الخاص . الأميركيون اختاروا العمل على مدفع متطور جداً يعمل بقوة الغاز ، بدلاً من مدفع البارود الذي اقترحه بول ، لكن المبدأ هو نفسه .

خلال الأسبوع الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر 1987 ، واجه عامل السنترال في (SRC) صعوبة في التفاهم مع مكالمة خارجية . أصر المتصل ، بتهذيب ، على التحدث مع د. بول ، لكن عامل السنترال ، وحسب التعليمات المعطاة إليه ، قال إن عليه الحصول على موعد ، عندها طلب المتصل التحدث مع المساعد الشخصي لبول ، فحولت المكالمة إلى مونيك جامينى . عرّف المتصل عن نفسه ، بأنه مسؤول رسمي لدى الحكومة العراقية ، ومركزه في سفارة العراق في بون . وقال إنه يريد دعوة د. بول لزيارة العراق . مونيك ، التي كانت تعرف جيداً حاجة الشركة لأعمال جديدة ، حوّلت المكالمة إلى ميشيل .

أوضح ميشيل أنه قد يكون مستحيلاً على (SRC) المساعدة في أي عمل له علاقة بالسلاح ، ما دام العراق في حرب مع إيران . المسؤول العراقي أبدى تفهمه ، لكنه قال إن الوقت قد حان لتأسيس قاعدة لعمل مستقبلي ، عندما تنتهي الحرب . ميشيل ، مدركاً كيف سيثب والده لالتقاط هذه الفرصة ، قال إنه بحاجة لبحث الاحتمالات بعمق أكثر قبل أن يشارك د. بول شخصياً بالاتصالات . عندها دعا المسؤول العراقي ميشيل لزيارة بون . وبعد أسبوع كان ميشيل وستيفن يستقلان الطائرة إلى ألمانيا لبدء أول اتصال مع العراقيين منذ 1982 .

كانا يدخلان في الشباك الذي نشره صدام حسين فوق كل أوروبا ، بهدف الإمساك بنوع التكنولوجيا الذي يحتاجه لتزعم العالم العربي وتحدي إسرائيل والولايات المتحدة في الشرق الأوسط .

الجزء السادس

القوة تحكم العالم

14

في أيلول/ سبتمبر وقبل أسبوع تقريباً من دخول بول إلى السجن ، قامت قوات عراقية بغزو خوزستان ، وهي مقاطعة إيرانية غنية بالنفط لم يكن أهلها الناطقون بالعربية راضين بالنظام الديني الذي يقوده آية الله الخميني . كان صدام يدعم ثوار خوزستان بالسلاح ، وادّعى أن هذه المقاطعة ، التي تقع على طول الحدود الشرقية لبلاده مع إيران ، هي أراض عربية سُرقت قبل سنوات .

تحرك الإيرانيون لاستعادة أراضيهم بمقاومة أقوى مما توقع العراقيون ، وفي غضون أيام تحولت الصدامات إلى حرب شاملة .

في الوقت الذي كان بول قد بدأ يتكيف مع أوضاع السجن ، كانت الطائرات العراقية تغير على عبادان ، وهي مركز إيراني ضخم لتكرير النفط ، في حين كانت صفوف الجنود العراقيين تتقدم محتمية وراء الدبابات والمدفعية الثقيلة منصوبة في ضواحي المدينة . وفي 4 تشرين الثاني/ نوفمبر هُزم جيمي كارتر في الانتخابات الرئاسية على يد رونالد ريغان ، فاحتفل بول بهذه المناسبة بشرب نخب هزيمة كارتر مستعملاً كأس ماء ، في الوقت الذي أعلنت موسكو وواشنطن الحياد في النزاع الأخير .

كان الاتحاد السوفياتي ، تحت قيادة بريجنيف ، قد قام بغزو أفغانستان قبل تسعة شهور فقط ، ولم يكن الجباران في مزاج مناسب للتعاون لإنهاء القتال في

إيران . وفي الحقيقة ، أنه عندما بدا واضحاً أن إمدادات النفط لن تتأثر كثيراً ، رأت واشنطن بعض الفوائد في استمرار المواجهة بين جيشي إيران والعراق .

في مطلع 1981 ، ومع إطلاق سراح بولْ ، تبنت إدارة ريغان سياسة « رفع اليد » حيال الحرب العراقية ـ الإيرانية . وأخذ مسؤولون كبار يبدون ارتياحهم ، في السر ، لرؤية بلدين « مبغوضين جداً » يدمر الواحد قدرات الآخر . الدول الغربية حذت حذو واشنطن وحظرت بيع الأسلحة للطرفين . على أي حال ، فإن تجارة الأسلحة لا تخضع لأي قانون ، وعندما بدا أن الحرب ستكون دامية وطويلة ، مع استخدام إيران « الموجات البشرية » من الجنود اليافعين لمهاجمة مواقع عراقية ثابتة ، لم يكن هناك أي نقص بالتموين أو بالممونين .

في ما سيعرف بفضيحة « إيران ـ غيت » قام أفراد من إدارة ريغان ببيع أسلحة إلى إيران ، بشكل سري وغير شرعي ، في محاولة فاشلة لتحرير رهائن أميركية تحتجزها عناصر مؤيدة لإيران في لبنان . وقامت جنوب أفريقيا ببيع مدفعها (G-5) ـ المصنوع استناداً لتصاميم بول ـ إلى كل من إيران والعراق مقابل النفط الذي تحتاجه جداً . وبالفعل فإن النفط الذي حصلت عليه بريتوريا ساعدها في تخزين كميات ضخمة من الوقود مكنتها من تجاوز الصعوبات التي واجهتها مطلع الثمانينات عندما قويت حركة مناهضة التمييز العنصري وتم فرض مقاطعة أكثر تشدداً من ذي قبل . وفي الوقت نفسه ، زُعم أن (Voest-Alpine) تقوم ببيع النماذج التي تصنعها من مدفع بول إلى الطرفين . وبعد خمس أو ست سنوات من الحرب كان لدى إيران 500 مدفع من نماذج مدفع بول وقُدّر أن لدى العراق حوالي 400 مدفع مشابه .

كان لهذه المدافع تأثير مميز خلال القتال . فبما أن البلدين لم يكونا يملكان قوة جوية فعالة ، فقد تحولت الحرب إلى حرب برية شهدت تحريكاً مكثفاً لقوات المشاة . المدفعية كانت حيوية للطرفين لدحر وصد تقدم القوات المعادية . وقذائف بول، بمعدل تشظيها العالي، أثبتت عن قدراتها القتالية في تلك الأجزاء من الأراضي الحدودية ، المنبسطة والتي تشبه الصحراء حيث يتحرك الجنود بدون أي غطاء . إنه ذلك الاختبار لمدافع بول ، الذي منح لاحقاً صدام حسين الثقة لتحدي جيوش الحلفاء بعد غزوه الكويت في آب/ أغسطس

1990 . ذلك أن المدافع التي بحوزته كانت متفوقة ، بكل الجوانب ، على كل تلك الموجودة في الترسانة الغربية . كانت أكبر ، قادرة على الإطلاق لمدى أبعد ، أسرع ، أكثر دقة وذات قدرة قتل أكبر . لكن ، وكما نعرف الآن ، كانت قدرة التحالف التي حُشدت ضد صدام كبيرة إلى حد أن الفرصة لم تتح له لاستخدام أفضل ما لديه من مدفعية خلال حرب الخليج .

على عكس جنوب أفريقيا وبلجيكا ، كانت النمسا تفرض قيوداً مشددة على صفقات الأسلحة ، بينها قانون يمنع كلياً بيع أسلحة لبلد في حالة حرب . عام 1986 استدعت وزارة الخارجية الأميركية سفير النمسا ، توماس كليستيل ، لمدة لم تتجاوز عشر دقائق ، لتقدم له دليلاً من (CIA) يتضمن صوراً التقطتها أقمار اصطناعية ، بأن المدفع (GHN-45) قد بيع لإيران والعراق . لم يُتخذ أي تدبير، مع أنه لاحقاً، عام 1986 ، أظهر تحقيق أجرته الحكومة النمساوية أن ، ما بين 1985 و 1986 ، حوالي 110 قطعة مدفعية و 41 ألف قذيفة قد تم بيعها من قبل (Voest- Alpine) إلى إيران ، وبلغ ما باعته إلى العراق ، ما بين 1981 و 1983 ، حوالي 100 مدفع (GHN- 45) هاوتزر . كان مدراء الشركة النمساوية قد تملصوا من قانون الحياد بشحن الأسلحة عبر بلدان ثالثة ، بينها ليبيا ، مع معرفتهم الأكيدة بالجهة الأخيرة التي ستصلها الأسلحة . وساد في النمسا اقتناع عام بأن ستة من كبار السياسيين كانوا وراء الأمر ، لزيادة عائدات الدولة من خلال إجازة صفقات البيع . ولاحقاً سيقول المدعي العام النمساوي سيغفريد سيتينثالير : « مع هذه الأسلحة باعت النمسا شرفها » .

لم يكن لبول أي دور في بيع المدافع لأي طرف ، لكنه كان يتتبع بانتباه أخبار الحرب في مدها وجزرها . أحزنته خسارة الأرواح ، وأحس أن هناك تشابهات مباشرة مع الحرب العالمية الأولى . ومع ذلك ، وبرغم المزيد والمزيد من الضحايا لم يشعر بأية مسؤولية . كانت المدافع المصنوعة وفق تصاميمه تمزق أجساد المئات ، إن لم نقل الآلاف ، إلى أشلاء ، لكنه قال لاحقاً : « لست مسؤولاً أكثر من ذاك الشخص الذي صمم الشاحنات التي تحمل الجنود إلى الجبهة » .

في 7 حزيران/ يونيو 1981 ، بعد حوالي تسعة شهور على نشوب

الحرب ، قامت مقاتلات إسرائيلية من طراز « ف ـ 4 فانتوم » ، مزودة بأسلحة دقيقة تعرف باسم « القنابـل الذكيـة » ، بتدميـر المفاعـل النووي « أوزيـراك » الموجود على بعد 20 كلم جنوب بغداد ، مما أدى ، حسب قول إسرائيل ، إلى إعاقة خطط صدام لإنتاج أسلحة نووية ، في حين ادعى العراق أن المفاعل كان لأغراض سلمية فقط . وقد لقيت الغارة الإسرائيلية إدانة دولية ، وأدت إلى توتر العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة ، على الأقل لأن إسرائيل استخدمت طائرات حصلت عليها من الولايات المتحدة . لتنفيذ الغارة .

بالتأكيد لم يكن رئيس وزراء إسرائيل ، مناحيم بيغن ، نادماً على الغارة . إذ بعد يومين ، قال إنه في حال قام العراق بإعادة بناء مفاعل نووي قادر على إنتاج أسلحة ذرية ، فإن إسرائيل قد « تستخدم كل ما لديها من إمكانيات لتدمير ذاك المفاعل » . وقال إن إسرائيل لن تتسامح مع أي بلد عدو يقوم بتطوير أسلحة تدمير شامل بهدف استخدامها ضد إسرائيل ، وإن الغارة قد نُفذت على أساس « الحق المشروع للدفاع عن النفس » .

تموين العراق من اليورانيوم المشبع ، حوالي 12 كلغ، حصل عليها من فرنسا ، لم يتضرر خلال الغارة . صدام ، الذي ثار غضبه ، كلف علماءه بإيجاد طريقة أخرى لصنع أسلحة نووية . ما كان يحتاجه هو نظام حربي مخيف إلى درجة لا تجرؤ معها إسرائيل على تكرار غـارة « أوزيراك » . وهكـذا ، أعطى صـدام أوامره بتنشيط الجهـود لصنع أسلحـة نوويـة وكيمـاويـة وبيـولـوجيـة . وبالأهمية نفسها أمر ببدء العمل على نظام صاروخي يكـون قادراً على إيصـال رؤوس حربية بدقة على مسافات طويلة .

في عام 1984 ، ومع بلوغ القتال البري المنهك ذروته ، كانت كميات كبيرة من الأسلحة الأميركية تُبـاع إلى الكويت ، ومن هنـاك تنقل مباشرة إلى العراق . معهد أبحاث السلام الدولي ، في ستوكهولم ، يقول إنه في ذلك الوقت كان العراق ينفق 14 مليون دولار على شراء أسلحة سنوياً ، أي ما يوازي نصف إجمـالي ناتجـه القومي . كـانت بولنـدا تؤمن الدبـابـات والصـواريـخ المضـادة للدبابات ؛ الاتحاد السوڤياتي باعت طائرات « ميغ » وصواريخ ، الصين تعاملت مع الطرفين وباعتهما قاذفات وناقلات جند مصفحة ، فرنسا باعت مقاتلات من

طراز « ميراج » وصواريخ أكزوسيت ، ودخلت البرازيـل السوق ببيـع راجمات صواريخ . بدون استثناء كل الدول الكبرى في صناعة الأسلحة كانت تبيع شيئاً ، وكانت تتعامل مع الطرفين مدعية بالظاهر عدم معرفتها ، من خلال الزعم أنها تبيع لدول مثل الكويت والأردن . لكن ما من جهاز استخبار لدى الدول الكبرى ، كان جاهلاً لحقيقة هذه الصفقات السرية .

عندما قرر البنتاغون أن إيران، التي يبلغ عدد سكانها ضعفي عدد سكان العراق ، لا يمكن أن تخسر الحرب بالفعل ، بدأت الولايات المتحدة بالميـل صوب العراق . كان الأتباع المتعصبون لآية اللّه مستعدين للقيام بـأي تضحية وواثقين أنهم على المدى الطويل قادرون على تحطيم الإرادة العراقيـة . لكن نصراً إيرانياً قد يعني أيضاً أن إسلاماً ثورياً كالذي يدعو إليه الخميني قد يغمر دول الخليج والعربية السعودية . وعندها يمكن أن تسيطر طهران على إمدادات نفط الشرق الأوسط ، ويصبح مستقبل إسرائيل مهدداً بشكل جدي . الحل المرضي كان وضع حد للحرب ، بشرط أن لا يكون هناك رابح وخـاسر . العـراق كان مستعداً للسلام ، لكن إيران أصرت على أن إسقاط صدام حسين فقط من شأنه إنهاء القتال .

عندها فقط أعطى ريغان موافقته للبدء (Operation Staunch) ـ « عملية وقف النزف » ـ وهي خطة تقوم على أساس وقف إمدادات الأسلحة إلى إيران ، في حين السماح باستمرارها إلى العراق . وفي النهاية ، تفترض الخطة ، سيُرغم الإيرانيون للقبول بتسوية سلمية . الآن كـان إيران والعراق قد أقامـا مكاتب لشراء الأسلحة في كل العواصم الأوروبية الكبرى . كجزء من « عملية وقف النزف » حُثّت كل دول الناتو على إغلاق المكـاتب الإيرانيـة . بريـطانيا ، على سبيـل المثال ، قامت عام 1987 بإغلاق مكتب شركة النفط الوطنية الإيرانية في لندن ، الذي كان يستخدم واجهة لشراء الأسلحة ، لكنها سمحت لشبيهه العـراقي أن يظل مفتوحاً .

الخطة أكدّت فقط ما كان صدام حسين قد أدركه منذ فترة طويلة ، هذه المرة ، كان على الجهة الرابحة للحيلة الدولية ، لكن منع الأسلحة كان يمكن وبسهولة أن يفرض على بغداد . لذا ، ومثل جنوب أفريقيا ، كان على العـراق أن

يقيم صناعة أسلحة خاصة به . كان صدام يؤمن أنه ، بعد الحرب ، قادر على جعل العراق الدولة الأقوى بين كل الدول العربية . كان يرى نفسه كوريث لخمسة آلاف سنة من الحضارة العراقية ، وكزعيم لاتحاد عربي قوي بما يكفي للتغلب على إسرائيل والسيطرة على نفط الشرق الأوسط . ولكن حتى يحشد الدول العربية وراءه كان عليه إظهار أنه قوي ولا يُقهر .

بدءاً من منتصف الثمانينات أطلق صدام حملة للاستثمار في الشركات الأوروبية المعنية بالتكنولوجيا والآلات التي يمكن أن تكون لها استخدامات عسكرية . كانت الفكرة تقوم على أساس تطوير هذه الشركات ، كسب ثقتها من خلال طلبات سخية ، ومن ثم نقل الخبرات تدريجياً إلى العراق . عُهد بهذه الخطة إلى حسين كامل ، صهر صدام ، الذي سيصبح وزيراً للصناعة والتصنيع الحربي .

نائب كامل كان أمير سعدي ، وهو دبلوماسي لطيف ، مثقف غربي السلوك . سعدي كان صاحب فكرة الاتصال بجيري بول في تشرين الثاني/ نوفمبر 1987 .

اتصال العراقيين بـ (SRC) كان بسبب معرفة سعدي بقدرات بول وبسمعته كعبقري متشرد ، وكان يعرف بعمل بول على الصواريخ في (CARDE) ، ويعرف أيضاً أن بول قد أجرى اختبارات على مزايا المركبات الفضائية عند دخولها من جديد الغلاف الجوي وعلى المخروط الأمامي للصاروخ . كان بول الخبير في الايرودیناميات هو ما يثير اهتمام العراقيين .

لكن هذا لم يُقل لميشيل وستيفن عندما طارا إلى بون في كانون الأول/ ديسمبر 1987 . العراقيون في السفارة قالوا إنهم مستعدون لدفع كل النفقات لبول وولديه إذا كان مهتماً بزيارة العراق . قالوا إنهم يريدون التباحث بشأن مستقبل طويل المدى وحول إعادة إعمار بلدهم . تحديداً كانوا يدرسون فكرة بدء برنامج فضاء قد يلقى اهتمام د. بول . وإنهم يتطلعون إلى بحث العموميات مع الرجل الذي يكنون له كل احترام وإعجاب . تأثر الأخوان بول بكلام العراقيين .

عندما عادا إلى بروكسل ، عقد ميشيل اجتماعاً مع مسؤولين في وزارة

الخارجية البلجيكية . البلجيكيون شجعوا ميشيل لقبول الدعـوة العراقيـة ، مع إدراك تام بأنه غير مسمـوح لـ (SRC) إبرام أية صفقـة عسكريـة إلى أن تنتهي الحرب مع إيران . المسؤولون البلجيكيون كانوا يشعرون أن الحرب قد تنتهي سريعاً وأن العـراق سيكون عنـدها زبـوناً جيـداً . كانت نصيحتهم : « اذهبـوا لكن انتبهوا » .

15

في كـانون الثـاني/ ينـايـر 1988 طـار بـول وولـداه من بـروكسـل إلى فرانكفورت . ومن هناك أقلتهم طائرة بوينغ 747 تابعة للخطوط الجوية العراقية إلى بغداد . وبصفتهم ضيوف الرئيس صدام حسين ، أُجلسوا في مقاعد الدرجة الأولى وكُرموا بكل حفاوة . كان هذا هو الاهتمام الذي يحبه بول أكثر من أي شيء . وهذا ما دفع بميشيل لتكرار القواعد الأولية : إنها زيارة استكشافية فقط ، ولن يدخلوا في بحث أي اتفاقات وإنما سيتحققون من إمكانيات بناء علاقة عمل على المدى الطويل ، حين تضع الحرب أوزارها . كان بول يخطط لتطوير نظام مدفعي جديد : « تكنولوجيات متقدمة ـ مدافع أكبر ، ومسافات أطول » كان قد قال للعراقيين عبر الهاتف من بروكسل . ولكن كما يشرح ميشيل : « كان والدي رجلاً متحمساً جداً وكان يمكن بسهولة أن يجرفه الحماس . كان لديه تلك الأنا الكبيرة ، فكان يظن أنه قادر على فعل أي شيء » .

هذه المرة ، كان ميشيل ، الذي أصبح نائباً للرئيس مسؤولاً عن الإدارة المالية ، مصمماً على أن يتولى لوحده الجانب المالي من المفاوضات ـ في حال وردت عقـود من العراقيين مستقبـلاً . كانت (SRC) بـأمس الحاجـة لصفقات جديدة ، لكن ليس بأي ثمن . هذه المرة يجب أن يكون هناك ربح معقول . كان بول قد أعطى الشركة من ذاته إلى حد أنه لم يكن قادراً على رؤيتها تتدهور بسبب قلة الأعمال . وهذا ما جعله متساهلاً جداً لكن ولديه كانا مصممين على منعه من التدخل في المسائل المالية .

كانت بانتظارهم في مطار صدام الدولي الفخم سيارة بسائق ، أقلتهم نزولاً عبر أوتوستراد صدام ، وتجاوزوا قاعة صدام ، ثم عبر ساحة صدام ، وصولاً إلى

فندق الرشيد . تقريباً فوق كل حائط عام كانت هناك صورة لصدام .

كان بول مؤيداً لإسرائيل ، وقد تعامل مع الإسرائيليين مرات عديدة في الأيام الأولى لـ (SRC) . ومنذ ذلك الحين سافر إلى تل أبيب لإلقاء محاضرات حول البالستيات وأصبح له أصدقاء يحتلون مناصب رفيعة في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية . لكنه لم يكن مقتنعاً بأن على إسرائيل احتكار كل التكنولوجيا في الشرق الأوسط ، مثلما لم يكن مقتنعاً بأن تحتكر الولايات المتحدة التكنولوجيا في الغرب . وأيضاً ، كان يؤمن بأن إسرائيل مسؤولة عن نشر قصص خاطئة حول الزعماء العرب . الآلة الدعائية الإسرائيلية صورت العرب وكأنهم وحوش . مع أن بول أحب كل العرب الذين صادفهم . ثم ، ألم يكن هو نفسه ضحية حملة دعائية لتشويه سمعته واغتيال شخصيته ؟

في يومهم الكامل الأول في بغداد تم اصطحاب بول وولديه إلى مقر حسين كامل ، الذي سيصبح بعد أسابيع قليلة وزيراً للصناعة والتصنيع الحربي . كانت التدابير الأمنية مشددة للغاية ، جنود يحملون رشاشات كلاشينكوف ومساعدون يضعون مسدسات على خصورهم ، كانوا يملأون المكاتب . كبير مساعدي كامل ، ولاحقاً نائب الوزير ، أمير سعدي ، كان واقفاً إلى جانبه ، والإثنان يرتديان بزة عسكرية أنيقة .

بعد تقديم الشاي ، دخل ميشيل إلى صلب الموضوع فوراً ، شارحاً أن تورط (SRC) في مجهود الحرب العراقي قد يؤدي إلى دخول كبار مسؤوليها السجن . وتابع ميشيل كلامه مبتسماً ، لقد سلكت الشركة هذه الطريق من قبل وليس من نية لتكرار التجربة . بسرعة رد كامل بطمأنتهم إلى أنه لا يفكر بأي شيء غير قانوني . وقال إن الحرب قد تنتهي خلال شهور قليلة . وعلى أي حال ، فإنه لم يعد مشاركاً في المجهود الحربي بل أصبح مسؤولاً عن إعادة إعمار البلد . القطع المدفعية الجديدة التي يخطط د. بول لتصنيعها ستحتاج بالتأكيد لعدة سنوات قبل أن تصبح جاهزة للاستعمال الميداني ، وبالتالي لن تكون لها أي علاقة بالحرب الدائرة حالياً .

مع ذلك ، قال كامل ، فإن العراق مهتم بالمدفعية الجديدة ، وعندما تنتهي

الحرب سيتقدم بطلبيات للحصول عليها بالتأكيد . لكن حتى ذلك الحين ، سيكون ممنوناً إذا قدم د. بول صورة عامة عما يفكر به إلى السيد سعدي . لكن أولاً ، دعا كامل د. بول وولديه للقيام بجولة في أنحاء العراق بمرافقة السيد سعدي ، والتفكير بالدور الذي يمكن أن تلعبه (SRC) في عملية إعادة الإعمار . ربما قد تكون الشركة قادرة على تأمين استشارات هندسية . على سبيل المثال ، الرئيس صدام كان متحمساً لإطلاق برنامج فضاء مدني لجعل العراق أول بلد عربي يُطلق أقماراً اصطناعية بنفسه . هل يمكن أن يكون د. بول مهتماً بالمساهمة في هذا البرنامج ؟ أيضاً ، يريد العراق تطوير ما لديه من منشآت تصنيع محلي ، ولهذه الغاية كان يسعى للاستثمار في شركات أوروبية ، وعندها سيتم تحفيز هذه الشركات لتدريب شباب عراقيين ليعودوا إلى بلادهم ويفتحوا فروعاً لهذه الشركات . فهل (SRC) مهتمة بالبحث عن شركات مناسبة ليستثمر فيها العراقيون ؟

الاجتماع الأول مع كامل سعدي كان ودياً خلا من أية ضغوط . لم يكن هناك أدنى إيحاء بأن العراق يريد أن تقوم (SRC) بأي عمل غير مناسب . وقد شعر ميشيل وستيفن بالارتياح والفرح ، لأنه إذا كان كامل محقاً بأن الحرب منتهية قريباً ، ستكون هناك فرصة للحصول على عقود سخية ، وربما ستتوفر فرصة للخروج من مجال الأعمال الدفاعية ، وهذا ما يطمحان إليه . فالزبائن يتعاقدون مع (SRC) كشركة دفاعية لسبب واحد فقط : الحصول على خبرة د. بول الواسعة جداً . وهذا يعني أنه عندما يتقاعد د. بول ستنتهي الشركة ، لكن إذا استطاعت (SRC) تغيير مجال عملها كأن تهتم بالهندسة العامة أو بمجالات تقنية أخرى ، يمكن تأمينها بتوظيف خبراء في الشركة ، فإن احتمالات المستقبل ستكون مختلفة جداً .

أثبت سعدي أنه مضيف ممتاز . اصطحبهم إلى مواقع أثرية وتحدث معهم بانفتاح حول إمكانيات العراق لتصنيع الذخائر . حتى أنه أخذهم إلى « الحلة » ، وهي قاعدة عسكرية سرية جداً قرب بغداد ، حيث يتم تصنيع المتفجرات ، كما يتم تعديل صواريخ « سكود » السوفياتية لزيادة مداها لاستخدامها ضد أهداف إيرانية ، كما قيل لهم . ظروف العمل بدت عالية

المستوى ، إجراءات السلامة صارمة ، والآلات حديثة تخضع لصيانة دائمة . بول وولداه تأثروا بما شاهدوه .

في اليوم الرابع اجتمع سعدي مع د. بول على انفراد . قال إنه مهتم جداً بأفكار بول حول أنظمة مدافع أكبر ، وقال إن العراق مستعد لدفع نفقات الأبحاث إذا بدأت (SRC) العمل فوراً على المبادىء الأساسية . ثم انتقل إلى ما اعتبره جوهر الزيارة : يريد العراق الحصول على مساعدة د. بول في برنامجه الفضائي . علماء عراقيون ومصريون وبرازيليون كانوا يعملون مع بعض « المصادر » الأوروبية ، وكانوا مقتنعين بإمكانية إيجاد طريقة لربط خمسة صواريخ سكود سوفياتية مع بعض لصنع المرحلة الأولى لصاروخ من ثلاثة مراحل قادر على إطلاق أقمار اصطناعية ، لكن هناك مشاكل كثيرة . المشكلة التي يريد سعدي بحثها الآن هي عدم توفر « سوبر كومبيوتر » .

بدون هذا الـ « سوبر كومبيوتر » ، كان العلماء البرازيليون يقولون إن تصميم بدن الصاروخ ، ذو ثلاث مراحل ، قد يستغرق عدة سنوات . وقال سعدي إن للدكتور بول شهرة بقدرته على إنجاز الأمور بسرعة وبأدنى حد من التسهيلات . ما يريدونه من بول هو أن يقدم لهم الحسابات التي تظهر كم سيحتاجون من فولاذ ، ودرجة قوة هذا الفولاذ ، وكيفية استخدامه لربط صواريخ سكود الخمسة معاً للمرحلة الأولى من الصاروخ . وشدد سعدي ، على عدم وجود غايات عسكرية لهذا البرنامج على الإطلاق . كانوا يطلبون من د. بول فقط معرفته المميزة كمهندس ايروديناميات للمساعدة في إطلاق قمر اصطناعي . فإذا كان مستعداً لتقديم العون ، في هذاالمشروع العلمي البحت ، فسيأخذه سعدي إلى « سعد 16 » وهو مركز سري للأبحاث عن الصواريخ ، في شمال العراق ، حيث يمكن للمهندسين تقديم كل التفاصيل التقنية التي قد يحتاجها .

كان نوع العمل الذي يتفوق فيه د. بول . وقد تحمس هذا الرجل الذي وصفه مقال « ماكلاين » عام 1952 ، بـ « عالِم الصواريخ الولد » . ثم إنه مشروع غير عسكري ، ويمكنه المشاركة فيه بدون التورط في مشاكل قانونية . وبدون استشارة ميشيل وستيفن أبدى موافقته .

لم يكن لدى د. بول إجازة تخوله الوصول إلى « سوبر كومبيوتر » ولم يكن قادراً على تأمين هذه الإجازة . لكنه كان واثقاً أنه ، بفضل خبرته ، قادر على إنجاز المسائل الرياضية التي تتيح له تكوين صورة عن القوة الدافعة لمحركات الصاروخ وتقدير الحرارة والضغط الناتجين . كان قد أنجز أعمالاً مشابهة في (CARDE) بدون الاستعانة بـ « سوبر كومبيوتر » ، وكان مدركاً أن نوع الأبحاث القادر على تأمينها ستقلص الفترة اللازمة للتطوير والنفقات والحاجة لاختبارات الطيران ، إلى حد كبير جداً .

عند هذه النقطة طرح د. بول الفكرة التي تسكنه منذ زمن طويل . إذا أراد العراق إطلاق أقمار اصطناعية فإن لديه الحل المثالي : المدفع العملاق . كان سعدي يعرف عن (HARP) ، والآن أخبره بول عن مؤتمر (DARPA) الذي حضره قبل سنتين وعن الشائعات التي سمعها بأن المشروع يتم تنفيذه في مختبرات لورانس ليفيرمور . قال بول إنه بحوالي ثلاثة ملايين دولار قادر على صنع مدفع عملاق ، يبدو أمامه (HARP) قزماً ، ويكون قادراً على وضع قمر اصطناعي كبير في المدار . أكثر من ذلك ، إنه بعد انتهاء صنع هذا المدفع سيكون قادراً على إطلاق أقمار اصطناعية بكلفة ما بين ألفي وثلاثة آلاف دولار للعملية الواحدة . ويكون العراق قادراً على « فرش السماء » بالأقمار الاصطناعية ويمكنه أن يطلق أقماراً لكل الدول العربية . صحيح أن الأقمار الاصطناعية يفترض أن تكون متلائمة مع سعة سبطانة المدفع ، أي محدودة بالحجم والوزن والتلسكوب ، لكنها قد تكون مثالية لمهمات محددة قصيرة الأمد . وكان بول واثقاً من قدرته على تحقيق السبق على الأميركيين ، بأن يكون مدفعه جاهزاً للإطلاق بعد سنتين . مشروع كهذا ، قال لسعدي ، هو حلم حياته ، وفي حال نجاحه سيوفر للعراق هيبة علمية ودعاية ومديحاً بشكل هائل .

وعد سعدي بأن يستشير المسؤولين بخصوص المدفع العملاق وأن يوصي بأن يدعمه العراق . وكان مهتماً جداً . المال ، قال بول ، ليس مشكلة . صادرات العراق من النفط ، التي تؤمن 90 بالمئة من عائداته بالعملة الصعبة ، كانت قد بلغت ثلاثة ملايين برميل يومياً ، ما دون مستوى التصدير قبل الحرب . وفي الوقت نفسه ، قال سعدي ، تقدم الولايات المتحدة سراً دعماً استراتيجياً

للقوات العراقية ، وأجازت لها الوصول إلى المعلومات التي تجمعها أقمار التجسس . لكن عند انتهاء الحرب ، فإن هذا المصدر للمعلومات سينقطع ، برغم أن العراق سيظل مهدداً من قبل إيران وإسرائيل . بات العراقيون الآن مقتنعين بأن الأقمار الاصطناعية حاجة حيوية .

في رحلتهم الأولى إلى العراق ، أمضى بول وولداه أسبوعاً تقريباً . وخلال رحلة العودة إلى بروكسل أخبر جيري ولديه عن الطلب العراقي لمساعدتهم بالحسابات المتعلقة بالمرحلة الأولى لصاروخ نظام إطلاق أقمار اصطناعية . وكان التوافق على عدم وجود سبب يمنع (SRC) من المشاركة . سيقوم بول بإجراء حسابات أولية ثم سيدع العراقيين يعرفون ما يقدر على تحقيقه وكم سيكلفهم ذلك . واتفقوا على إطلاق اسم رمزي لهذه العملية هو : « مشروع بيرد » وكلف جيري ستيفن بإدارته . كان أول عمل كبير يتولاه ستيفن .

الرحلة ، بإجماع الثلاثة ، كانت ناجحة . فقد تم تأمين عمل غير عسكري فوراً وهناك وعد بعقود كبيرة في المستقبل .

د. بول كان الأكثر فرحاً ، لسببين على الأرجح . الأول ، احتمال عثوره على داعم لمدفعه العملاق ، وهو شيء رأى عدم البوح به إلى ولديه . الثاني ، إنه كان قد وجد شخصاً يحسّن نوعية حياته في بروكسل ويخفف من الوحدة التي يعانيها منها عندما لا تكون ميمي هناك. هيلين غريغوار، كندية ـ فرنسية ، غنية ، جذابة ، متوسطة العمر ومطلقة ، كانت صديقة للعائلة لسنوات . كان جيرالد بول يجدها مرحة جداً ، وكانت تضحكه كثيراً . بالطبع كان ما يزال يحب ميمي ، لكن ميمي تعيش في مونتريال . أما هيلين فكانت صديقة عزيزة وحسب ، شخصاً يضيف القليل من البهار على حياته . ومع ذلك ، لم يجد أنه من الحكمة التحدث عنها مع ولديه .

كانت معنوياته عالية وهو في رحلة العودة إلى بروكسل .

16

كان لجيرالد بول سمعة أنه يتمتع بصحبة النساء ويتصرف بطريقة عابثة . كانت لديه طريقة للتحديـق طويلاً بعيني شخص آخر . في المكتب كان يمكن أن يكتب قصائد قصيرة للنساء اللواتي يعرفهن جيداً ، ليتصل بهن ويأخذهن جانباً ليقرأ لهن هذه القصائد ، بأسلوب مبالغ . « كانت إحدى أفضل نكاته » تقـول مونيك جامينى . « أحياناً تكون مضحكة ، وأحياناً رومانسية وأحياناً حزينة » . لم يكن بول يعطي القصائد لأي منهن ، كان يقرأها ثم يرميها .

من بين خصاله ، كانت اثنتان تجذبان بعض النساء . الأولى ، إنه كـان ملاطفاً للغاية . دائماً كان لديه الوقت لسماع المشاكل والتفكير ملياً بإيجاد حلول لها . وكان كريماً جداً . وبغض النظر عن هوية الشخص كان يمكن أن يعطي كل وقته وأن يُشعر هذا الشخص بأنه مهم . كان يهتم بالناس كثيراً . الثانية ، أنه كان ليناً جداً . ومن الواضح أنه كان بأمس الحاجة لمن يرعاه دائماً . وعلى حد قول إحدى سكرتيرات (SRC) : « كان عليك أن ترعاه كما لـو كنت أمه » . هيلين غريغوار كانت في أواخر الأربعينات ، وتشبه ميمي بشكل ملفت بشعرها الأشقر القصير وميلها للأزياء حسب الموضة ، لها ابنتان وتملك ثروة ضخمة ورثتها عن زوجها . كانت عائلة بول تعرفها منذ سنوات ؛ كانت إحدى صديقات ميمي ، وكان أولاد بول ينظرون إليها بوصفها « عمة بديلة » ، باعتبار أنهم لم يتعرفوا على إحدى عماتهم الحقيقيات . « صدف أنها موجودة في بروكسل وصدف أنه موجود في بروكسل فكان طبيعياً أن يلتقيا » يقول أحد مهندسي الشركة . وعندما كان بول يحتاج لمن يرافقه إلى حفلة أو حفل استقبال كان يسأل هيلين أولاً .

وهي كانت جيدة له . لم تكن تشرب وكانت تعبس بوجه الذين يشربون ،

لذا اضطر بول للتخفيف كثيراً من الشراب . وقد شجعته على الذهاب إلى الكنيسة وكانت دائماً راغبة بمرافقته إلى قبور ضحايا الحرب أيام الآحاد . وأقنعته على أخذها لحضور مهرجان كان السينمائي ورافقته إلى المتاحف العسكرية في ألمانيا الغربية وفرنسا خلال عمله على كتابه .

لكن عند أدنى تلميح إلى وجود شيء جدي ، إلى احتمال وجود علاقة غرامية مع هيلين ، كان بول يغضب بحدة . كان يصرّ على أن هيلين هي مجرد صديقة عزيزة ، ومن السخافة التفكير بأمر آخر . لكن مؤخراً ، قالت مونيك لبول إنه وهيلين أصبحا موضوعاً لأقاويل كثيرة في المكتب .

لدحض هذه الأقاويل ، أقام بول حفة دعا إليها كبار موظفيه في أحد مطاعم بروكسل الفخمة . الحفلة ، قال بول ، هي على شرف هيلين وصديقها ، وهو من أصدقاء بول ، وقال بول لضيوفه إن هيلين ستصبح مخطوبة قريباً . « كانت أتفهمحاولة لدحض إشاعة رأيتها في حياتي » ، تتذكر مونيك . « لم تهتم هيلين أبداً بصديقها المفترض أن يصبح زوجها ، والذي كان يغازل كل النساء الموجودات . وقد عادت هيلين إلى البيت لوحدها » . في اليوم التالي قال بول لمونيك : « والآن ، لا بد أنه أصبح واضحاً أن لهيلين غراماً حقيقياً ، أنا مجرد صديق قديم » . ولم ترغب مونيك بإفساد مزاجه بقول ما يخالف كلامه .

خلال الأسبوع الأول من آذار/ مارس أرسل سعدي دبلوماسياً يعمل في سفارة بون ، للتحدث مع د. بول وتم اللقاء في مكتب بول في الطابق الثالث من مبنى (SRC) .

كان الدبلوماسي يريد أولاً معرفة ما إذا فعل د. بول شيئاً بخصوص حسابات ربط صواريخ سكود الخمسة مع بعض . فأخبره بول أنه قادر على توفير الحسابات اللازمة وأنه يوافق على إبرام عقد ، على أن يتم التفاوض بشأنه مع ميشيل وستيفن .

ثم قال الدبلوماسي إن بغداد قررت السير قدماً بفكرة د. بول لصنع مدفع عملاق . مع أنه لم يكن واثقاً من أن مدفعاً كهذا يمكن بناؤه بثلاثة ملايين دولار فقط ، كما اقترح بول سابقاً في بغداد . وقال إن على بول اقتراح ميزانية جديدة

آخذاً بعين الاعتبار أن الرئيس صدام حسين قد يتوقع أن يكون المدفع جاهزاً للعمل في غضون خمس سنوات .

منذ وافقت جامعة ماك غيل على إطلاق مشروع (HARP) لم يشعر جيرالد بول ، العالِم ، بمثل هذه الفرحة . كان يخشى أن تنتهي حياته المهنية بدون تحقيق حلم المدفع العملاق . وأخيراً سيتحقق ذلك . الخمس سنوات كانت مهلة يستحيل إنجاز العمل خلالها ، لكنه رأى نفسه في سباق مع الولايات المتحدة ، فوثق من قدرته على تحقيق ذلك . وعندما سينتهي المشروع سيحتل الصفحات الأولى لكل صحف العالم الغربي ، بما يؤكد سمعته ، كما يمكن أن يغطي قضية جنوب أفريقيا .

طلب الدبلوماسي العراقي من بول كتابة عرض رسمي . يريده صدام البدء بالعمل فوراً . دفعة تمهيدية ستصل خلال أيام ، وسيتم توقيع العقد بالسرعة التي يسلم فيها د. بول تقريره .

في تلك الليلة اتصل بول بثلاثة من الخبراء العاملين في (SRC) في منازلهم ، وأخبرهم أنه سيبني أكبر مدفع في التاريخ . لكن بول طلب منهم التكتم والتزام السرية . وفي الوقت نفسه ، بدأ بول توزيع أعمال هندسية سرّية ليستند عليها في كتابة اقتراحه الأولي ، على أساس أن يتم العمل خارج المكتب ، وأن يتم دفع الأتعاب نقداً من مخصصات « سرية » سترد قريباً . وقرر إطلاق اسم رمزي لهذه العملية هو « مشروع بابل » ، في حين أخذت في دفاتر الشركة رقماً هو مشروع 839 .

في منتصف آذار/ مارس 1988 كانت المفاوضات تجري للتوصل إلى اتفاقية مع العراق بخصوص المدفع العملاق . وتقرر أن يتم تجديد العقد كل سنة لمدة غير محددة ، لكن من بين شروط العقد أن يكون هناك نموذج عيني ، في العراق ، في غضون سنة . على أن يتم بناء مدفعين عملاقين ، بالحجم الكامل ، واحد لإجراء الاختبارات اللازمة والثاني لإطلاق القمر الاصطناعي الأول عام 1993 . على أن يتم دفع المخصصات عبر بنك في لوكسمبورغ ، كل أربعة أسابيع ، بعد استلام بغداد تقرير شهري عن وتيرة العمل والموافقة عليه .

وتم الاتفاق على أن تكون الميزانية الإجمالية 25 مليون دولار .

لم يكن العراقيون يريدن أي تأخير ، وفي حين كانت التفاصيل ما تـزال موضع بحث ، حثوا بول على الإسراع ببدء العمل . ولم يكن بحاجة لكثير من التشجيع . زاد حجم العمل الذي كان يسنده سراً لمهندسي (SRC) . وقد عيّن د. بول لإدارة المشروع د. كريستوفر كاولي ، وهـو بريـطاني في الخمسين من العمر ، خبير بالمعادن ومهندس ميكانيكي ذو خبرة عالمية بالمشاريع الضخمة .

اختـار كاولي الفـريق الأسـاسي لمشـروع بـابـل ، وتـألف من : خبيـر الايرودييناميات تومي سلاك ، عالم الرياضيات غراهام إنغهام ، ومصمم الهندسة الميكانيكية مايكل كلارك ، وجون هيث وهو رسام موهوب قادر على تصوير أفكار العلماء على الورق .

أبلغهم بول أولاً أنه يريد وضع حمولة في المدار ، تزن طنين ، وهو الحجم الأدنى لقمر اصطناعي نافع للاستخدام . وعلى هذا الأسـاس يجب أن يكون تصميم وحجم المدفع حسب مقتضيات هذه الحمولة . وبسرعة قرر أفراد الفريق أن سبطانة المدفع يجب أن تكون بقطر متر كامل . وهذا قد يجعل المدفع آلة غير اعتيادية قادرة على إطلاق مقذوف بحجم كشك تلفون عمومي .

التقى فريق مشروع بابل ليلاً في مكتب بول . وبدأوا العمل مدركين أنهم يتعاملون مع مدفع سيكون أكبر على الإطلاق مما خطر على بال أحد من قبل . المصاعب التقنية كانت هائلة ، بالطبع .

كان بول بأفضل حالاته . كان حماسه يطغى على الأجواء . وكان واثقاً من أن كل المصاعب ستُحل . السبطانـة ستكون ملسـاء الجوف ، لأن المقـذوف سيكون ذا دفع صاروخي مساعد ومزوداً برعانف لتأمين ثباته ، لذا كان يفترض أن لا ينطلق من الفوهة وهو يدور حول نفسه ، بل كان بحاجة لطيران مستقر . أولاً ، كان بول يريد تصميم المدفع ، الذي لن يكون مجرد قطعة مدفعية تمتاز فقط بأنها أكبر حجماً . مبادىء جديدة بالكامل يجب تطبيقها ، وهؤلاء الذين يعملون على بنائه يجب أن يدركوا أنهم سيحتلون مكاناً في تاريخ البالستيات .

عبء هذا العمل كان على عاتق المهندسين بالدرجة الأولى ؛ إنه نوع من

التفاصيل لا يجب على بول أن يشغل نفسه فيه . أما هو فسيبدأ العمل على المقذوف .

قبل نهاية نيسان/ إبريل كان كاولي ومساعدوه قد أنهوا تصميم المدفع العملاق ونسخته الأولى وأوجدوا معادلة لما قد يحتاجه من قوة استثنائية لفولاذه . كانت مواصفات كاولي النهائية ، المدعمة بحسابات معقدة ، تطلب أن تكون سبطانة المدفع بطول 156 متراً .

أراد كاولي أن يتم صنع السبطانة من 26 جزءاً تثبت مع بعض بواسطة شفّات ضخمة (الشفّة : حافة بارزة لتثبيت شيء في مكانه أو لوصله بشيء آخر) . السبطانة لوحدها قد يبلغ وزنها 1665 طناً . بالإضافة إليها ، ستكون هناك أربع إسطوانات ارتدادية ، تزن كل منها 60 طناً ، واسطوانتان لتخفيف الصدمة تزن كل منهما 7 أطنان ، وستكون مؤخرة المدفع بوزن 182 طناً أي أن الوزن الإجمالي للمدفع سيكون 2100 طن .

في مؤخرة المدفع سيكون أنبوب الفولاذ بسماكة 30 سم ، ليكون قادراً على تحمل الضغط العملياتي الأقصى بحدود 70 ألف (Psi) . وستكون مقاومة الشد لفولاذ أعلى من 1250 ميغا باسكال . وستكون سماكة جدران السبطانة متدرجة انخفاضاً على طولها لتكون قادرة على تحمل درجات الضغط عند انخفاضها . عند نهاية الفوهة ستكون السماكة 6,5 سم . في الواقع ، كان يكفي أن يكون جزء الفوهة بسماكة 12 ملم فقط لتحمل الضغط ، لكن كان على السبطانة أن تحتفظ أيضاً بصلابة معينة ، وقد أدى ذلك إلى مشاكل بنيوية جديدة . يشرح كاولي : « عندما يرتد المدفع يجب أن تكون نهاية الفوهة قادرة على حمل كل وزن الأنابيب الأخرى تحتها ، التي ستكون متجهة باتجاه معاكس » .

وقام كاولي بتصميم نموذج للمدفعين العملاقين ، أُطلق عليه اسم « بابل الصغير » أو « الموديل » ، الذي سيكون بحجم ثلث المدفع الأصلي . طوله 46 متراً وسبطانته وزنها 350 طناً ، في حين سيبلغ وزن كل السبطانة حوالي 113 طناً .

وفي حين كان يمكن لـ « بابل الصغير » أن يجيب على العديد من الأسئلة بشأن آلية عمل المدفع العملاق ، إلا أنه لم يكن ينفع لاختبار مدى تكامل كل النظام . لهذه الغاية كان من الضروري جداً استخدام نموذج بالحجم الطبيعي لإجراء الاختبارات ، لذا كانت الحاجة لبناء مدفعين - واحد للاختبار والثاني للإطلاق . وسيتم نصب المدفع - النموذج بوضع أفقي لإجراء اختبارات على نظام الارتداد وحجم شحنات الدفع اللازمة لبلوغ السرعات المطلوبة .

طلب بول من كل العاملين والعارفين بمشروع بابل ، أن يقسموا اليمين بالحفاظ على سرية العمل . وقد أُخبرت مونيك جاميني بالمشروع وطُلب منها تولي الجانب المادي . وكان عليها أن تذهب إلى لوكسمبورغ كل شهر لاستلام المال العراقي .

قبل مضي أسبوع على بدء فريق مشروع بابل عمله ، كانت الأقاويل عن المدفع العملاق قد انتشرت في أرجاء مكاتب الشركة . علم ميشيل بالمشروع من خلال أربعة موظفين ، فاستدعى ستيفن وانتحى به جانباً ليخبره بما يجري ، وبعدها سار الأخوان إلى مكتب والدهما مصممان على كشف الأوراق .

لم يتعلم جيرالد بول تحمل النقد ، والآن ها هي قراراته موضع تشكيك ، وهذا كافٍ لإثارة حنقه . جلس ستيفن دون أن يقول شيئاً تقريباً ، لكن ميشيل لم يكن من النوع الذي يسكت . أصر أن يأتي والده للجلوس على طاولة الاجتماعات ثم بدأ بالإفصاح عن الحقائق التي يراها . إذا كانت (SRC) قد نجحت في الاستمرار في مجال الأعمال الدفاعية فلأنها كانت شركة ثانوية . ليست كبيرة بما يكفي للإضرار بأحد . وطالما أنها لا تقوم بإنتاج شيء غير الرسوم الهندسية ومبادىء المدفعية فلم تشكل خطراً مميزاً على أحد .

لكن في حال أراد د. بول إنتاج مدفعه العملاق ، فإن ذلك سيجذب انتباهاً دولياً وستصبح (SRC) موضع مراقبة أكثر من أي وقت مضى . ليس مهماً ما يقول بول بشأن المدفع العملاق ، ليس مهماً مدى قوة زعمه بأنه لإطلاق أقمار اصطناعية فقط ، فإن أعداء العراق ، وخصوصاً إيران وإسرائيل ، لن يصدقوه ، وسيعلنون أنه سلاح ذو قدرات مرعبة من شأنه الإخلال بالتوازن في الشرق

الأوسط . ستكون هناك إدانة دولية ، قال ميشيل . وافترض أنه سيُنظر إلى المدفع العملاق باعتباره سلاحاً قادراً على إطلاق رؤوس نووية وكيماوية وبيولوجية ، حتى نصف الكرة الأرضية .

حاول بول أن يفتعل ضحكة لكنها جاءت غير رنانة . مشروع بابل لن يُنظر إليه كسلاح ـ وهو ليس سلاحاً ـ لأن لا فائدة له كسلاح . المدفع قد يطلق مقذوفاً بزنة طنين إلى الفضاء ، وسيكون انفجار الإطلاق في العراق ضخماً إلى درجة يمكن معها تسجيله على مرسمة الزلازل في كاليفورنيا . لهب بطول 90 متراً سينطلق من فم المدفع عند كل إطلاق وسيتم رصده من كل الأقمار الاصطناعية . وفي غضون دقائق معدودة من أول عملية إطلاق ستعرف كل القوات العسكرية المتطورة في العالم ما هي إحداثيات المدفع بالضبط . ثم إنه سيكون غير متحرك إطلاقاً ـ لا يمكن نقله وبالتالي لا يمكن حمايته ـ ، ليس هذا فقط . بل إن هذا المدفع لا يمكن توجيهه إلى هدف ما . صحيح أنه إذا أمكن الحصول على أنظمة التوجيه التي يصنعها الأميركيون عندها يصبح ممكناً الإطلاق باتجاه أهداف محددة . لكن لا يمكن إطلاقه أكثر من مرة ، لأن هجوماً مضاداً يكون كفيلاً بتدميره .

وتابع بول شرح وجهة نظره ، بالقول إنه والعراقيين قادرون على إثبات ، وبسهولة ، أن مشروع بابل ليس سلاحاً . ومع ذلك من الضروري جداً إبقاء العمل سرياً لأن الإسرائيليين والأميركيين قد يحاولون عرقلته ، لأنهم لا يريدون أن يكون لدى العراق أقمار اصطناعية للتجسس .

كان د. بول مصرّاً وظل ميشيل غير مقتنع . ولوضع حد للنقاش قال بول ، وهو يحاول الحفاظ على هدوئه ، لميشيل وستيفن ـ الذي لم يقل شيئاً حتى الآن ـ أن بإمكانهما السير في درب خاصة بهما . وأنه قد يؤسس شركة أخرى منفصلة كلياً عن (SRC) ، لتنفيذ مشروع بابل من خلالها ولا يعود لـ (SRC) أي علاقة بهذا المشروع . أكثر من ذلك ، عندما يُنجز المشروع كلياً ويتم الإعلان عن المدفع بوصفه إنجازاً علمياً بارزاً فإن ولديه لن يحصلا على شيء من « المجد » كما لن يقطفا ثمار الأرباح المالية . وقال ميشيل إنه لم يكن قادراً على منع والده من القيام بما يريده .

قبل مغادرته مكتب والده ، أوضح ميشيل مرة ثانية أنه يعتقد أن بناء « مشروع بابل » للعراق هو فكرة حمقاء وخطيرة . لم يكن النقاش يشبه ما يجري بين أب وابنه ، كان حاداً وعميقاً ، ولم يكن قد انتهى .

بعد ظهر اليوم نفسه ، حضر د. بول ومونيك الأوراق اللازمة لتأسيس شركة جديدة تحمل اسم « معهد التكنولوجيا المتقدمة » أو(ATI) اختصاراً . وخلال أيام قليلة كان قد استأجر مكاتب للشركة الجديدة فوق سفارة بوليفيا ، وقد تعمد بول أن تكون هناك عدة كيلومترات بين (SRC) و(ATI) .

انتقل الفريق الأساسي إلى المكاتب الجديدة ، ووافق الكسندر باباس ، وهو نائب رئيس (SRC) ومساعد بول منذ زمن طويل من أيام مشروع (HARP) ، على العمل بصفة مستشار خاص .

قام بول بتسجيل الشركة الجديدة في أثينا لأنه أراد مكتباً أوروبياً قريباً من الشرق الأوسط ، ويقول كاولي « كانت أثينا اختياراً ممتازاً » ، لأن لليونان ، كما لبلجيكا ، قوانين رخوة فيما يتعلق بنقل التكنولوجيا . ولم يُستخدم مكتب أثينا إلا باعتباره صندوق بريد .

العقد الرسمي بين العراق و(ATI) المتعلق بمشروع بابل لم يوقع إلا في 10 حزيران/ يونيو 1988 ، لكن العقد كان ذا مفعول رجعي لتغطية أعمال التصميم التي كانت قد انتهت .

ولأن الحرب كانت ما تزال دائرة ، لم يكن بمقدور (SRC) الدخول في صفقة شرعية لتطوير مدفعية للعراق ، لكنه كان « مفهوماً » أنه عند انتهاء الحرب ستحصل (SRC) على عقد مع العراق . وحتى ذلك الحين ، تم توقيع سلسلة عقود لأبحاث صغيرة تتعلق بصاروخ يستعمل لإطلاق قمر اصطناعي ، كما كان هناك عقد تقوم (SRC) بموجبه بتدريب عراقيين في مجال البالستيات .

كان بول قد أخبر مساعديه أنه عندما ينجز مشروع بابل ، ويصبح المدفع العملاق جاهزاً للإطلاق، سيتم الإعلان عنه، وسيُدعى علماء من أنحاء العالم لفحصه ولمشاهدة أول عملية إطلاق . الدعاية ستكون أشبه ببطانية الأمان للمشروع . إذ سيكون من السهل جداً إثبات أن المدفع هو أداة علمية . وعند

إثبات ذلك ، لن يجرؤ الإسرائيليون على ضربه ، بواسطة هجوم جوي ، لأن هجوماً كهذا سيُنظر إليه عالمياً باعتباره عملاً تخريبياً .

في هذه الأثناء كان مشروع بيرد يتقدم . وكان بول قد أصبح قادراً على بحث المشاكل الأساسية لبدن صاروخ المرحلة الأولى . وطلب منه الآن تقديم أفكار حول المرحلتين . الثانية والثالثة . وهكذا أبرم العراق سلسلة عقود صغيرة تتعلق بالعمل على كل مراحل هذا النظام ، وبحلول صيف 1988 كان العراق قد أصبح أكبر زبون لـ (SRC) .

بدأ بول يقضي ربع وقته تقريباً في العراق ، وتم الاتفاق ، على أن يقوم العراقيون ، كجزء من حاجة الحفاظ على سرية مشروع بابل ، بفتح مكتب للهندسة والرسم خاص بالمشروع ، في قاعدة عسكرية خارج بغداد . وقد عنى ذلك ، إجراء عمليات الرسم والمسائل الرياضية على أراضي العراق . ولكن كانت هناك حاجة لتقنيين ذوي كفاءات عالية لدعم العمل في بروكسل ، وبناءً لاقتراح كاولي تم نشر إعلانات في صحف منطقة بريستول ، حيث يمتلك كاولي منزلاً ، تطلب «رسامي تصميم للعمل وراء البحار» . وفي النهاية تم اختيار اثني عشر شخصاً على أساس الفهم الواضح أنهم سيحصلون على رواتبهم نقداً وبدون تسجيلهم في الضمان الصحي أو ضمان الشيخوخة ، وأن عليهم تحمل التزاماتهم تجاه مصلحة الضرائب بأنفسهم . ومع احتساب ساعات العمل الإضافي تبين أنهم قد يتقاضون ما لا يقل عن ألف دولار أسبوعياً ، وهو راتب لم يحلم أحدهم بالحصول عليه أبداً . ورغم عدم إبلاغهم بحقيقة العمل الذي يقومون به ، إلا أنه سرعان ما اتضح أنهم يعملون في مجال المقذوفات . على أي حال ، فإن الراتب الممتاز ، وظروف العمل الممتازة والعلاقة المتينة التي سرعان ما قامت بين بول وكل هؤلاء الرسامين ، كانت تضمن حفاظهم على السر ، في البدء على الأقل .

طوال أيار/ مايو 1988 ، استغرق كاولي في مطالعة المجلات التقنية المتخصصة بحثاً عن شركات مناسبة لصنع أجزاء المدفع العملاق . كان هناك حظر اوروبي واسع على بيع الأسلحة للعراق ، وبما أن غير الملمين بكل تفاصيل المشروع سينظرون إلى المدفع العملاق باعتباره سلاحاً ، كان لا بد من

التمويه . في أواخر أيار/ مايو عرض كاولي عقداً على شركة « وولتر سوميرز » قرب بيرمنغهام ، لصنع « أنابيب » ـ لاستخدامها في صنع سبطانة مدفع « بابل الصغير » ـ وقد قيل للشركة ، المعروفة بصنع سبطانات مدافع الدبابات ، أن هذه « الأنابيب » مخصصة لمشروع بتروكيماوي عراقي ، ويجب تسليمها في مدة لا تتعدى العشرة شهور .

كانت شركة وولتر سومرز بحاجة لأعمال، لكنها ارتابت بحقيقة هذه الأنابيب ، التي تشبه كثيراً جداً سبطانة مدفع . واتصل مسؤولو الشركة مرتين بوزارة التجارة والصناعة البريطانية (DTI) للاستفسار عما إذا كانت هناك حاجة للحصول على إذن تصدير ، وفي المرتين قيل لها أن لا حاجة للإذن . مع ذلك لم يقتنع مدير إدارة الشركة ، وكبير خبراء المعادن لديها ، ريكس بابليس ، الذي اتصل بالسير هال ميلر ، نائب المنطقة في البرلمان وهو من حزب المحافظين ، وقال له إن المواصفات التي يطلبها العراقيون لا تتطابق مع ما قالوه عن غاية الاستخدام . يقول السير هال : « الشركة متعاقدة مع وزارة الدفاع . ليسوا أغبياء » . اتصل السير هال بـ(DTI) وبوزارة الدفاع وبأحد فروع الاستخبارات البريطانية ، وقال لهم كل ما يعرفه عن الأنابيب ، وقال إن لجيري بول علاقة بالأمر ، وأن ريكس بابليس يعتقد أن الصفقة تتعلق بسبطانة مدفع . وقيل للسير هال أن لا يقلق ، وأن ليس هناك ما يمنع شركة « وولتر سومرز » من تنفيذ العقد .

بعد أسابيع قليلة عرض كاولي عقداً لصنع « أنابيب » ـ لتُستخدم في صنع السبطانة الفعلية للمدفع العملاق ـ على شركة بريطانية أخرى « شيفيلد فورجماسترز » ، التي كانت تنشر إعلانات عن خبرتها في صنع سبطانات مدافع قادرة على تحمل العوامل الحاتّة (الأكّالة) التي تسببها « الدواسر المتقدمة » .

وقد أُبلغت هذه الشركة أن هذه « الأنابيب » ستُستخدم في مصنع بتروكيماويات عراقي . هذه المرة كانت المدة اللازمة لتسليم الأنابيب سنتين ، وبلغت قيمة العقد 1,7 مليون جنيه استرليني .

فيليب رايت ، كبير المدراء التنفيذيين في الشركة ، كان راغباً بقبول العقد . وكانت الشركة أيضاً بحاجة لأعمال . لكن بعد إجراء اتصالين هاتفيين

تأكد من أن (ATI) مرتبطة بشكل وثيق مع (SRC) وأن الأخيرة متخصصة في تصميم المدافع بعيدة المدى . وإذا لم تكن لـ(ATI) و (SRC) أي علاقة بصناعة البتروكيماويات ، فقد كانت هناك إشاعات بأنهما تقومان بأعمال ذات طابع عسكري للعراق . وأكثر من ذلك ، أن المواصفات المطلوبة لـ « الأنابيب » كانت دقيقة ومتقنة بحيث لا يمكن أن تكون إلا لسبطانة مدفع .

في حزيران/ يونيو قام رايت وعدد من مدراء « فورجما سترز » وشركتين تابعتين لها ، « فورجما سترز للهندسة » و « ريفر دون كاستينغز » ، بزيارة بروكسل للتفاوض بشأن العقد مع كاولي . سألوه ما إذا كانت للأنابيب غايات عسكرية ، فأجابهم بالنفي . ولم يخف رايت شكوكه ، وأصرّ على الاتصال بـ(DTI) للتأكد من عدم وجود أي خرق للقانون . ومباشرة بعد الاجتماع ، قام برايان كوكسون ، مدير إدارة « ريفر دون كاستينغز » ، بالاتصال هاتفياً بـ(DTI) من بروكسل ، فقيل له أن لا مشكلة بخصوص خط أنابيب البتروكيماويات العراقي ، وان لا حاجة لرخصة تصدير .

وعلى مدى أسابيع قليلة تم عقد ستة اجتماعات بين مسؤولي « فورجما سترز » وكاولي للتفاوض بشأن المواصفات ، بما فيها الضرورة القصوى بأن يتناسب جوف أي أنبوب مع جوف أي أنبوب آخر بحيث لا يتعدى الفارق بينهما 5 , 0 ملم بأي حال .

في تموز/ يوليو تم التوصل إلى اتفاقية ، وبدأ العمل فوراً على صنع 52 أنبوباً ، لسبطانتي المدفعين ، لكن رايت ظل قلقاً بشأن غاية الاستخدام النهائي لهذه الأنابيب ، التي يقوم بصنعها ، فأرسل نسخة كاملة عن المواصفات المطلوبة إلى (DTI) ، التي صدّقت عليها باعتبارها خط أنابيب .

نقاشات مستفيضة مع علماء بتروكيماويات تكشف أن لا أحد لديه معرفة بصناعة البتروكيماويات ، قد يوافق على أن هذه المواصفات الدقيقة كانت ضرورية .

بانتهاء صنع أجزاء من الأنابيب ، تولى العراق تأمين عملية نقلها من مصنع شيفيلد إلى رصيف المرفأ لشحنها . وقد تم دفع مقابل العمل المنجز بواسطة

كتاب اعتماد مصرفي غير قابل للإلغاء .

بدأ المال يتدفق على (ATI) . وللمرة الأولى منذ أكثر من عشر سنوات ، كان لدى بول ميزانية كبيرة يستطيع أن يغرف منها . وتم تأمين المال اللازم لنشر وإكمال كتابه حول مشروع (HARP) والمدافع الألمانية الكبيرة التي استخدمت خلال الحرب العالمية الأولى ، من ميزانية المدفع العملاق . وكان ما يزال يأمل بالحصول على العفو بالنسبة لقضية جنوب أفريقيا . والآن ، وبناء لنصيحة من الجنرال آرثور ترودو ، وظّف ويليام غيل ، وهو ذو علاقات قوية في واشنطن ، براتب شهري قدره 5 آلاف دولار ، لمساعدته في الحصول على عفو . كثيرة هي المرات التي قال له ميشيل وآخرون أن الأمر مضيعة للوقت والمال ، إلا أنه ظل يرفض التخلي عن الفكرة .

بينما كان مشروعا « بيرد » و « بابل » يسيران قدماً ، كانت إدارة ريغان تساعد بغداد في إعادة تنظيم نخبة وحداتها العسكرية . أكثر من ذلك ، كانت واشنطن تعمل على إعداد استراتيجية عسكرية تسمح لبغداد بإعادة احتلال شبه جزيرة الفاو ، الغنية بالنفط ، حيث كانت قوات الطرفين قد استقرت في مواقع ثابتة لم تتغير منذ 1986 . وفي 8 نيسان/ إبريل 1988 ، أعادت القوات العراقية سيطرتها على الفاو بهجوم استغرق أقل من 36 ساعة ، وانعكس اتجاه الحرب فأخذت القوات العراقية تتقدم لتحتل أراض إيرانية أكبر من أي وقت مضى . بحلول آب/ أغسطس كانت إيران مرغمة على قبول وقف إطلاق نار أعلنته الأمم المتحدة . وتم فرض سلام ملتبس . لكن عملياً كانت الحرب قد انتهت ، وصدام حسين ما يزال قوياً في السلطة .

عند انتهاء الحرب كان العراق قد أنفق كل ما لديه من فائض في احتياطي العملات الصعبة ، وراكم ديوناً عليه قُدّرت بـ 100 مليار دولار . لكن خلال الشهور الحاسمة للعمليات العراقية وضعت بغداد يدها على 40 بالمئة من أحدث الأسلحة التي تملكها إيران ، بما فيها دبابات وبعض مدافع 155 ملم المصنوعة وفق تصاميم بول ، والتي تم شراؤها من جنوب أفريقيا والنمسا . وفي النتيجة كان العراق قد خرج قوياً وفي وضع يسمح له بالسيطرة على الخليج العربي .

طوال فترة الحرب كان الإيرانيون يُصوّرون في الغرب على أساس أنهم جلفاء . وبرغم محاولات طهران العديدة للتعاون مع (SRC) إلا أن بول رفض كلياً التعاون معها. كان قد انضم إلى الجانب العراقي لأنه، في المقام الأول ، كان مقتنعاً بوضوح أن بغداد مدعومة من قبل دول الناتو . لكن الآن ، وبعد انتهاء الحرب ، صُدم بول بأن وسائل الإعلام الغربية بدأت بتقديم صدام بوصفه « جزار بغداد » . وتم نشر تقارير حول تهذيب أطفال المنشقين السياسيين . وقُدمَ دليل مقنع أظهر أنه في آذار/ مارس 1988 ، قامت القوات العراقية بإلقاء قنابل كيماوية على الأكراد في قرية حلبجة ، في شمال العراق ، مما أدى إلى مقتل مئات الأشخاص .

تذكر بول كيف دعمته واشنطن في أوائل السبعينات ، فقط لتتخلى عنه في نهاية العقد ، والصحافة تنشر الاتهامات بحقه . واختار أن لا يصدق الاتهامات بحق صدام وأن يستمر بخططه . وليكون مرتاحاً أقنع نفسه بأن صدام ليس أسوأ من حكام عديدين في العالم .

كان الآن الكتاب حول (HARP) ومدافع باريس قد أنجز ، وطبعه بول على نفقته في إحدى شركات الطباعة الألمانية ، وكان يحتوي على عشرات الصور الملونة . آلاف النسخ شُحنت إلى مكتب بول ، وقام بتوزيعها كهدية لكل الذين يعرفهم . الصحافة العسكرية المتخصصة استقبلت الكتاب جيداً وفي العديد من المجلات العسكرية المعروفة كتبت تقارير رائعة عنه . بدون شك كان الكتاب غنياً بمعلومات لم تُنشر من قبل حول تطور المدفعية الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى . وفوراً بعد الانتهاء من كتابه الأول انشغل د. بول بالتحضير لكتابه الثاني ، المتعلق بتطور المدفعية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية والتعمق أكثر بمشروع (HARP) . وكانت في ذهن بول فكرة وضع كتاب ثالث حول مشروع بابل ، لكن بعد سنوات . الآن ، وبمناسبة صدور كتابه الأول قرر إقامة حفلة .

مونيك جامينى كانت المسؤولة عن ترتيب الحفلة . المدعوون سيكونون بحدود عشرين شخصاً ، كلهم شاركوا في الكتاب ، وسيكون حفل عشاء في أحد المطاعم الفخمة في بروكسل . وُجهت الدعوة للناشرين في ألمانيا ، ولمورفي

وزوجته في بالتيمور ، على أن تحضر ميمي من مونتريال . وقبل ساعات قليلة ، أخبر بول مونيك أن هناك مدعواً إضافياً : هيلين غريغوار .

تقول مونيك : « هذا التغيير في الدقيقة الأخيرة أربك كل إجراءات التنظيم . وسبب الكثير من التوتر » . في ختام حفل العشاء ، شكر د. بول كل المدعوين على حضورهم وحدد دور كل منهم في إنتاج كتابه . وعندما وصل إلى هيلين قال ، إنها موجودة هنا الآن لأنها ببساطة صديقة عزيزة جداً . وأضافت ميمي على كلامه : « أجل ، إنها ترعى زوجي عندما لا أكون موجودة » .

بعد أيام قليلة حدثت مواجهة أخرى بين ميشيل ووالده . كان د. بول قد بدأ بتكريس معظم وقته تقريباً لمشروع بابل ، في حين كان ميشيل ما يزال مقتنعاً أن هذا المشروع سيكون سبب خراب الشركة ، ويطلب التخلي عنه . بول رفض ذلك بتصلب ، فأعلن ميشيل أنه ، وفي ظل الظروف الحالية ، لا يستطيع البقاء في بروكسل ، وأنه يفضل العودة إلى مونتريال .

كان ميشيل شريك والده منذ بداية أعمال بروكسل تقريباً ، والآن قراره بالرحيل كان شديد الوقع على د. بول . بطرق عدة ، كان ميشيل قد أصبح حجر أساس للشركة . كان د. بول أمام خيار التخلي عن أحد شيئين ، ولم يكن مستعداً للتخلي عن مشروع بابل إطلاقاً . حسناً ، قال د. بول ، ما يمنع عودتك إلى مونتريال لتدير الجانب المالي من هناك ؟ وافق ميشيل ، وافترق الإثنان بإحساس أنهما سوّيا شيئاً على الأقل .

الجزء السابع

هذه هي الترسانة

17

في آب/ أغسطس 1988 ، وقعت بغداد عقوداً مع د. بول لإنتاج نظامي مدفعية جديدين ، كان قد تم النقاش المعمق بشأنهما منذ اجتماع شباط/ فبراير ، وكان مهندسو (SRC) قد أنجزوا أعمال التصميم الشاملة ، لكن الآن فقط ، مع انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية ، أصبح ممكناً متابعة أعمال التنفيذ بشكل قانوني . بغداد التزمت بكلمتها ودفعت مقابل العمل الذي أُنجز قبل توقيع العقد ، لتصبح أكبر زبائن (SRC) وأهم مورد للمال . كان بول يسافر إلى العراق كل شهر ، وميشيل وستيفن كانا هناك مرات عديدة ، وفي أي وقت كان يوجد اثنان أو ثلاثة من طاقم (SRC) ، و(ATI) في العراق .

كل هذا النشاط لم يكن ممكناً بقاؤه بعيداً عن عيون الآخرين . فقد كان بول يوظف المزيد من رسامي التصاميم البريطانيين . وبدأ العارفون بأسرار تجارة الأسلحة يتحدثون عن « الرجل العجوز وأطفاله » . وليست الصورة خيالية تماماً . إذ ، وكما سيكتشف الموظفون الجدد ، أن العمل بإخلاص مع بول معناه أن تكون فرداً من عائلته . زوجان شابان بلجيكيان يعملان مع (SRC) كانا قد انفصلا عن بعض بسبب مصاعب مالية تعود إلى أيام الدراسة . سمع بول بمشكلتهما من موظف آخر ، فدفع كل الديون المترتبة عليهما ، وكانت بحدود عشرة آلاف دولار ، وقال للشابين أن يرجعا إلى بعض ويحافظا على حبهما .

مع حلول فصل الخريف عام 1988 ، كان أمام د. بول الكثير من المشاكل التي تتطلب حلولاً . أولاً ، هناك نظاما المدفعين اللذين طلبهما العراق . حتى الآن ، كانت المدفعية التي عملت عليها (SRC) من النوع الذي يقطر بعربات مدرعة في ميادين القتال . لكن العراقيين كانوا يريدون النظامين الجديدين من النوع الذاتي الحركة . لذا كان يفترض أن يتألف كل منهما من وحدتين : أمامية وخلفية . الوحدة الأمامية ستكون عربة مدرعة مزودة بمحرك ديزل صنع مرسيدس بنز ، وستكون مربوطة إلى وحدة خلفيـة تتألف من المـدفع والبـرج والحُجَيْرَة القتالية . الوحدة الأمامية ستكون نفسها في النظامين ، وستوفر سرعة تبلغ 90 كلم كحد أقصى على الطرقات العاديـة ، وما بين 60 و 70 كلم في الأراضي الوعرة . وسيكون للنظامين الجديدين نوع الهيكل نفسه ويمكن البرج نفسه .

في أحد الطرازات التي طورتها عن تصميم مدفع بول عيار 155 ، قامت جنوب أفريقيا بإنتـاج المدفـع (G-6 Rhino) المحمول على ستـة دواليب قطر الواحد منها متران ، والمربوط بآلية مدرعة للقيـادة ، والذي أثبت نجـاحه في العمليات على أراضي صحراوية ووسط الأدغال . كان هذا هو نوع السلاح الذي يريده العراقيون ، بحجمين . الأول سيكون مدفعا من عيار 155 ملم ، أطلق عليه العراق اسم « مجنون » ، وسيبلغ وزنه 50 طناً وطول سبطانته 8 أمتـار ، وسيطلق قذائف جوفاء ذات « قاعدة نازفة » زنة 45,5 كلغ . وكان متوقعاً أن يبلغ مداه الأقصى 38 كلم ، مع قوة نارية قصوى ، نظرياً ، تبلغ 4 قذائف بالدقيقة ، وعملياً قذيفة واحدة بالدقيقة .

المدفع الثاني، الذاتي الحركة، سيلفت أنـظار المجتمع الـدولي، لأنه سيكون من عيار 210ملم، أي أكبر قطعة مدفعيـة موجـودة لدى أي جيش في العالم . وقد أطلق العراقيون عليه اسم « الفاو » (مجنون والفاو، هما من أسماء المعارك التي جرت خلال الحرب مع إيران) . سيزن المدفع 44 طناً ، وستكون السبطانة بطول 11,13 متراً ، وسيطلق قذائف جوفاء وذات « قاعدة نازفة » بزنة 109,4 كلغ ، بمدى أقصى يبلغ 57 كلم . أما قوته النارية فمشابهة للمـدفع « مجنون » . كان بول يفكر بمدفع عيار 210 ملم ، وتطوير ذخائر لمدفع كهذا ، منذ حوالي سنتين ، لكنه لم يكلف مهندسيه بالبدء على وضع تفاصيل التصميم

الصعبة إلا عند منتصف عام 1988 . في الأوقات العادية ، قد يتطلب تطوير سلاح كهذا ما لا يقل عن ست سنوات ، لكن صدام حسين كان مستعجلاً ، وكان بول معروفاً بقدرته على إنجاز الأعمال بسرعة . مع ذلك ، شحب وجه بول عندما طلب منه نائب الوزير ، أمير سعدي ، أن يكون نظاما المدفعية الجديدان جاهزين للعرض في أيار/ مايو ، موعد معرض الأسلحة الدولي الذي ينظمه العراقيون في بغداد . لم يقل إن الأمر مستحيل ، بل قال إن « شيئاً » سيكون جاهزاً ما دام العراقيون يحافظون على تدفق المال . وشدد سعدي على أن المدفعين سيقدمان باعتبارهما صناعة العراق بالأساس ، وأن عملية إنتاجهما كلياً ستتم في العراق ، في نهاية المطاف . وأن العمل عليهما يجب أن يبقى سرياً ، وأن تظل (SRC) بعيدة عن الأضواء . لكنه طلب أيضاً أن تتقدم (SRC) خطوة إلى الأمام في ما تقدمه للعراقيين عادة ، وأن لا تكتفي بمجرد تقديم رسوم التصاميم بل أن تعمل أيضاً في تصنيع نماذج . مرة أخرى وافق بول . كان العراقيون متأثرين جداً من تجاوب بول ، وبالأخص سعدي والوزير ، حسين كمال ، صدام حسين يطلب دائماً المستحيل ، وكان بول واحداً من قلة يستطيعون تحقيق ذلك .

اهتمام بول العميق وقدرته على تحليل وتأويل المعلومات الجديدة ، جعلته رفيقاً ساحراً . يقول أحد زملائه : « كان قادراً على التكلم بأي موضوع . كان يعرف الكثير عن الأثريات والرسم . سمعته مرة يتكلم طوال ساعة عن تزاوج الحيوانات ، مستحوذاً على انتباه كل الموجودين . لم يكن هذا الرجل يعرف كيف يكون مملاً » . بعد زيارة مواقع أعمال التنقيب والترميم في بابل ، كان بول قادراً على مناقشة سعدي بالهندسة المعمارية البابلية بالمقارنة مع الهندسة المصرية القديمة . سعدي الذي كان قد أصبح معتاداً على التعامل مع العلماء ، الذين لا يهتمون بشيء غير اختصاصهم ، لم يكن معجباً وحسب ببول بل أصبح مولعاً بشخصيته . وبدأ العراقيون يناقشونه على نطاق واسع في خطط إعادة إعمار البلد . وللمرة الأولى منذ ترك (CARDE) بدأ بول يشعر أنه ليس دخيلاً ، وأن العراقيين يشركونه في صنع القرار الحكومي . هؤلاء الناس قيّموا آراءه ونصائحه . شعر أنه مطلوب وأنهم بحاجة إليه ، فكان متحمساً للمساعدة بما يمكنه .

في أواخر آب/ أغسطس 1988 ، صحب سعدي د. بول في رحلة لمدة عدة ساعات إلى شمال بغداد ، حيث يوجد مجمع الصناعات الحربية ، الذي يُعرف باسم سعد 16 ، وهو المقر السري جداً لبرنامج تطوير الصاروخ العراقي . وبرغم أن جدول الزيارة كان مكثفاً ، اقترح سعدي القيام برحلة جانبية . الحاضر يجب مقارنته بالماضي ، قال ، وأخذبول إلى الضفة الشرقية لنهر دجلة لزيارة آثار نينوى ، أقدم مدينة لدولة الآشوريين .

ازدهرت نينوى في ظل حكم الملك سنحريب ، في القرن السابع ق.م تقريباً ، وظلت على مدى قرون مركز الحضارة والعلم في العالم . كانت مشهورة بامتلاكها أكبر مكتبة في العصور القديمة ، تشبّع بول بلون ودراما الماضي ، وأخذ يتأمل بمشاكل التاريخ : كيف انتهى إنجاز كهذا بهذه الطريقة ؟ ما الذي حدث للوعد ؟

أسوار المدينة ، المبني من الآجر والطين ، يحتوي 15 بوابة ، ورافق سعدي ضيفه إلى إحدى هذه البوابات ، في نهاية الرحلة . قرب البوابة كان هناك تمثالان منحوتان ، يرجعان إلى أيام سنحريب ، وقفا تحتهما ، وتحت أشعة الشمس الباهرة حدقا بالتمثالين اللذين يصوران ثورين مجنحين ضخمين . « حسناً » قال سعدي . « يمكن أن ترى أنك لست الـ (بول) الوحيد الذي زار نينوى » . وضحكا لهذه النكتة الصغيرة ، ثم بدت الجدية على ملامح سعدي . « د. بول » قال « أتمنى أن تساعد العراق للنهوض ثانية ، ليكون عظيماً مرة أخرى » .

ليس ممكناً معرفة كم خطط سعدي ليقوم بهذا الأداء الدرامي في نينوى ، لكن تأثيره على بول كان استثنائياً ، إذ أسرته رومانسية فكرة نهوض الحضارة من جديد ، من تحت غبار ورمال هذه التلال المقفرة . هنا يوجد تحدٍّ يستطيع الارتباط به .

كان صدام حسين قد استثمر أكثر من 200 مليون دولار في شراء التكنولوجيا الغربية لمجمع « سعد 16 » . لكن بعد فرض القيود التجارية وحظر بيع التكنولوجيا للعراق ، أصبح تأمينات الحاجيات التكنولوجية للمجمع صعبة ،

وازدادت صعوبة أكثر ، بعد نيسان/ إبريل 1987 ، عندما وقّعت الولايات المتحدة ، كندا ، فرنسا ، ألمانيا الغربية ، اليابان وبريطانيا نظام مراقبة تكنولوجية الصواريخ . وبموجب هذا النظام حظّر تصدير معظم الصواريخ وقطعها .

الآن ، وبينما هما متوجهان إلى المجمع السري ، اشتكى سعدي لبول ، بأن هذا النظام كان هدفه ضمان قدرة إسرائيل على الاستمرار في تطوير الصواريخ والقذائف الصاروخية لإطلاق أقمار اصطناعية ، وضمان عدم قدرة العرب على فعل ذلك . وأشار سعدي إلى أن إسرائيل أنهت قبل سنوات تطوير الصاروخ (Jericho-I) ، بمدى يبلغ 950 كلم ، وهي بدأت منذ 1987 باختبار نموذج أحدث (Jericho-II) بمدى يُعتقد أنه لا يقل عن 1400 كلم .

في مطلع الثمانينات حصل العراق من الاتحاد السوفياتي على حوالي ألف صاروخ « سكود ـ ب » أرض ـ أرض ، الذي يبلغ مداه 300 كلم تقريباً . وبتفكيك عدد من صواريخ سكود واستخدام قطعها ، كان العراق قادراً على تعديل الصاروخ لزيادة قوته الدافعة وكمية وقوده ، وتخفيض وزن رأسه الحربي . وقد استلزم استخدام 300 سكود لصنع 190 سكود معدلاً ، الذي أطلق عليه اسم « الحسين » . كان مدى الصاروخ المعدل يصل إلى 600 كلم ، وبشكل عام كان يمكن أن يسقط في دائرة قطرها كيلومتر حول الهدف . لم يكن صاروخاً يمكن استخدامه ضد هدف محدد ، لكنه مناسب للاستعمال إذا كان الهدف إنزال أكبر قدر ممكن من الضرر بمدينة ما . فالحفرة التي يسببها الصاروخ عند سقوطه تبلغ حجم بركة سباحة .

العديد من المدن العراقية تقع على طول الحدود مع إيران، وخلال عام 1987 استهدف الإيرانيون هذه المدن بقصف شبه دائم بواسطة القذائف المدفعية والقذائف الصاروخية . وفي مطلع 1988 ، بعد أيام قليلة من رحلة بول الأولى إلى بغداد ، أعلن العراق ، بعد أن أصبحت صواريخ « الحسين » جاهزة ، عن بدء « حرب المدن » . يستطيع « الحسين » الوصول إلى معظم المراكز الرئيسية في إيران ، وفي حين لم يكن « سكود ـ ب » قادراً على ذلك . هذه الحرب ، ضمن الحرب ، استمرت 51 يوماً وانتهت بتراجع الإيرانيين .

بالنسبة للعراقيين ، كان « الحسين » نجاحاً ساحقاً ، واستخدامه في مهاجمة ست مدن ، أدى إلى تدهور المعنويات وإلى فرار حوالي ربع سكـان طهران البـالغ عددهم 10 ملايين نسمة، إلى مناطق ريفية.حوالي2000 إيراني قُتلوا و 4000 آخرون جُرحوا ، في حين لحق الضرر النفسي بالملايين . صـدام حسين كان مسروراً بالنتائج ، وهذا النجاح ، أكثر من أي شيء آخر ، كان وراء طلب صدام توجيه كل الجهود بهدف امتلاك صواريخ أكثر تقدماً ، بمدى أكبر ، بدقة إصابة أكبر ورأس حربي أقوى . « حرب المدن » أقنعته بأن الصواريخ ، ومهما كانت محتويات رؤوسها الحربية ، هي المفتاح للسيطرة على الشرق الأوسط . وفي عام 1991 ، كان أول تكتيك قتالي استخدمه صدام في حرب الخليـج ، هي إطلاق صواريخ سكود المعدلة على مدن إسرائيلية وسعودية .

في خـريف 1987 ، بدأ العـراقيون العمـل على النموذج الأكثـر تطوراً من « الحسين » ، والذي سيطلق عليه اسم « العباس » . وكان العمل على تطوير هذا الصاروخ يقع ضمن مسؤولية حسين كامل وسعدي . مجهزاً بنظام توجيـه برازيلي الصنع أثبت « العباس » أنه أكثر دقة من « الحسين » ، إذ أن دائرة سقوطه لا تتعدى الـ 500 متر من الهدف ، حتى عند بلوغه مداه الأقصى . ومع ذلك لم يكن « العباس » أكثر من نموذج أكثر تطوراً من « سكود ـ ب » .

عندما زار بول مجمع « سعد ـ 16 » ، كان العراقيون يعملون على ثلاثة أنـظمة صـواريخ . الأول كـان مشروعـاً مشتركـاً مع الأرجنتين ومصـر لإنتـاج صاروخ ، يعرف في الغرب باسم « كوندور ـ 2 » ، وفي العراق باسم « بـدر ـ 2000 » . لهذا الصاروخ مدى يقدر بـ 950 كلم ويمكنه حمل شحنة متفجرة زنتها 450 كلغ .

نظام الصاروخ الثاني ، قال سعدي لبول ، مختلف جداً . هو النظام نفسه الذي طلبوا من بول المساعدة في تصميم مرحلته الصاروخية الأولى ، وغايتـه وضع أقمار اصطناعية في المـدار . على الأقل بعض الأقمار الاصطناعية التي ستطلق ستكون مهمتها الرصد وجمع معلومات ، قال سعدي ، وبذا سيكون له استخدام عسكري غير مباشر . لكن ليست هناك نية لجعل هذا النظام مـلائماً لإطلاق رأس حربي واستخدامه كسلاح . على أي حال ، تابع سعدي كلامه ،

هناك نظام صاروخ أخر من ثلاث مراحل يجري العمل عليه ، وهو مخصص لاستخدامه كسلاح . وسيكون مداه أكثر من 1600 كلم .

طوال فترة الحرب الإيرانية ـ العراقية قامت دول ، مثل الصين وفرنسا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، بإمداد العراق بحاجاته العسكرية . كان رونالد ريغان قد بدأ ينظر إلى صدام باعتباره الزعيم العربي الوحيد القادر على مواجهة التعصب الديني والسياسي لنظام آية اللّٰه الخميني في إيران ومعمر القذافي في ليبيا . وقد غض ريغان الطرف عن السياسة العراقية الداخلية وأعاد العلاقات الدبلوماسية كاملة بين واشنطن وبغداد عام 1984 (كانت قد قطعت احتجاجاً على الإرهاب والتعذيب) ، وأجاز كفالات قروض أميركية لضمان مشتروات عراقية ببلايين الدولارات ، من القمح ، والبضائع الأميركية الصنع . المزارعون والشركات الأميركية الذين جنوا أرباحاً كبيرة من التجارة مع العراق أصبحوا « لوبي » مؤيداً للعراق ، يعمل للحفاظ على استمرار النظام .

الكويت ، الغنية بالنفط ، كانت إحدى الدول العربية العديدة التي أقلقتها الثورة الإسلامية في إيران . وهي أقرضت العراق ما يُقدر بـ 15 بليون دولار لدعمه في حربه ضد إيران . كما كانت نقطة ترانزيت هامة للأسلحة المشحونة إلى العراق . لم يكن لدى الكويت أية أوهام عن طبيعة نظام صدام لكنها رأت أنه أهون الشرين .

الأردن ، المحشور بين إسرائيل والعراق ، كانت لديه متاعب أخرى . ربط الملك حسين نفسه بصدام ليوازن كفة الميزان مع إسرائيل . كان يأمل أنه عند انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية ، سيركز صدام جهوده على التنمية الاقتصادية ، الأمر الذي سيؤدي إلى إنعاش الاقتصاد الأردني . كان الملك حسين راضياً جداً بأن تلعب بلاده دور القناة التي تمر عبرها الأسلحة إلى العراق .

لكن مع انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية ، لم يقم صدام بتسريح قواته . وبدا أن الثورة الإيرانية ما عادت تشكل خطراً بارزاً على دول الخليج . وأخذ صدام يطلق التهديدات ضد إسرائيل . وفجأة أصبح صدام الخطر الأكبر على المصالح الأميركية .

الرئيس الأميركي المُنتخب حديثاً ، جورج بوش ، أخذ يولي اهتماماً أكثر لسياسات صدام حسين ، الخارجية والداخلية . وبين ليلة وضحاها ، تقريباً ، حوّلت واشنطن موقفها من دعم صدام إلى محاولة الحد من قوة صدام ، بل وتشجيع أولئك الذين يريدون إسقاطه .

بدأت الولايات المتحدة حملة لإجبار الأرجنتين على الإنسحاب من مشروع « بدر ـ 2000 » ، وتم فرض نظام مراقبة تكنولوجيا الصواريخ بشكل صارم . ورأت إسرائيل أن من بين أعدائها الكثر، فإن العراق هو الأخطر عليها . وكان جهاز الاستخبارات الإسرائيلي ، « الموساد » قد توصل إلى قناعة ، في صيف 1988 ، بأن العراق عاد من جديد لإحراز تقدم جدي على طريق امتلاك أسلحة نووية ، في حين أنه يملك بالفعل كميات كبيرة من الغاز السام ، وحتى أسلحة بيولوجية . ما لم يكن يملكه العراق هو نظام إطلاق كبير ، بعيد المدى ، دقيق ، يعول عليه . ولذا لم يكن مفاجئاً أن يضع الإسرائيليون مشروع الصاروخ العراقي على رأس لائحة الأهداف المطلوب ضربها .

في كانون الثاني/ يناير 1988 ، وضُحت الاستراتيجية والأساليب الإسرائيلية ، عندما بدأ العراقيون والمصريون معاً بالعمل سراً لامتلاك معدات تكنولوجية متقدمة لاستخدامها في تطوير الصاروخ . كان هذا العمل يتم تحت إدارة العقيد المصري حسام يوسف ، الذي أقام له مكتباً في سالزبورغ النمسا . وكان يدير شبكة من العملاء في الولايات المتحدة ، بينهم عبد القادر حلمي ، وهو عالم صواريخ أميركي ، من أصل مصري . كانت مهمة يوسف الحصول على كيماويات تدخل في تركيب الوقود الصاروخي ، مواد مصنوعة من الفيبر الفحمي ، فولاذ لصنع أغلفة الصواريخ ، أجهزة تتبع عن بعد ، وخطط تركيب أجزاء نظام صاروخ تكتيكي . ولاحقاً استنتج محللو وزارة الدفاع الأميركية ، من « لائحة مشتروات » يوسف أن العراقيين والمصريين كانوا يسعون لبناء صاروخ ذي نظام داسر مشابه للصاروخ الأميركي من طراز « بيرشينغ ـ 2 » .

خلال الشهور الأولى من السنة ، أصدر يوسف لعملائه في الولايات المتحدة أوامر شراء ، وحوّل إليهم حوالي مليون دولار ، عبر شركة تتخذ من سويسرا مقراً ، ويرأسها ايكهارد شروتز .

وجـد حلمي أن لا صعوبـة في شراء مـا يحتاجـه العراق في الـولايـات المتحدة ، ما دام المنتجـون يظنـون أن منتجاتهم ستُستخـدم داخل الـولايات المتحدة . المشكلة كانت في إخراج هذه المواد من البلاد بدون رخصة تصدير . وكان الحل بتهريبها على متن طائرة السلاح الجوي المصري (C120) التي تطير من مطار بالتيمور الدولي إلى مطار القاهرة ، مرة كل أسبوع تقريباً .

كانت عمليات الشراء تجري ، وبدا أن الخطة تسير على ما يرام ، عندما زار ايكهارد شروتز فرنسا ، وكان في الساعة الثالثة صباحاً ، في 27 أيار/ مايو نائماً في سريره . عندما فُجّرت قنبلة موضوعة تحت المقعـد الأمامي لسيـارته البيجو ، بواسطة جهاز تفجير عن بعد . بعد ساعات على الحادثة ، اتصل رجل يدّعي الانتماء إلى مجموعة إيرانية اسمها « حراس الإسلام » ، بوكـالة الأنبـاء الفـرنسية ، في بـاريس ، ليقول إن القنبلة كـانت بهدف معـاقبة شـروتز على مساعدته برنامج الصاروخ العراقي . الرسالة كانت واضحة : كان بإمكاننا قتلك لكن قررنا إعطاءك فرصة أخرى . لا تكّرر الخطأ نفسه ثانية .

في اليوم نفسه ، قام مخبر مجهـول بتزويـد سلطات الجمارك الأميـركية بمعلومات تفيد بأن يوسف يدير حلقـة غير شـرعية لشـراء تكنولوجيا عسكرية محظورة . وقد أعطى هذا المخبر المجهول اسم حلمي ورقم هاتفه . ويبدو أن هذا المخبر كان معروفاً من السلطات الأميركية لأن معلوماته أُخذت بجدية .

تمت مراقبة هاتف حلمي ، وفي 3 حزيران/ يونيو تم تسجيل مكالمة من يوسف يقول فيها : « أناس معينون حاولوا التخلص منا ، وضعوا شيئاً في سيارة للشركة وانفجرت » وشكك يوسف بأن يكون للإيرانيين يد . قال « نشتبه بأولئك الذين يجاوروننا . الطريقة التي نُفّذت فيها العملية ، بواسطة جهاز تحكم عن بعـد ، تشيـر إلى أن البلد الـذي يجـاورنـا هـو المتهم » . بجـوار مصـر توجد إسرائيل .

في مطلع حزيـران/ يونيـو كان حلمي وآخـرون قد جمعـوا 28 طناً من الأدوات والمعدات الضرورية التي يحتاجها مشروع الصاروخ العراقي ـ المصري المشتـرك . لكن في الرابـع والعشرين من الشهـر نفسه قـام مسؤول الجمارك

الأميركية بإلقاء القبض على حلمي بتهمة محاولة تهريب قطع صواريخ ممنوع تصديرها . وفي النهاية اعترف حلمي وأُدخل السجن .

لم يكن أمراً عرضياً أن تتم زيارة بول إلى « سعد ـ 16 » بعد ثلاثة أسابيع فقط من تحطيم شبكة التهريب بشكل فعلي . كان هناك في وقت كان العراقيون يمرون بأزمة ويتطلعون إلى أية مساعدة ممكن الحصول عليها لتسريع وتيرة برنامج صاروخهم البطيئة . وقبل أن يغادر بول « سعد ـ 16 » وعد بمضاعفة جهوده بالنسبة لمشروع « بيرد » .

في بروكسل ، وجد بول أن كاولي قد حقق تقدماً جيداً في إبرام عقود لصنع أجزاء المدفع العملاق . بعض القطع الصغيرة تم التعاقد على صنعها مع شركات في ألمانيا الغربية ، أسبانيا ، إيطاليا واليونان ، لكن العقود الرئيسية ذهبت لشركات في بريطانيا ، حيث يعرف كاولي السوق .

في هذه الأثناء كانت الأقاويل والإشاعات حول تأسيس (ATI) وزيادة عدد الطاقم العامل ، وحول قيام بول بشراء أجزاء فولاذية لصالح العراق ، تنتشر وسط صناعة الأسلحة البلجيكية . حتى شركاء بول القدامى في (PRB) كانوا يحققون بالأمر . كانت مسألة وقت فقط قبل أن تنتشر الروايات وتصل إلى السفارات الأجنبية ، حيث الملحقون العسكريون سيلتقطونها بالتأكيد .

كان بول يدرك أن انكشاف « مشروع بابل » سيؤثر سلباً على مستقبله . لكن من ناحية أخرى ، إذا حاول الحفاظ على السرّية سيزداد الشك بأنه يخبىء سلاحاً عملاقا . فقرر أن يخبر الحكاية بكاملها لأجهزة الاستخبارات التي يمكن أن تكون الأكثر اهتماماً ، ويترك الخطوة التالية لها .

دبّر بول اجتماعاً مع مصادره في (PRB) وشرح لهم بالتفصيل مشروع المدفع العملاق . أكثر من ذلك ، سألهم ما إذا كانوا يوافقون على صنع الداسر لمشروع « بابل » . لأنها دائماً بحاجة للأعمال ، وافقت (PRB) فأبرم العراقيون عقداً معها ، لعب فيه الأردن دور الوسيط . أدرك بول أن إشراك (PRB) في المشروع سيضع حداً للروايات التي تنشرها في أوساط عالم تجارة الأسلحة في بلجيكا . خمّن بأن مسؤولي الشركة سيعملون على حماية مصالحهم . فيسرعون

بإعلام جهاز الاستخبارات البلجيكية بالأمر .

في مطلع أيلول/ سبتمبر كان بول قد اتصل بأصدقاء له في السفارة الإسرائيلية في باريس ، وقدم لهم لمحة عن مشروع بابل . أصر بول على أن هذا المشروع لا يمكن استخدامه كسلاح على الإطلاق ، وليست له غاية غير إطلاق أقمار اصطناعية . أصغى الإسرائيليون بلباقة واقترحوا احتمال تنظيم اجتماع لاحقاً لمناقشة الموضوع أكثر .

بعد أسبوع من الاجتماع مع الإسرائيليين ، دبّر كاولي عبر اتصالاته الخاصة ، لقاءً مع ضباط الاستخبارات البريطانية . أدرك بول أن عليه إعلام الاستخبارات البريطانية لأن الجزء الأكبر من المدفع سيصنع في انكلترا، ثم إن بلجيكا وإسرائيل ستقومان بالتأكيد بإعلام جهاز الـ (M16) . اعتقد بول أنه سيكسب المزيد من المصداقية إذا أخبرهم بنفسه . يقول كاولي : « كنت في الغرفة عندما عرض بول الموضوع على الـ (M16) . لقد أخبرهم عن كل شيء » . لكن مرة ثانية ، كانت ردة الفعل بسيطة جداً .

في الوقت نفسه تقريباً ، اتصل بول بصديقه القديم في واشنطن ، الجنرال آرثور ترودو ، الرئيس السابق لاستخبارات الجيش الأميركي ، ووضعه في تفاصيل مشروع بابل ، لتمريرها إلى البنتاغون .

مع انقضاء الأسابيع ، واستمرار العمل على صنع المدفع العملاق ، بدأ بول يشعر بالارتياح من جديد . لم يتصل به الإسرائيليون لطلب المزيد من الإيضاحات . ولم يوقف البريطانيون العمل على السبطانات . بدا لبول أن الغرب لا يهتم بمشروع بابل ، رغم أنه كان واثقاً أن الجميع سيريدون الحصول على مدافع عملاقة عندما سينجح في إثبات صحة فكرته والكلفة البخسة لتحقيقها .

18

ليس قبل وقت طويل سيدرك جيرالد بول دلالة زيارته إلى « سعد ـ 16 » في صيف 1988 . ولكنه عندما أدرك ذلك ، كان الوقت متأخراً جداً . لأنه الآن أصبح متورطاً بعمق ، عاطفياً وتكنولوجياً ، وما عاد قادراً على تحرير نفسه بسرعة . لكنه عندما سيحاول ذلك سيلاحقه قتلة محترفون .

لكن بالعودة إلى مطلع صيف 1988 ، كان بول ما يزال آمناً . صحيح أنه كان يصمم أنظمة مدفعية فتاكة لبغداد ، وأنه يعمل على المدفع العملاق ، لكن ذلك لم يكن ليسبب الكثير من الإزعاج لأعداء العراق . المدفعية التقليدية يمكن شراؤها من الأسواق المفتوحة . أما بالنسبة للمدفع العملاق ، فإن خبراء الحرب في الشرق الأوسط قرروا أنه ليس سلاحاً ، لا يمكن تصويبه ، وكان معرضاً للهجوم المضاد ، وثم إنه سيحتاج إلى سنوات قبل أن يصبح جاهزاً للإطلاق . بعض المصادر تقول إن علماء إسرائيليين درسوا « مشروع بابل » ورأوا أنه لن يكون قادراً على وضع قمر اصطناعي للتجسس في المدار ، لأنه لا توجد كاميرا ، عالية الكفاءة ، قادرة على تحمل صدمة الإطلاق بواسطة مدفع . بالنسبة للإسرائيليين ، كان المدفع العملاق ، نهاية الطريق لصدام حسين ، وكانوا سعداء لرؤيته يهدر المال في محاولة صنعه .

إذن ، وإلى ما قبل زيارة « سعد ـ 16 » كان بول آمناً مثل أي صانع أسلحة آخر ، لكن الزيارة غيرت الوضع ، لأن بول قطع ، عن غير قصد ، الخط الفاصل بين الأسلحة التقليدية والأسلحة غير التقليدية . الزيارة فتحت عليه عيون أولئك المصممين على إبقاء أنظمة الصواريخ الكبيرة والدقيقة بعيدة عن متناول يد صدام ، وبأي ثمن .

خلال زيارته عُرّف بول على مجموعة من العلماء البرازيليين الذين وضعوه في تفاصيل « الحالة المؤسفة » لبرنامج الصاروخ العراقي . وكانت مفاجأة لبول عندما علم أنه لا توجد أبحاث عراقية أصيلة. فالنجاح الوحيد الذي حُقق، مع صاروخي « الحسين » و« العباس » ، كان نتيجة تفكيك قطع صواريخ « سكود - ب » لاستخدامها من جديد ، وحتى هذا الشيء قام به علماء أجانب ، معظمهم ألمان غربيون ومصريون. كان «سعد - 16» مشروعاً غير عادي تتوافر فيه أحدث التكنولوجيا الغربية ، لكن العراقيين لم يكونوا يعرفون حتى تشغيل بعض آلات المختبر . واستنتج بسرعة أن العلماء العراقيين ليسوا على مستوى كاف من العلم والتدريب والتقنيين لا يعرفون وظائفهم . « إنه عار » قال بول لزملائه في بروكسل « هؤلاء التعساء لا يعرفون حتى كيف يصنعون برغياً واحداً » .

الآن أُخبر بول أن العراقيين على وشك التخلي عن مشروع « بدر 2000 » الصاروخ البالستي ذي المرحلتين - لأن الأرجنتينيين لم ينفذوا وعدهم بصنع جهاز التوجيه ، والمصريين لم يوفروا المعدات التقنية العالية اللازمة للبناء التي وعدوا بتأمينها . كان المشروع متأخراً جداً عن موعده . وملّ صدام من سماع الأعذار وطلب تركيز الجهود على المشاريع الممكنة أكثر .

كان البرازيليون قد جاؤوا إلى « سعد - 16 » مقابل رواتب ضخمة لتدريب الفيزيائيين العراقيين وللعمل مباشرة في مشروع « العبد » ، النظام الصاروخي ذي المراحل الثلاث الذي كان صدام يأمل أن يكون قادراً على إطلاق قمر اصطناعي ، وهو المشروع الذي سبق لبول أن وعد بالمساعدة فيه . لكنه الآن ، سمع من البرازيليين ، ما كان قد سمعه من سعدي ، بأن العمل جارٍ على نظام صاروخي ذي ثلاث مراحل أُخر ، والذي سيحمل اسم « تموز - 1 » ، وهو صاروخ بالستي قادر على حمل رؤوس حربية ويزيد مداه عن 1500 كلم . « العبد » و« تموز - 1 » أعطيا الأولوية القصوى في العمل داخل « سعد - 16 » ، وهناك محاولات لإيجاد اتصالات جديدة مع شركات ألمانية غربية وفرنسية .

البرازيليون كانوا يعرفون عن « مشروع بابل » ، وسألوا بول عن مدى التقدم المحرز حتى الآن . كان مليئاً بالحماسة والتفاؤل ، أغفل ذكر المشاكل وتحدث عن الإنجازات . وخلال ساعات قليلة كان قد رفع معنويات علماء

الصواريخ ، وهذا ما أفرح العراقيين ، فهو لم يلهم مستمعيه فحسب بل أيضاً قدم دفعاً من الأفكار الجديدة للتعامل مع المصاعب .

كان بول يعرف القليل عن الاليكترونيات ، لذا لن يكون مفيداً كثيراً بما يتعلق بأجهزة التوجيه . وكان تقريباً لا يعرف شيئاً عن حمولات الرؤوس الحربية ، لذا لا يمكنه تقديم أي مساعدة في تطوير أسلحة نووية أو كيماوية . لكنه كان يعرف الكثير عن تصميم بدن الصاروخ وعن المخروط الأمامي وبعد يوم سمع خلاله الكثير من التملق في مختبرات « سعد ـ 16 » كشف بول عما لديه من خبرة . مع بعض المبالغة بالتأكيد .

في وقت لاحق ، تناهى إلى سمع أحد المهندسين العاملين مع بول ، حوار أشار إلى أن بول قد أقنع العراقيين بأنه لعب دوراً مركزياً بتصميم صاروخ مينوتمان . ليس الأمر أنه يتعمد الكذب ، لكنه يشطح كثيراً عندما يكون مركز اهتمام . حدث ذلك مراراً من قبل ، مثل تلك المرة التي سمعه ميشيل يخبر زملاءه أنه ساعد في إرساء سياسات الناتو .

لكن هنا ، في مجمع « سعد ـ 16 » كان هذا الاستطراد مختلفاً عن الاستطراد البريء وغير المؤذي عندما يتباهى في غرفة التصميم أو أمام العاملين لديه . هنا كان في مجمع محاط بجدران ترتفع 30 متراً عن الأرض ، مع بطاريات صواريخ مضادة للطائرات تنتشر بكثافة في المحيط . والمنشآت منخفضة وممتدة باتساع للتخفيف من الأضرار في حال تعرضت لهجوم بالقنابل .

وكان العراقيون يتلقفون بلهفة كل كلمة يقولها وهو يتحدث عن الشيء الذي يتحرقون لسماعه ، عن تصميم الصاروخ وتكنولوجيا المخروط الأمامي . مصادر الاستخبارات الإسرائيلية تؤكد أن كامل دعا بول لزيارة بغداد ، في المقام الأول ، للتأكد مما يعرفه عن الصواريخ . أما أنظمة المدفعية المتقدمة والمدفع العملاق فكانت أشبه بالعلاوات .

وبدون شك ، فإن بول وهو يتبجح ويتباهى أخبر العراقيين عن تجربته في مجال الصواريخ . ليس هذا فقط ، بل إنه ما يزال يحتفظ بالمعطيات والمعلومات من دراساته المكثفة لدخول المركبات الفضائية الغلاف الجوي من جديد . هذه

المعلومات عمرها 18 عاماً ، لكنها تظل أفضل من أي شيء يستطيع العراقيون الوصول إليه . أكثر من ذلك ، وكجزء من أبحاثه حول تصميم مقذوف للمدفع العملاق ، انشغل بول مرة أخرى في أبحاث تطوير المخروط الأمامي ، صحيح أنه ما يزال في المرحلة البدائية من تصميم المقذوف ، إلا أنه أصبح بالفعل مهتماً بالأشكال ، السرعات والمواد المصنوعة من ألياف الفحم الضرورية للبناء .

البروفسور ستيف فتر ، خبير تصميم الصواريخ في جامعة ماريلاند، يشرح : « الجزء التقني الأكثر صعوبة في إيصال حمولة صاروخ بالستي ، هو في جعل هذه الحمولة تدخل في الغلاف الجوي من جديد » . والجزء الأكثر أهمية في عودة المركبة لدخول الغلاف الجوي من جديد هو المخروط الأمامي ، الذي عليه تحمل الحرارة القصوى وأكبر قدر من الضغط .

لتحمل حرارة تصل إلى آلاف الدرجات المئوية ، يتم بناء المخروطات الأمامية من مواد مصنوعة من ألياف الفحم . ولأنه معروف أن بعض دول العالم الثالث ، مثل العراق ، تسعى إلى بناء صواريخ بالستية ، فإن المواد المصنوعة من ألياف الفحم محظورة وتخضع لقيود كثيرة .

جزء من معظم المخروطات الأمامية الحديثة ، المصنوعة من ألياف الفحم ، مصمم بحيث يتبخر عند دخول الغلاف الجوي من جديد بسرعة تزيد عن خمسة كيلومترات بالثانية . هذه العملية تعرف بـ « الاستئصال » ، وهي تساعد على حماية الرأس الحربي الذي تحمله المركبة عند دخولها الغلاف الجوي من جديد . خلال « الاستئصال » يتحول الفحم فوراً إلى بخار ، وعندما يفعل ذلك يتغير شكل المخروط الأمامي . وهذه نقطة حاسمة ، لأن شكل المخروط الأمامي يحدد اتجاهه ، وبالتالي يكون حيوياً لدقة إصابته . المخروط الأمامي الأكثر دقة هو ذاك الذي يتجاوز الاستئصال ويبقى متوجهاً في مساره . لكنه أيضاً الأكثر صعوبة للتصميم . فالتحدي الأكبر أمام مصممي المخروط الأمامي هو في القدرة على توقع شكل المخروط الأمامي عند الدخول مجدداً إلى الغلاف الجوي .

وافق بول على إعطاء سلسلة حلقات دراسية لعلماء عراقيين حول تصميم المخروط الأمامي ، ووافق أيضاً على المساعدة بإجراء الحسابات اللازمة

لمرحلتي الانفصال الثانية والثالثة لصاروخ إطلاق القمر الاصطناعي . بقيامه بهذا ، لا بد أنه كان عارفاً بأن الصاروخ القادر على إطلاق مركبة فضائية يمكن بسهولة استخدامه لإطلاق رؤوس حربية .

في الوقت الذي كان كامل يوقع بول في الشرك للمساعدة في تطوير برنامج الصاروخ ، فإنه كان أيضاً يشرك علماء آخرين (خصوصاً ألمانيين غربيين) في تطوير الأسلحة النووية والكيماوية . شركات صغيرة ، تستخدم كواجهات ، أقيمت في كل أنحاء أوروبا لشراء قطع محظورة لتمكين العراق من صنع نوابذ غاز خاصة به، وأجهزة لتحويل خام اليورانيوم الرخيص إلى يورانيوم 235 ، المادة الأساسية لصنع قنبلة نووية . لم يُشرّك بول أبداً في نقاشات حول الأسلحة النووية ، لكنه كان يعلم أن صدام قد أعطى أوامره لبدء برنامج متعجل لتجهيز قنبلة نووية واحدة على الأقل . واستناداً إلى مراقب مطلع في أوساط تجارة الأسلحة الأوروبية ، فإن صدام كان راغباً باستخدام هذه القنبلة ضد مدينة إيرانية لوضع حد للحرب بين البلدين ، لكن المساعدة الأميركية أنهت الحرب قبل الانتهاء من تجهيز هذه القنبلة . والآن ، يريد صدام الأسلحة النووية كتهديد لكل الآخرين في المنطقة . كان مستعداً ، بل ومتلهفاً ، لإعلام العالم بأن من يتلاعب معه سيتحمل تبعات الرد المريع .

لكن الإنجازات في المجال النووي كانت بطيئة الوتيرة . وكان بول على ثقة بأن العراقيين ما زالوا على مسافة عشر سنوات من امتلاك أسلحة نووية ، وأنهم سيزودون أي صاروخ قد يساعد في إنجازه برأس حربي من مواد تقليدية شديدة الانفجار .

كم كان صدام حسين قريباً من تطوير أسلحة نووية قبل الهجمات الجوية المكثفة التي شنتها قوات التحالف ضد منشآته النووية ، خلال حرب الخليج في كانون الثاني/ يناير 1990 ، يبقى غير معروف بالضبط . العديد من الخبراء الأميركيين يعتقدون أنه كان سيمتلك ترسانة نووية صغيرة ، على الأقل ، بحلول عام 1995 . على أية حال ، فإن بول على ما يبدو قد استبعد المسألة النووية من تفكيره عندما رجع إلى بروكسل .

إلى جانب الحسابات الرياضية المعقدة التي يحتاجها تصميم جسم

صاروخ والمخروط الأمامي ، هناك حاجة لتأمين مواد الليف الفحمي الضرورية لصناعة المخروط . ومع مطلع أيلول/ سبتمبر كان بول قد أصبح متورطاً في السعي لشراء مصنع قادر على إنتاج هذه المواد الضرورية جداً .

أغلب الظن أن بول كان على علم بشأن « شركة العربي للتجارة » ، وهي شركة مركزها بغداد ، تعتقد الاستخبارات البريطانية أنها كانت تحت سيطرة حسين كامل ، كما كانت الـ (M16) تعتقد أيضاً أن المهمة الرئيسية لكامل ، بصفته وزيراً للصناعة والتصنيع الحربي ، كانت إنتاج أسلحة نووية وأسطول من الصواريخ البالستية لحملها ، وإطلاقها .

في عام 1987 اشترت « العربي للتجارة » شركة « مجموعة التطوير التكنولوجي » (TDG) ، وهي شركة بريطانية قابضة لديها مكاتب في لندن . وبسرعة أصبح لـ (TDG) مجلس إدارة جديد أعضاؤه عراقيون ، بينهم د. فاضل خدهوم ، وهو مسؤول سابق في مؤسسة نصر الحكومية لصناعة الآليات ، والذي سيرد اسمه في البرلمان البريطاني بصفته ضابطاً في الاستخبارات العسكرية العراقية . وهو من اللحظة الأولى لوصوله إلى لندن سيكون تحت مراقبة دقيقة .

بانتقالها إلى أصحابها الجدد أصبحت (TDG) نشطة للغاية . في غضون أسابيع بدأت جهداً ، تكلل بالنجاح لشراء « ماتريكس تشرتشل » ، شركة لتصنيع مخارط متطورة . حوالي 11 بالمئة من أسهم ماتريكس بقيت في يد البريطانيين الذين يتولون الإدارة ، وباقي الأسهم بيد العراقيين . بعد وضع العراقيين يدهم على ماتريكس أصبحت معظم الطلبيات ترد من بغداد ، كما وصل فريق من المهندسين العراقيين الشباب وألحقوا بطاقم الشركة للحصول على تدريب خاص .

خلال السنة التالية كانت ماتريكس قد أمنت ثلاث طلبيات للعراق بلغت قيمتها 19 مليون جنيه استرليني ، ولاحقاً قبلت الشركة مشروعاً قيمته 26 مليون جنيه استرليني لإقامة مصنع لسك القوالب المعدنية في بغداد . وقد تم فتح اعتماد لهذا المشروع بواسطة كتاب اعتماد من فرع « بنكو نازيونالي ديل لافورو » في اتلنتا ، جورجيا ، الذي أُكتشف لاحقاً أنه أجاز بشكل غير ملائم اعتمادات

بـ 3 ملايين دولار للعراق .

بعض المخارط التي تعمل بواسطة كومبيوترات أُرسلت إلى مجمع الصناعات العسكرية في « الحلة » ، جنوب بغداد . كريستوفر كاولي رأى هذه المخارط تُستخدم هناك لصنع قذائف المدفعية عيار 155 التي صممها بول . معدات آلية بريطانية أخرى ، تصلح لصنع الأغلفة الخارجية للصواريخ أمنتها (TDG) لمجمع « سعد ـ 16 » .

ليس واضحاً كيف سمع بول ، للمرة الأولى ، بشأن مصنع « لير فان » في نيوتاونابي ، قرب بلفاست ، ايرلندا الشمالية ، لكنه في أيلول/ سبتمبر كان يدرس احتمال امتلاكه .

ميشيل كان في مونتريال في ذلك الوقت ، لذا قام د. بول بإجراء تحقيقات أولية لوحده . المصنع ، الذي يحتوي آلات حديثة الطراز لتصنيع الأجزاء الأساسية المركبة والمصنوعة من الألياف الفحمية الداخلة في صناعة الطائرات ، كان عاطلاً عن العمل منذ عام 1985 ، عندما أعلنت شركة « لير فان » إفلاسها .

قبل حوالي ستة شهور من ظهور اهتمام بول بهذا المصنع ، قامت شركة « ف.ج ويلسون (للهندسة) ليمتد » ، التي تصنع مولدات كهربائية تعمل بالديزل ، بشراء الآلات والمصنع بما يزيد قليلاً عن مليون جنيه استرليني ، ثم وضعت إعلانات لبيع الآلات . يقول ف.ج ويلسون « أخيراً وجدنا شركة بلجيكية تريد شراء التجهيزات ، لكنها مهتمة فقط إذا كانت الصفقة تشمل أيضاً المصنع » . الشركة البلجيكية كانت ، بالطبع ، شركة بول (SRC) .

شارك ستيفن والده الحماس لامتلاك المصنع ، لكن ميشيل كان أقل اطمئناناً . كان يعرف عن عجز « لير فان » مثلما كان يشك بأن والده قادر على القيام بشيء أفضل . لكنه كان مدركاً الحاجة لبدء عمل جديد بعيداً عن العقود العسكرية . والأهم ، أنه كان يبحث عن مجال أعمال يستطيع إمساكه باستقلال عن والده عندما ينتقل عائداً إلى مونتريال ، وهي خطوة حدد تاريخها في عام 1989 . وحتى يتحقق بنفسه سافر إلى بلفاست على متن طائرة « سيسنا » التابعة للشركة .

دُهش ميشيل إذ رأى في المصنع كل ما كان يبحث عنه ، والتكنولوجيا الموجودة أسرت خياله . « إنه مصنع يمكن تجديده خلال شهرين » . يقول . وكانت الفكرة أن يعاد فتح المصنع كنقطة إنتاج مواد مركبة وليفية فحمية تستخدم في صناعة الطائرات . ومن خلال أبحاثه الخاصة كان ميشيل يعلم أن العديد من كبريات شركات الطيران العالمية تقوم بإبدال أسطول طائراتها العتيقة ، وأن الطائرات الجديدة تستخدم المزيد من القطع المركبة والمواد الليفية الفحمية ، في حين أن هناك نقصاً في المنتجين . « كان المصنع ممتازاً ، والسوق تنتظر ، كانت الفرصة هائلة » يقول ميشيل .

طلب ويلسون 3 ملايين جنيه استرليني مقابل الصفقة ، فوافق د. بول وابنه ميشيل، دون أن يكونا على علم بما كان ويلسون قد دفعه قبل شهور قليلة. وقام ميشيل بوضع خطة عمل واستنتج أنهم يستطيعون السير قدماً في إتمام الصفقة إذا توافر لهم 4 , 3 ملايين جنيه استرليني نقداً ومليونا جنيه استرليني على شكل منح من مجلس التنمية الصناعية . وقد طمأن المجلس ميشيل أنه إذا نجح في تأمين المتطلبات الأخرى للصفقة فإن أموال المنح سيتم تأمينها ، لم يكن لدى (SRC) ميزانية احتياطية ، لكن د. بول قال إنه مستعد لتأمين 500 ألف جنيه استرليني من حساب المدفع العملاق في (ATI).

في رحلته التالية إلى العراق ، لترتيب الجانب المالي من المفاوضات بشأن مشروع « بيرد » والنظامين المدفعيين الجديدين ، عرض ميشيل الموضوع على كامل . أوضح الوزير أن الحكومة العراقية تلتزم سياسة عدم الاستثمار المباشر في شركات أجنبية . وعلى أي حال ، اقترح على ميشيل الاتصال بـ (TDG) . هذه الشركة ، قال كامل ، يسيطر عليها رجال أعمال عراقيون يمكن أن يقدموا له المساعدة .

بسرعة، أدرك ميشيل أن لمجموعة لندن روابط وثيقة مع الوزارة العراقية، وأنها قد تنفذ ما يريده الوزير . (TDG) وافقت على الدخول في شراكة مع شركة متفرعة عن شركة بول هي (SRC-Engineering) المسجلة في جنيف ، لتأسيس شركة ثالثة ، لتحمل اسم (CANIRA Technical Corporation) ـ CAN : تعود لكندا و IRA : تعود للعراق ـ ثم قامت CANIRA بدورها بتأسيس شركة

أخـرى (SRC- Composites) ، بـرأسمـــال مشتـرك بلغ 4 , 3 مــلايين جنيـه استرليني ، لاستخدامها في محاولة إعادة إطلاق مصنع « لير فان » .

في دراسة خطة عمل المشروع ، التي تألفت من مئة صفحة ، عرّف ميشيل (SRC- Engineering) بأنها شـركة سـويسريـة ، وجزء من مجمـوعة شـركات (SRC) . كتب في الدراسة : « المجموعة هي بالأساس مجموعة هندسية تنشط في مجال الهندسة الميكانيكية ، الايروديناميات ، البالستيات ، طيران الفضاء ، ومواضع أخرى ذات صلة » . هذا الـوصف أغفل بعنـاية حقيقـة أن مجموعـة شركات (SRC) تنشط كلياً تقريباً في مجال تصميم المدفعية . لكن إذا كـانت الطبيعة الحقيقية لـ (SRC) قد أغفل ذكرها في الدراسة فإن حقيقـة (TDI) قد قدمت بصورة مموهة كلياً ، إذا وُصفت بأنها « شركة انكليزية » لديها مكاتب في لندن « دون أي ذكر للعراق » .

أصـر ميشيل على إخبـار « مجلس التنمية الصنـاعية » خـلال الحوارات الخاصة أن لشركائه علاقات مع الحكومة العراقية ، لكن بدا أن ذلك لا يغير شيئاً بالنسبة للمجلس ، الذي ظل يوحي بعدم وجود صعوبة في توفير منحة المليوني جنيه استرليني . ومع اقتراب نهاية السنة ، بدا أن الصفقة على طريق الإنجاز ، ولم يشعر ميشيل من قبل بمثل هذا التفاؤل حيال الاحتمالات المستقبلية لمهنته .

وفي حين كان ميشيل سعيداً بالتطورات ، كان والده يزداد اهتماماً بالتقارير الواردة من مختبرات لورنس ليفيرمور ، في كاليفورنيا ، والتي تشيـر إلى تقدم الولايات المتحدة ، في مشروع مدفعها العملاق. كان الأميركيون قد قرروا عدم تزويد مدفعهم ببارود الدفع التقليدي ، الذي يفضله بول ، بل استخدام مدفع يعمل بطاقة الغاز . كان بول قد عمل على مدافع كهذه في (CARDE) ثم لاحقاً في « مـاك غيل » لكنـه تخلى عنها بـاعتبارهـا أدنى مستوى من المـدافع ذات الدفع التقليدي .

في مدفع غاز تتأمن القوة الدافعة بإشعال مزيـج من غاز الميثـان والهواء لضغط غاز الهيدروجين في حجيرة، ويندفع المقذوف بفعل الهيدروجين الساخن والعالي الضغط الذي يمزق حاجزاً حاجباً ويتمـدد مفجّراً طاقة ضخمة في فراغ أنبوب الإطلاق . واستناداً إلى حسابات أولية فإن المدفع ، الذي يتم العمل عليه

في ليفيرمور ، سيكون قادراً على إطلاق مقذوف وزنه حوالي طنين . القسم الأكبر من هذا الوزن يعود للمحرك الذي سيستخدم لتوجيه الحمولة في المدار ، ولمخروط أمامي لحماية الحمولة ، ولسبّاط معدني لجعل حجم المقذوف متناسباً مع السبطانة التي يبلغ قطرها متراً واحداً . وفي النهاية سيكون الوزن الصافي للمقذوف 350 كلغ . سرعة الإطلاق قد تكون بحدود 6 كلم بالثانية ، بما يكفي لإفلات المقذوف من جاذبية الأرض .

لكن ما أثار حنق بول تحديداً هو معرفته أن المشروع الأميركي قد سُمّي رسمياً بـ (Superhigh Altitude Research Project) أي اختصاراً (SHARP) ، وكأنهم يريدون القول إن مشروعهم سيكون « أعلى » من مشروع بول ، (High Altitude Research Project) - اختصاراً (HARP) - كان بول واثقاً أن الأميركيين اختاروا هذا الاسم لإغاظته .

وحسب الأقاويل التي وصلت لبول ، والتي ثبتت صحتها لاحقاً ، فإن الأميركيين خصصوا ميزانية تبلغ بليون دولار لأبحاث (SHARP) التمهيدية ، وكانوا يفكرون بتخصيص ميزانية تبلغ 6 بلايين دولار للتطوير في حال أثبت العمل الأولي أن صنع المدفع ممكن . كانت ميزانية هائلة مقارنة بالـ 25 مليون دولار التي خصصتها بغداد لمشروع بول . لكن ، وكما دائماً ، اعتقد بول أنه قادر على العمل بجزء بسيط مما قد يكلف بيروقراطية حكومية .

الخطط الأولية أظهرت أن (SHARP) سيجعل مدفع بول يبدو قزماً أمامه ليس فقط بالميزانية بل أيضاً بالحجم . ففي حين أن سبطانة مدفع بول مقرر أن تكون بطول 158 متراً ، فإن سبطانة المدفع الأميركي يمكن أن يبلغ طولها 700 متر . بالإضافة إلى ذلك ، فإن المؤخرة والأنبوب الذي سيستخدم لضخ ضغط الغاز سيكونان ذا قطر ضخم يبلغ 3,6 أمتار وبطول 800 متر . مما يجعل الطول الإجمالي للمدفع بحدود 1500 متر .

كان بول مصمماً على أن يكون أول عالم يطلق حمولة إلى المدار بواسطة مدفع . ثم إن الفكرة فكرته أولاً . واعتبر أنه في سباق مع ليفيرمور . وكان يعرف أيضاً أن العمل جارٍ على تطوير مدفع من طراز آخر ، يعرف بـ « المدفع المَلَفّ » ، في مختبرات « سانديا ناسيونال » ، في حين يقوم سلاح الجو

الأميركي بتطوير مدفع ينصب على سكة ، وكلها بهدف التوصل أخيراً لإطلاق حمولة إلى الفضاء . بعد ثلاثين عاماً منذ طرح أولاً هذه الفكرة ، بدأ الأميركيون الاهتمام بها أخيراً . حالياً تبلغ كلفة كل كيلوغرام يطلق إلى الفضاء بواسطة مكوك فضائي 10 آلاف دولار . باستخدام مدفع فإن هذا الكيلوغرام يمكن إطلاقه إلى الفضاء بكلفة لا تزيد على 600 دولار . ولبناء محطة فضائية ستكون هناك حاجة لنقل آلاف الأطنان من المواد إلى خارج الغلاف الجوي . ويمكن تخمين كم سيكون حجم التوفير في حال كان بالإمكان استخدام مدفع لإطلاق حمولات إلى الفضاء .

كان بإمكان بول رؤية أن أحلامه بدأت تتحقق ، لكن كان هناك احتمال كبير بأن يبقى خارج صورة هذا الإنجاز الباهر .

19

عاد بول إلى مونتريال للبقاء مع ميمي في عيد الميلاد عام 1988 ، في حين بقي ميشيل في بروكسل يعمل على وضع خطة العمل لتنشيط « فان لير » . لكن قبل مغادرته طلب بول من ابنه عقد اجتماع خاص معه . بعيداً عن المكتب .

صفقة المدفع العملاق كانت قد أحدثت شقاً واسعاً بين الأب والإبن ، ولكن منذ اتخذ ميشيل قرار العودة للاستقرار في مونتريال تحسن الجو بينهما كثيراً . وتعاملا مع المدفع العملاق بتجنب ذكره . وأيضاً كان مشروع « فان لير » في إيرلندا الشمالية قد أثار حماسهما ، وكانا متفقين على مردوده الإيجابي .

في النصف الثاني لعام 1988 ، كانت الصحافة الغربية بدأت تكثر نشر المقالات حول « وحشية » صدام حسين . وتم تقديم نظامه بصورة القاتل والطموح جداً لامتلاك المزيد من القوة الإقليمية . وهكذا أصبح صدام ، في غضون شهور قليلة ، « هتلر الثاني » ، والعراق « بلداً منبوذاً » . لكن جيري بول وابنه لم يصدقا ذلك . كانا قد رأيا سابقاً ما تقوم به الحكومات لتهجين الرأي العام . ومع ازدياد الانتقادات ضد صدام ، كان د. بول يتذكر ، بمزيد من التعاطف ، كيف شجعته الحكومة الأميركية للتعامل مع جنوب أفريقيا ثم ـ وفقط لإرضاء اللوبي المناهض للتمييز العنصري ـ تركته يدخل إلى السجن ، ولم تفعل شيئاً عندما كان يوصف بالعنصري ومهرّب المدافع .

كان بول يفضل أن يحكم استناداً لتجربته . وتجربته مع العراقيين لم تكن إلا إيجابية ، وإلى حد ما يهمه ، كانوا منفتحين ، ودودين وكرماء . واستنتج أن صدام كان ضحية حملة إعلامية حاقدة ، تماماً كما حدث له . والآن كان هناك

حافز آخر للبقاء في صف العراقيين : مصنع « لير فان » . في الواقع ، كان العراقيون يعرضون إعطاء (SRC) نصف الملكية مقابل قيامها بالإدارة وأعمال التطوير . لم تكن بادرة شهامة بقدر ما كانت عن قناعة ولغايات محددة .

قبل مسألة المدفع العملاق ، كان د. بول يشرك ميشيل في كل شيء ، لكن منذ تأسيس (ATI) بدأ ليس فقط بإخفاء الأسرار عنه ، بل أيضاً بتضليله لتجنب النقاشات بينهما. وفي مشروع امتلاك مصنع «لير فان»، كان هناك عنصر تضليل . ذلك أن الذي جذب اهتمام بول لامتلاك هذا المصنع كان بالدرجة الأولى ، أنه قادر على إنتاج الألياف الفحمية اللازمة لصناعة المخروط الأمامي لمقذوفه « مارتليت ـ 4 » الذي سيُستخدم في مشروع بابل . ولم يكن أمام بول وسيلة أخرى للحصول على هذه المادة .

وكان هناك المزيد . كان د. بول عارفاً بالسبب الحقيقي الذي دفع العراقيين للاستثمار في مصنع « لير فان » ، وهو أنهم رأوا إمكانيات بعيدة الأمد بأن تقوم الشركة بتوفير المواد اللازمة لصنع المخروط الأمامي لصواريخهم البالستية . لم يذكر بول شيئاً عن هذا لميشيل ، وظل ميشيل مصراً على أن والده أراد المصنع لأسباب مشروعة . لا يصدق ميشيل أن والده كان ينوي تأمين الألياف الفحمية للعراق .

اعتقد ميشيل أن العراقيين يريدون حصة في « لير فان » ليكون قاعدة لتدريب مهندسيهم على تصنيع المركبات والألياف الفحمية . وبرغم كل شيء ، فإن هذه المنتجات تدخل في إطار صناعة البتروكيماويات ، وهي الصناعة التي يطمح العراقيون لتطويرها . وعندما سيمتلكون الخبرة الكافية ـ وكان ميشيل يفترض أن ذلك سيحتاج لعشر سنوات ـ فإن العراقيين قد يفتحون مصانعهم الخاصة بهم في العراق . وحتى ذلك الحين ، فإن مصنع « لير فان » قد يصبح مصدراً مالياً مضموناً يتيح لعائلة بول تغيير ميدان عملها والخروج من صناعة الأسلحة . كان المصدر الذي سيكفل توفير الكافي بحيث يستطيع والده التفرغ كلياً لأبحاثه العلمية .

لكن الآن ، وبينما الأب والابن جالسان على البار في فندق صغير لتبادل

الحديث الخاص ، كانت هناك مشاكل أخرى تتطلب حلولاً . وبرغم أن ميشيل كان يرفض النقاش مع والده بشأن مشروع بابل أو(ATI)إلا أنه ظل منفتحاً لإعطاء نصائح تتعلق بالإدارة .

كان د. بول قلقاً من كريستوفر كاولي ، مدير مشروع المدفع العملاق . كاولي كان يعرف عمله وقد أنجز عملاً متقدماً ، على المستويين التكنولوجي والتجاري . لكن هناك مشكلة تتعلق بشخصيته . قال بول إن عجرفة كاولي تزعج العراقيين وتهدد انسجام مشروع بابل . قال ميشيل إن الحل بطرده . « إذا طردت كاولي » قال بول « سوف يخبر الجميع عن مشروع بابل » . كانت ورطة محيرة . ففي حين أن مشروع بابل أصبح معروفاً بين وكالات الاستخبارات ، إلا أنه ما يزال مخفياً عن الرأي العام . وكان بول يخشى أن يتوقف المشروع في حال قام كاولي بإخبار الصحافة عنه . ففي أقل الاحتمالات سيكون هناك تحقيق علني في بريطانيا حول المشروع . إذن ، قال ميشيل ، عليك القبول بمميزاته الشخصية كجزء من ثمن القيام بأعمال سرّية .

أراد بول أن يعرض على ابنه إلحاق كاولي بـ (SRC) من جديد ، وأن يعهد إليه بمشروع ما ، وإذا اضطر أن يخترع واحداً لهذه الغاية . لكن ميشيل لم يكن ليسلك هذا الدرب ، فلديه ما يكفيه من المتاعب بسبب سياسات والده المتهورة في توظيف العاملين لديه . في مطلع هذه السنة ، وظف د. بول خبيراً بالرياضيات في (SRC) وظهر لاحقاً أنه كارثة ، يسبب إزعاج الطاقم ويرتكب الكثير من الأخطاء . طلب ميشيل من والده أن يقوم بطرده ، لكن بول الذي يكره إزعاج أحد رفض. بعد أيام قليلة من هذا الاجتماع مع ميشيل عاد بول إلى كويبك لقضاء عطلة عيد الميلاد ، واكتشف ميشيل أن هذا الخبير بالرياضيات ارتكب خلال عمله في عقد صغير خطأ من النوع الذي يضر كثيراً بسمعة الشركة . غاضباً ، اتصل ميشيل بوالده في مونتريال وأخبره التفاصيل ، لكن د. بول قال إنه سيفكر بالأمر . في اليوم التالي اتصل بول وقال : « كنت أفكر بمشكلتك . . . » فقاطعه ميشيل « توقف هنا . إنها ليست مشكلتي . إنها مشكلتك » . « على أي حال » تابع بول « أفضل ما تقوم به هو طرد هذا الفتى وجعله يغادر المكتب فوراً » .

في بداية السنة الجديدة طلب ميشيل من هذاالرجل الاستقالة ، فقدم

استقالته وتم قبولها ، وأُعطي مهلة عدة أيام لتوضيب حاجياته وإفراغ مكتبه . في تلك الليلة اتصل بول ، الذي كان مقرراً أن يعود إلى بروكسل في اليوم التالي ، لمعرفة ما إذا كان ميشيل قد أنهى الموضوع . لكنه الآن قال إنه سيحتاج للتوقف في لنـدن لإنجاز أعمال لم يحددها . ومن لندن اتصل بميشيل ليعرف ما إذا كان الرجل قد غادر المكتب نهائياً. في النهاية ، ابتعد بول مدة أسبوع مفضلاً أن لا تلتقي عيناه بعيني الموظف المطرود . « يمكنك أن ترى ، أن والدي كان ناعماً بالفعل حيال أمور كهذه » يقول ميشيل « لم يكن قادراً أبداً على طرد موظف ولم يكن قادراً على قول لا لزبون » .

بينما كان في أميركا الشمالية ، زار بول واشنطن مرة أخرى ، وتحدث مع الجنرال ترودو ، الذي كان الآن في أواخر العقد السابع من العمر وبحالة صحية سيئة . أراد بول أن يكتب مذكرات ترودو . وأراد أيضاً التحدث مع وليام غيل ، الرجل ذو العلاقات القوية في أوساط واشنطن ، والـذي كلّفه بـول بمساعـدته للحصول على عفو . كان العمل للعراقيين يبقي بول مشغولاً لكن فكرة احتمال حصوله على عفو كانت ترد دائماً على ذهنه . ترودود وغيل أبقيا هذه الفكرة حية وشجعاه للتصديق أنها ممكنة التحقق .

وأراد بول أيضاً أن يناقش ترودو في مفهوم جديد . فقال له إنه خلال تصميم « بابل الصغير » اكتشف كاولي أن خليط الفولاذ الذي طورته (ATI) كان قوياً بما يكفي وخفيفاً بما يكفي لصنع مدفع ذي ارتداد أقل بكثير . أكثر من هذا فإن خفة المعدن تعني امتلاك سبطانة « بابل الصغير » البالغ طولها 45 متراً قدرة حركية معينة . وبرغم أن « بابل الصغير » قد صنع ليكون نموذجاً تجريبياً ينصب بشكل أفقي على سكة ، إلا أن بالإمكان تصميم مدفع مشابه بسبطانة يبلغ طولها 30 متراً ويمكن رفعها إلى الأعلى واستعمالها للإطلاق باتجاه هدف محدد . كان بول في مواجهة احتمال لم يتوقعه . إذ قد يكون ممكناً تعديل « بـابل الصغيـر » وجعله سلاحاً : قطعة مدفعية ذات مدى مذهل . الحسابات الأولية أظهرت أن بالإمكان إطلاق قذيفة تقليدية إلى مدى 750 كلم . باستخدام التكنولوجيا المتوفرة لدى واشنطن ، قد يكون ممكناً تطوير قذيفة موجهة ذات دفع صاروخي مساعد بما يوفر مدى أبعد بكثير مع إصابة بالغة الدقة .

لم يكن صعباً أبداً إقناع الجنرال ترودو بقيمة المدفعية البعيدة المدى . لقد كان من الداعمين الأوائل والأكثر حماساً لمشروع (HARP) . وكان الآن متحمساً بقدر بول لاحتمال « بابل الصغير » المعدَّل ، بالتأكيد أن مدفعاً كهذا سيقبله الناتو بحماسة . وفي الحقيقة ، اعتقد ترودو أنه سيكون الاختراق الذي سيجبر الولايات المتحدة على فتح ذراعيها مرة ثانية لجيري بول ، وترحب بعودته إلى حيث يعتقد ترودو أنه ينتمي : عالم كبير يعمل مع البنتاغون .

وافق ترودو على جس نبض الجيش الأميركي لمعرفة ردة الفعل الأولى تجاه مدفع « بابل الصغير » ، وفي مطلع 1989 ، سافر بول مرة ثانية إلى الصين ، وناقش هناك مشروع بابل ، كنظام لإطلاق أقمار اصطناعية ، لكن بكين لم تبدِ اهتماماً كبيراً . فقد فضل الصينيون الانتظار لرؤية ما إذا كان النظام سينجح في العراق .

عند عودته إلى بروكسل وجد المكتب بحالة اضطراب . كان العراقيون ما يزالون يلحون على أن تكون نماذج المدفعين 155 ملم و 210 ملم جاهزة للعرض خلال معرض بغداد الدولي للإنتاج العسكري ، في أيار/ مايو 1989 ، كان العمل قد انتهى على سبطانات النماذج ، لكن تفاصيل تصميم بعض المكونات البالستية لم تكن قد خرجت بعد من غرف الرسم في (SRC) . لكن بول كان قد وعد بأن شيئاً سيكون ، والآن اضطر للتخلي عن مسائل أساسية في سبيل الالتزام بموعد المعرض .

أخبر بول طاقمه أن يركزوا ببساطة على إنهاء الشكل الخارجي للنظامين المدفعين ، شيء يبدو كاملاً عند النظر إليه من بعد . زوار المعرض سيُبقون على مسافة متر على الأقل من النماذج ولن يُسمح لأحد بتفقد الأبراج . لن تكون المدافع أكثر من مجرد « صَدَفة فارغة » ، المنظر الخارجي سيكون كاملاً .

كانت (ATI) قد أبرمت عقوداً فرعية مع عدد من شركات الأسلحة الفرنسية والألمانية والإسبانية لتصنيع قطع للمدفع ، وخلال الثلاثة شهور الأولى من السنة بدأت القطع المصنعة تتدفق إلى بيلباو ، في شمال إسبانيا ، لتقوم مؤسسة « فوريكس » الإسبانية بتجميعها ، في أواخر آذار/ مارس كان نموذج للمدفع عيار 155 ونموذجان للمدفع 210 ملم قد أصبحت جاهزة ، ولتوفير نفقات النقل ،

طلب بول شحن بعض القطع الصغيرة العائدة لمشروع بابل ، التي كانت تقوم بتصنيعها شركة تريبلان ، إلى بيلباو أيضاً لنقلها مع النماذج إلى العراق .

قبل ثلاث سنوات ، وعندما كانت (SRC) تقوم بالكثير من الأعمال في إسبانيا ، نقل بول لويس بالاسيو إلى مكتب في مدريد . وقد بقي بالاسيو في إسبانيا لمحاولة الحصول على المزيد من الأعمال . الآن ، طلب منه بول المساعدة في ترتيب شحن المدافع إلى بغداد . وجد بالاسيو طائرتين متوفرتين وكبيرتين بما يكفي لحمل شحنة كهذه ـ طائرة نقل ثقيلة تابعة لجمهورية إيرلندا ، وطائرة نقل سوفياتية طراز « انطونوف آن ـ 124 » ـ . كان استئجار الطائرة السوفياتية أقل كلفة بكثير ، لكن بالاسيو نصح العراقيين باستخدام الطائرة الإيرلندية ، لأن السوفياتية قد تلفت الأنظار .

لكن العراقيين تجاهلوا النصيحة آخذين بالاعتبار منفعتهم المالية . كان وصول الطائرة السوفياتية العملاقة أمراً غير عادي ومادة للأخبار في وسائل الإعلام الإسبانية ، على أنواعها ، وقد بدت الشحنة غامضة بما يكفي لإثارة اهتمام كل أجهزة الاستخبارات العاملة في أوروبا .

وكان هناك أمر آخر لم يعجب بالاسيو . عندما استأجر العراقيون الطائرة ، لا بد أنه طُلب منهم تقديم كل التفاصيل عن طبيعة الحمولة ، لأن طاقم الطائرة سيحتاج لهذه التفاصيل لتحديد خطة التحميل والتفريغ . وعندما سيعرف الطاقم طبيعة الحمولة فإنهم ملزمون بإعلام موسكو بأنها تتضمن عتاداً حربياً غير عادي . وكان بالاسيو واثقاً ، بأن موسكو ستكون مهتمة بما يكفي لتضع خبيراً على متن الطائرة لفحص محتويات الشحنة . وفي أقل تقدير ، ستقوم الـ « ك . ج . ب » بتتبع الأمر في بغداد طالبة تفاصيل كاملة عن كل المعاملات العراقية مع (SRC) و (ATI) . هذا إذا لم يكن العراقيون قد قدموا بالفعل مثل هذه التفاصيل . بأي حال ، كان استخدام الطائرة السوفياتية يعني أن الـ « ك . ج . ب » تعرف ، أو أنها ستعرف قريباً جداً ، بعمل بول مع العراق ، بما في ذلك « مشروع بابل » .

افترض بالاسيو أن هذه الخطوة العراقية تعني أن بغداد لم تعد مهتمة بإبقاء « مشروع بابل » بعيداً عن الأنظار ، وأن « سر » مشروع بابل قد أصبح الآن

معروفاً بشكل واسع في الوسط الاستخباراتي بحيث لم يشعر العراقيون أن الأمر يستحق دفع مال إضافي لإعطائه قليلاً من التغطية . ومع ذلك ، فقد صُدم بالاسيو . استخدام الطائرة السوفياتية كان بادرة جريئة ، وهذا ما أقلق بالاسيو الحريص ، لأنه كان يعني أن صديقه القديم ورئيسه جيري ما عاد لديه أي غطاء . « اعتقدت أن الأمر غبي وخطير » يقول بالاسيو . « بدا أن أحداً لا يهتم بجيري » .

كان بالاسيو قد بدأ يسمع عن مشروع « بيرد » ، وما سمعه ـ بشأن المرحلة الأولى للصاروخ ـ أرعبه . كان هناك ، يقول بالاسيو « مشكلة كبيرة بالفعل » بهذا الخصوص . فالمرحلة الأولى لصاروخ القمر الاصطناعي ، والمرحلة الأولى لصاروخ بالستي تتشابهان إلى حد كبير جداً . وأي شخص يساعد بلداً مثل العراق في مجال الصواريخ يكون أشبه بمن يلعب بالنار مع إسرائيل . « صاروخ من ذي ثلاث مراحل قد يكون تهديداً مباشراً لأمن إسرائيل ، ولن يسمحوا بذلك » .

في هذه الأثناء ، سمع من الجنرال ترودو « الخائب » أن رد فعل البنتاغون على فكرة بول كانت « باردة » . سياسات الكرملين الجديدة في ظل ميخائيل غورباتشوف أدت إلى تقليل « الإحساس بالخطر » حيال موسكو، مما أدى إلى تخفيض الميزانيات العسكرية . لا المال ولا الإرادة كانا متوفرين لأبحاث وعمليات تطوير مدفعية جديدة . بغض النظر عن مداها . أكثر من ذلك ، فإن المعنيين داخل البنتاغون لم يكونوا قادرين على رؤية أي دور واضح يمكن أن يلعبه مدفع بول ، فمهما كان مداه ، فإن الصواريخ والقذائف الصاروخية الموجودة بالفعل في الترسانة ، قادرة على تأمين ذلك .

شعر بول أن موقف البنتاغون يدل على قصر نظر ، وكان شبه متأكد بأنه خاضع لتأثير آراء مجحفة بحقه . لكن لم يكن لديه وقت يضيعه بالأسى ، إذ أن شركة والتر سوميرز ، في بيرمينغهام ، كانت قد أنهت العمل على « الأنابيب » التي ستصنع منها سبطانة « بابل الصغير » ، المؤخرة وقطع أخرى كانت قد أنجزت بواسطة شركات في ألمانيا وفرنسا وإسبانيا ، وتم شحن كل القطع إلى العراق حيث تم تجميعها على سكة حديدية ، وثُبّت المدفع بوضع أفقي موجهاً صوب جانب جبل على بعد 1,5 كلم .

كان الموقع في منطقة نائية شمال غرب الموصل ، قرب قرية بير أوجلا ، ليس بعيداً عن مجمع « سعد ـ 16 » . قبل افتتاح معرض بغداد الدولي في أيار/ مايو ، كانت عمليات إطلاق « بابل الصغير » تتم بانتظام ، الداسر المشتق من مزيج يشكل النيتروغليسيرين العنصر الأساسي فيه ، وهو صلب صُنع خصيصاً من قبل (PRB) في بروكسل ، كان قد شُحن إلى الأردن على أساس أنه داسر مدفعية تقليدية . كانت الأردن أشبه بصندوق البريد وسرعان ما انتقل هذا المزيج الغريب إلى العراق . في أحد الاختبارات ، تحطم أو « انفجر » جزء من سبطانة « بابل الصغير » نتيجة استخدام شحنة ثقيلة ، لكن تم استبداله بسرعة بأحد « الأنابيب » الاحتياطية التي كان قد طلبها كاولي .

في نهاية الربيع ، كان كاولي يطلق قذائف تجريبية من هذا النموذج باتجاه جانب الجبل بسرعات بلغت 3 كلم بالثانية . لكن مع استمرار التجارب أخذت الشفّات التي تصل الأنابيب ، التي تتألف منها السبطانة ، تسرّب الغازات الداسرة .

كانت هناك حاجة لسداد خاص، وتعاقدت (ATI) مع شركة (DESTEC) البريطانية ، المتمركزة في لينكولن ، لإرسال خبير إلى العراق للقيام بهذا العمل . قيل لـ (DESTEC) إن الأنابيب جزء من مشروع بتروكيماوي ، وقد اتصل مدير إدارة هذه الشركة ، ستيورات ماكلاشلان ، بوزارة التجارة والصناعة ، فأعطي الضوء الأخضر لقبول هذا العمل . كان يفترض أن يكون بول الآن مستعداً للبدء باختبار عينات المقذوف الحقيقي ، الذي كان ينوي استخدامه لوضع قمر اصطناعي في المدار . في الواقع كان متأخراً جداً في العمل على المقذوف . كان لديه الكثير من الرسوم ، ودفاتر مليئة بالحسابات ، لكن البناء لم يكن قد بدأ ، وكما حالات كثيرة في الماضي ، كانْ بول قد بالغ في تقدير سرعته في العمل . المشاكل التقنية المتعلقة بالمقذوف كانت ضخمة . وقد عرف الآن أنه سيحتاج شهوراً أخرى لحل هذه المشاكل .

كان بول يخطط لنسخة أكبر من « مارتليت ـ 4 » ، النموذج الأخير الذي صممه لـ (HARP) والذي لم ينفذه أبداً في «ماك غيل». كانت حساباته الأولية تفترض أن ينطلق المقذوف من فوهة السبطانة بسرعة تقل عن 3 كلم بالثانية ،

وعندما يبلغ ارتفاع 27 كلم يتم إشعال صاروخ المرحلة الآولى ، الذي سيؤمن دفع المقذوف إلى ارتفاع 48 كلم ، وعندها يتم إشعال صاروخ المرحلة الثانية ؛ عند ارتفاع 80 كلم ، يتم تنشيط الصاروخ الثالث والأخير لرفع الحمولة إلى 105 كلم . بعدها ستكون سرعة المقذوف قد بلغت حوالي 9 كلم بالثانية ، سيكون قادراً على بلوغ ارتفاع ما بين 1700 كلم إلى 2000 كلم ، ويمكن أن يدخل إلى مدار جزئي . في اللحظة المناسبة يتم تشغيل محرك موجود داخل المقذوف ليدفعه إلى مدار نهائي ، يمكن أن يجعله على مسافة 4600 كلم من الأرض . لا حاجة لمراقبة لاسلكية لتوجيه الصواريخ خلال مناوراتها وانفصالاتها ، إذ سيتم كل شيء بواسطة توقيت آلي ، مما سيوفر كثيراً من كلفة المنشآت الأرضية .

وفي النهاية ، فإن « مارتليت ـ 4 » سيفسح المجال أمام تطوير « مارتليت ـ 5 » ، القادر على إطلاق أقمار اصطناعية أثقل وزناً وإلى مسافات أبعد. لكن ، للبدء ، كان بول واثقاً أن صدام سيكون سعيداً بإرسال أي شيء إلى الفضاء ، حتى لو كان هذا الشيء بدون أي فائدة حقيقة . إذ أن بول كان دائماً يقول لسعدي : « فكر بالبرستيج » .

عند خروج المقذوف من فوهة سبطانة المدفع العملاق سيكون ملفوفاً بسلسلة من أحزمة السباط ، لحماية زعانف صاروخ مارتليت من الضرر . اختبارات تمهيدية أظهرت أن أحزمة السباط التي صنعها بول من الألمنيوم كانت ثقيلة جداً . دراسات جديدة أظهرت أن أحزمة السباط المصنوعة من الألياف الفحمية هي التي تلبي الحاجة . الآن أصبح هناك سبب آخر للإسراع في تشغيل مصنع « لير فان » .

كان للعراقيين أسلوب ممتاز في الضغط على بول لصنع « مارتليت ـ 4 » . فالدفعات المخصصة لـ (ATI) كانت تتم على أساس مرة كل أربعة أسابيع وبعد تلقي العراقيين تقريراً عن تقدم العمل . فإذا لم يكن التقدم كافياً بنظر العراقيين ، يتم تجميد الدفع ـ لكن بول كان بحاجة للمال حتى لا تتوقف شركته عن العمل ، وخوفاً من تجميد المخصصات العراقية بسبب التأخير بإنتاج « مارتليت ـ 4 » ، لعب ورقة المدفعية الجبارة .

أخبر سعدي وكامل عن إمكانية تعديل « بابل الصغير » ليصبح قطعة مدفعية

تبدو أمامها الأنظمة المدفعية الموجودة حالياً أشبه بـ « النقيفة » . وقد عبرا عن كل الحماس الذي كان بول يتمناه من البنتاغون . وقالا له إن نظاماً كهذا من شأنه تعزيز دفاعهم على طول الحدود مع إيـران . حيث يستطيـع سلاحهم الجـوي المتفوق تأمين الحماية له . وأجازا لبول البدء بالدراسات التمهيديـة ، بعد أن أفهمهما بأن العمل على « مارتليت » سيتأخر .

الجزء الثامن

طوفان الموت

20

في الشهر الذي سبق الموعد المقرر لسفرد . بول وميشيل إلى بغداد لحضور المعرض الدولي ، دخل بول مرة إلى (SRC) ويبدو عليه القلق والانفعال . استدعى مونيك جاميني إلى مكتبه وأغلق الباب . كان ذلك في الأسبوع الذي وجد فيه فيلم الفيديو قد أخرج من الجهاز وأعيد إلى علبته ووضع على طاولة جانبية . أخبرها عن ذلك وذكر أشياء أخرى تم نقلها من مكانها . كان متأكداً بأن شخصاً ما كان في شقته وعبث بأغراضه . ضحكت مونيك وقالت إنه يتخيل بالتأكيد ، ولا شك أنه أرجع شريط الفيديو إلى بدايته بنفسه . « أوه ، لا ، أنا لست مجنوناً وأعرف ماذا فعلت » أصر بول .

لسنوات ، كان بول يزعم أن هاتفه مراقب وأن بريده يتم اعتراضه لقراءة الرسائل الواردة إليه . « إنها أمور تأتي مع الأرض » كان يمكن أن يقول لأصدقائه . إذ أن أي شخص يتعامل بالأسلحة ، وتصميم الأنظمة الحربية للصين والعراق ، يجب أن يتوقع أن يكون مراقباً عن كثب من قبل وكالات الاستخبارات . يقول لويس بالاسيو أن أمتعة بول « ضاعت » مرات عدة عندما كان يسافر بحيث صار يحمل معه على الطائرة نفسها مجموعة احتياط من الملابس الداخلية وأدوات الحلاقة والحمام . « الحقائب كانت عادة تظهر في اليوم التالي ، بعد أن تكون السي . أي . إيه ، أو الـ (M16) أو الموساد ، وربما الثلاثة معاً قد فتشتها » ، يقول بالاسيو .

بعد أيام قليلة من حادثة الفيديو ، اتصل بول مرة أخرى بمونيك واستدعاها إلى مكتبه . كان قد عاد إلى البيت الليلة الماضية ليجد أن الأثاث قد أعيد ترتيبه ، وأن في الخزانة طقماً جديداً من كؤوس الشراب . ليس في الطقم الجديد شيء مميز لكنه مختلف جداً عن ذاك الذي اشترته ميمي قبل سنة تقريباً . كما تم تغيير مكان كرسي ذي ذراعين وبقيت على السجاد الآثار الدالة على مكانه السابق .

هذه المرة أصغت مونيك بجدية أكثر . كانت زائرة دائمة للشقة ، وكانت أحياناً تقوم بتسوق الحاجيات لبول ، وتعرف كل شيء في المطبخ . ومما لا شك فيه أن الكؤوس قد غُيِّرت .

قرر بول عدم إبلاغ البوليس ، حتى لا يُطرح الكثير من الأسئلة ويتم فتح تحقيق . لكن ذلك كان مزعجاً جداً ، بول كان موقناً ، ووافقته مونيك ، بأن شخصاً ما كان يترك عن عمد آثاراً ليعرف بول أن شقته قد اقتحمت .

لم يؤخذ شيء من الشقة ، باستثناء كؤوس الشراب التي تم إبدالها بأخرى . في المناسبتين ، اللتين اقتنع فيهما بول بأن أحداً ما دخل شقته ، كانت هناك عدة مئات من الدولارات وعدة آلاف من الفرنكات الفرنسية موجودة على الطاولة الصغيرة بجانب السرير ، ولم تُمس . وهذا يلغي احتمال أن يكون المتسلل لصاً عادياً ، واتفق بول ومونيك على أن للمسألة علاقة بعملاء في جهاز ما للاستخبارات . ومونيك هي التي طرحت فكرة أنهم ربما يوجهون رسالة تحذيرية . تساءلت مونيك ، عما إذا كانوا يقولون له إن الوصول إليه ليس صعباً ، وأنهم يملكون القدرة على الوصول إلى أي شيء ، حتى إلى بيته ؟ وبرغم أن بول كان يرى أن الوقت مبكر للوصول إلى استنتاج أكيد ، إلا أن مونيك كانت قادرة أن ترى ، وللمرة الأولى خلال السنوات التي عملت معه ، أن « البابا بول » كان مرعوباً .

معرض بغداد في أيار/ مايو 1989 ، حقق نجاحاً باهراً . والصحافة العسكرية المتخصصة الدولية رحبت كثيراً بالمدفعية الجديدة ، وكان حسين كامل مسروراً بالاهتمام الذي لقيه بالمدفع 210 ملم الذاتي الحركة . وكان سعيداً أيضاً بالتقدم المُحرز في « بابل الصغير » ، حيث كانت اختبارات أولية قد أظهرت أن هذا النظام سيحقق كل ما هو مرجو منه . أكد كامل لبول أن صدام

حسين نفسه على علم بمسار العمل وأنه يريد التعبير عن امتنانه . قريباً ، قال الصهر ، سوف يلتقي د. بول الرئيس شخصياً .

لم ينتبه أحد ، ولم تذكر الصحافة العسكرية شيئاً ، لكن خلال العرض ، وبلا شرح أو إعلان ، كان هناك نموذج مصغر ، بطول متر ونصف المتر ، لمشروع بابل . وبدت طريقة إماطة اللثام عن هذا المشروع غير مفتعلة .

كان لكل الدول الغربية تقريباً خبير عسكري أو أكثر بين الذين حضروا المعرض . والعمل الرئيسي لهؤلاء هو البحث عن الأشياء غير العادية ، وأولئك الذين انتبهوا للنموذج المصغر وسألوا عنه كان مسؤولون عراقيون يشرحون لهم في جلسات خاصة . وإذا لم يكن معروفاً عدد الخبراء الذين تم إطلاعهم على طبيعة مشروع بابل ، إلا أنه من المنطق افتراض أن كل دول الناتو ، على الأقل ، قد تبادلت فيما بينها المعلومات بهذا الشأن ، كما تمت دعوتها لمشاهدة الإطلاق الأول عام 1993 ، حسب المخطط .

بعد فترة وجيزة من افتتاح المعرض ، أخبر بول سعدي عن الأحداث الغامضة في شقته . نائب الوزير لم يأخذ كلامه على محمل الجد في البدء ، لكنه عندما اقتنع بعدم وجود تفسير بريء لهذه الأحداث ، بدأ ينظر إلى الوضع بمنتهى الجدية . عرض على بول تأمين حارس شخصي يلازمه على مدار الساعة . لكن تدبيراً كهذا بدا لبول سخيفاً . كان يعيش في شقة تحتوي غرفة نوم واحدة ، ونمط حياته غير منظم . كيف يمكنه أن يصطحب الحارس الشخصي معه عندما يذهب في نزهاته بين قبور ضحايا الحرب ، خلال العطل الأسبوعية ، مع هيلين ؟ ثم إن حياته ستفقد جوانبها الخاصة والحميمية . وعلى أي حال ، فقد كانت هناك تعاملات لـ (SRC) ولا يريد بول أن يعلم العراقيون بها . على سبيل المثال ، إنه قام بنفسه بإعلام الإسرائيليين والبريطانيين بشأن « مشروع بابل » . حارس شخصي عراقي يمكن أن يكون أيضاً جاسوساً عراقياً . هكذا فكر بول .

إذا كان لا يوافق على توفير حارس شخصي له ، اقترح سعدي أن تشكل (SRC) فوراً دائرة أمن خاصة بها وبعد أسئلة دقيقة طرحها على بول ، أدرك سعدي أن الاحتياطات الأمنية لدى (SRC) و(ATI) كانت متدنية جداً . يجب

القيام بشيء حالاً ، قال سعدي .

مـدركاً أن بـول ، بسبب طبيعته ، لن يسـرع بتنفيذ عمـل يعتبـره عمـلاً بيروقراطياً كتأسيس نظام أمني لشركته ، استشار سعدي ميشيل . قدم نصائح أولية وقال إن أقل ما يجب أن تقوم به الشركة هو تعيين مسؤول عن الأمن ووضع كاميرات لمراقبة كل الذين يدخلون إلى المكتب . وقد فرح سعدي لمعرفته أن بول لا يقود سيارة عادة ، وليس هناك روتين ثابت لتنقلاته ما بين البيت والمكتب . وفي حديث منفصل مع بول ، حثه سعدي على تشجيع أولئك الذين يقلونه إلى البيت مساء لسلوك طرق مختلفة . يقول ميشيل : « قمنا بتعيين شخص من بين العاملين في الشركة لتولي الأمن ، وشددنا التدابير حول المكتب . لكن والدي لم يغير نمط حياته بأي شكل مناسب . كان جَبرياً ، وكان يقول إذا أرادوا النيل منك فسينالون منك » .

بعد يوم من الحديث بخصوص الأمن ، وبينما كان بول وميشيل يجولان على أجنحة معرض بغداد برفقة سعدي ، توقف بول أمام واجهة لعرض أسلحة فردية ، رشاشات ، ومسدسات بيريتا آلية تصنع في العراق بموجب رخصة . عدد من هذه الأسلحة كان مطلياً بالذهب ومعروضاً في حقائب يد مصممة خصيصاً لحمله . نظر بول إلى هذه الأسلحة بإعجاب وقال لسعدي : « ربما يجب أن أحصل على واحد منها » .

قال سعدي شيئاً لأحد مساعديه ، وفي وقت لاحق ، من بعد ظهر ذلك اليوم ، قدم لبول حقيبة يد ثقيلـة ، مغطاة بجلد لـونه أحمـر داكن . في داخل الحقيبة ، رشاشا بيريتا آليـان مطليان بالذهـب . واحـد كبير وثقيـل من عيار 9 ملم ، والآخر أصغر وأخف وزناً ويمكن إخفاؤه بسهولة من عيار 7,65 ملم ، وفي داخل الحقيبة حجيرة تحتوي 25 رصاصة وأدوات تنـظيف لكل سـلاح . وعندما رأى سعدي ملامح الغيرة على وجه ميشيل سأله عما يحب . « أوه ، شيء جيد » قال ميشيل . غادر نائب الوزير الغرفة للحظة وعاد حاملاً رشاشاً آخر من طراز بيريتـا عيار 9 ملم ، ومطلياً بالذهـب أيضاً .

عند عودتهما إلى الفندق في تلك الليلة ، شرح بول لميشيل كيفية عمل هذه القطع ، التي كانت بالفعـل من تلك القطع التي تلفت أنـظار هواة جمـع

الأسلحة ، وكانت تلمع بفعل انعكاس ضوء مصباح كهربائي قرب السرير . أمضى بول ساعة وهو يلعب بالسلاح مقلداً رعاة البقر في سرعة سحب الرشيش من تحت حزام بنطلونه . كانت هذه الأسلحة أشبه باللعبة بالنسبة لبول ، ولم تكن هدية عادية ، قُدر ثمن كل قطع منها ، لاحقاً ، بـ 10 آلاف دولار .

لكن ، ومثل غيرها من الألعاب ، سرعان ما فقد بول اهتمامه بالرشيشين ، وبعد أسبوع أو أسبوعين من عودته إلى بروكسل وضعهما في خزنة الشركة ولم ينظر إليهما أبداً مرة ثانية .

على جبهة أخرى، كانت خطط ميشيل لـ (SRC- Composites) تسير جيداً ، إلى الآن كان قد حضر مؤتمرات في بريطانيا ، فرنسا ، بلجيكا وألمانيا حول تصنيع المُرَكَّبات وأصبح نوعاً ما خبيراً بهذا المجال. كما كان قد قام باستشارات مع ممولين محتملين وزبائن وبنوك قد يحتاجهم لتأمين الرأسمال اللازم لتشغيل المصنع ، وكان يلقى تجاوباً من الكل . لكن الدفعة النهائية جاءت في رسالة تاريخها 21 أيار/ مايو 1989 ، مرسلة من فيرغال ماكورماك ، وهو مدير مشروع لدى مجلس التنمية الصناعية في إيرلندا الشمالية . قال فيرغال إنه يؤكد ، في حال كانت خطة العمل النهائية للشركة إيجابية ، استعداده للتوصية بأن يوافق مجلس التنمية على تقديم منح تصل إلى حدود مليوني جنيه استرليني . في نهاية أيار/ مايو كانت الصفقة قد أبرمت نهائياً ، واشترت (SRC- Composites) ـ التي تتقاسم ملكيتها عائلة بول والحكومة العراقية ـ مصنع لير فان ومعداته المتطورة جداً .

لم يكن مفاجئاً أن يتعرض مجلس التنمية الصناعية لانتقادات واسعة عندما تم الكشف عن حجم المبلغ الذي دُفع ثمناً لـ « لير فان » . ففي منطقة تعاني الكساد وحيث لكل قرش قيمته ، كيف كان ممكناً للمجلس أن يترك ف. ج. ويلسون يحصل على هذه الملكية مقابل مليون جنيه استرليني في عام 1988 ، في حين أبدت (SRC- Composites) اهتمامها بالحصول على هذه الملكية مقابل ثلاثة ملايين جنيه استرليني ؟

ريتشارد نيدهام ، وزير التنمية الصناعية لإيرلندا الشمالية ، قال إن الملكية والمعدات قد تم تقييمها بواسطة خبراء مستقلين وإن سعر البيع لويلسن كان يعتبر

معقولاً وعادلاً . أما سبب رغبة (SRC- Composites) بدفع أكثر مما هو السعر الفعلي للمصنع في السوق ، فهو لغز . ربما كانت للمساهمة العراقية دور ما في ذلـك . ونتيجة للظروف طلب كيفين مـاكنمارا ، وزيـر الظل لشؤون إيـرلنـدا الشمالية ، من مجلس التنمية إرسال تقـرير كـامل إلى وزارة الخـارجية وطلب المشورة بشأن صفقة (SRC- Composites) .

كانت لدى الاستخبارات البريطانية ملفات ضخمة بهذا الشأنَ. كانت هناك تقارير مكثفة عن خلفية (TDG) ، كما كانت (SRC) تحت مراقبـة دقيقة خلال عشرين عاماً . وعندما طلبت (SRC) الإذن لهبوط طائرة خفيفة ـ طائـرة سيسنا الخاصة بالشركة التي استقلها ميشيل ـ في بلفاست في السنة الماضية ، عرفت الاستخبـارات البـريـطانيـة ، وتتبعت كـل تفـاصيـل الصفقـة لكن دون القيـام بشيء لوقفها .

قبل طلب مجلس التنمية مشورة وزارة الخارجية بفترة وجيزة ، كان ضباط من الاستخبارات البريطانية قد اجتمعوا بضباط في « السي . اي . ايه » للبحث بأمر صفقة بيع لير فان . كان طلب عقد الاجتماع الذي حصل في لندن ، قد جاء من واشنطن . خلال الاجتماع قدم الأميركيون نسخة عن خطة عمل ميشيل بول . في الجزء الأخير من الخطة ، الصفحة 94 ، وتحت عنوان « القدرات الإنتاجية » كان هناك شيء وجدته واشنطن مقلقاً .

تقول الخطة : « للمصنع قدرة كاملة لإنتاج قطع مُرَكبة ومُجَمَّعات حسب نماذج التصاميم المطلوبة . الغرفة النظيفة المراقبة بيئوياً بشكل كلي ، تمتد على مساحة 40 ألف قدم مربع (3600 متر مربع) وهي مدعومة بمستودعات تخزين مبـرّدة كلياً . الشـركة تخـطط أيضـاً لامتـلاك القـدرة على لفّ السليكـات في المستقبل القريب » .

كانت الاستخبارات البريطانية على علم بهذه الفقرة ، وعلى علم أيضاً بأن ميشيل يقوم علناً بالتحقق ، في عالم التكنولوجيا العالية ، عن إمكانية شراء ماكينة للفّ السليكات . وأولئك الذين اتصل بهم ، مستفسراً عن التكاليف وعن إمكانية هذه الماكينة ، قاموا فوراً بإعلام مصادرهم الخاصة في الحكومة البريـطانية . وبشكل مشابه ، قام مكتب أوروبي تابع لشركة أميركية كان قد سُئل بطريقة غير

مباشرة على إمكانية تأمين ماكينة كهذه ، بإعلام وزارة التجارة الأميركية . ومن هناك انتقلت الأخبار إلى « السي. اي. ايه » لإجراء تحقيق ، وهذا الذي أدى إلى عقد اجتماع لندن .

ماكينات لفّ السليكات مدرجة على لائحة المعدات المحظورة بموجب نظام مراقبة تكنولوجيا الصواريخ . فهي تستخدم في صناعة المخروطات الأمامية للصواريخ . وأي شخص يحاول شراء ماكينة لف سليكات يجذب بالتأكيد الكثير من الانتباه .

يقول ميشيل إنه قام بالتحقق من إمكانية امتلاك ماكينة كهذه ، لأنه أراد أن تكون (SRC- Composites) جاهزة لإنتاج كل ما قد تحتاجه صناعة الطائرات وماكينات لفّ السليكات لا تستخدم فقط في صناعة المخروطات الأمامية للصواريخ ، بل تستخدم أيضاً في صناعة « الرادوم » ـ قبة لدائنيّة لحفظ هوائي الرادار في بعض الطائرات . وكان هناك احتمال ورود طلبية لصنع « رادومات » .

خلال صيف 1989 ، نقل ميشيل عائلته إلى مونتريال وأقام مكتباً له ، من غرفة واحدة ، قرب منزله الجديد .

إلى الآن ، كان لـ (SRC- Composites) طاقم مؤلف من تسعة أشخاص في إيرلندا الشمالية ، كانوا ينتظرون فقط الضوء الأخضر للمنح الحكومية ، وورود القروض المصرفية قبل البدء بتوظيف عمال للمصنع والبدء بالإنتاج . في الحقيقة كانت زيارة ميشيل إلى بلفاست ، في أواسط آب/ أغسطس بهدف تحديد تاريخ للبدء بتشغيل المصنع . بعد الرحلة الطويلة ، كان متعباً عندما وصل إلى مكاتب (SRC- Composites) في مصنع « لير فان » سابقاً .

« لحظة اجتزت الباب ، أخبرني أفراد الطاقم أن مجلس التنمية قد رفض طلبنا للحصول على منح . كانت هناك رسالة منهم تقول إن وزارة الخارجية قد نصحتهم بعدم السير قدماً لأنهم يظنون أننا سنستخدم المصنع لمساعدة العراقيين في بناء صواريخ » . كان ميشيل مذهولاً بكل معنى الكلمة . « على مدى تسعة شهور لم يكن لدي عمل غير هذا المشروع ، وطوال الوقت كان مجلس التنمية متجاوباً إلى حد كبير . لقد عملوا بالجهد نفسه الذي عملت به . لم أستطع

تصديق ذلك » . لكن عندما حاول ميشيل الاتصال بالأشخاص الذين بنى معهم صداقات داخل المجلس ، فإن أحداً منهم لم يرد التكلم معه .

اتصل ميشيل بوزارة الخارجية وتوسل إليهم إعادة النظر بالموضوع . وعرض أن يدفع راتباً لمفتش حكومي متفرغ يتواجد في المصنع ويكون قادراً على مراقبة كل شيء ، وضمان عدم ذهاب أية مواد لها علاقة بصناعة الصواريخ إلى العراق . وعرض أيضاً أن يبحث عن مستثمرين جدد ليحلوا محل العراقيين . « الحكومة البريطانية كانت على اطلاع واسع بمشروع المدفع العملاق الذي يبنيه والدي » ، يقول ميشيل . « كانوا يعرفون أنه يصنع السبطانات في بريطانيا تحت مزاعم مزيفة . والآن كانوا يظنون أنه يحاول الحصول على مصنع لير فان لتنفيذ مشاريعه . بالنسبة لي كان الأمر مدمراً » . رفضت وزارة الخارجية إعطاء موعد لميشيل لسماع رأيه أو إعادة النظر بقرارها .

اتصل ميشيل بالبنوك المحلية الأربعة التي كانت قد أبدت سابقاً استعدادها للمساعدة ، لكن مجلس التنمية كان قد اتصل بها ، فعدلت عن رغبتها بالمساعدة . « كانوا قد أحكموا سد الطريق بوجهنا . كانت تلك فرصتنا لتغيير مجال عملنا . فرصتنا للخروج من ميدان تجارة الأسلحة . كنت سأتولى مسؤولية إدارة ذلك المصنع وما كنت لأسمح بذهاب مواد تصلح لصناعة الصواريخ إلى العراق . لكن أحداً لم يكن راغباً بالاستماع إليّ » .

اتصل هاتفياً بوالده في بروكسل ، وأبلغه الأخبار السيئة . كانت ردة فعل بول التصميم على الاستمرار بالمشروع بأي حال ، لديهم المصنع ، ولديهم التكنولوجيا . وإذا لم ينجحوا في الحصول على منح أو على دعم من البنوك المحلية ، فإن بإمكانهم إيجاد المال من مكان ما . ميشيل رفض ذلك ، « قلت له ، لا يا أبي ، سوف نغلق المصنع . لا نستطيع محاربة الحكومة في هذا المجال . إذا حاولنا الاستمرار فإنهم سيصفوننا بمهربي الأسلحة ويقوموا بحملة افتراءات لقتل المشروع . الأفضل أن نخفف خسائرنا وننسحب » .

لم يكن ميشيل قادراً على فهم السبب الذي دفع الحكومة البريطانية للسماح باستمرار المشروع طوال هذه الفترة ، وتطوره إلى هذا الحد ، إذا كانت بالأساس معارضة له .

في أيلول/ سبتمبر كتب كيفين ماكنمارا مرة ثانية إلى ريتشارد نيدهام مستفسراً هذه المرة عن سبب تغيير مجلس التنمية رأيه بالنسبة لتقديم المنح . قال نيدهم في رده : « رأت وزارة الخارجية أن مساهمة شركات مدعومة من العراق في التمويل كان بحد ذاته سبباً كافياً للانتباه . قالت وزارة الخارجية إنه معروف عن العراق تورطه في مشاريع لإنتاج صواريخ بالستية متطورة ، بالتعاون مع دول أخرى ، من بينها الأرجنتين . المواد المركبة التي كان ينتجها مصنع لير فان سابقاً يمكن استخدامها في صاروخ بالستي وأنظمة حربية أخرى . وزارة الخارجية مضت للقول بأن الولايات المتحدة ، كعضو في نظام المراقبة مراقبة تكنولوجيا الصواريخ ، كانت ملتزمة بالقيام بكل ما يمكنها لمنع تكاثر صواريخ كهذه . الحكومة لا ترغب برؤية أموال عامة تذهب للمساعدة في اكتساب تكنولوجيا حساسة يمكن أن تكون وثيقة الصلة ببرامج إنتاج صاروخ في العراق ، أو في عدد من الدول الأخرى » .

كان مثيراً للفضول أن يختار نيدهم الإصرار على أن الولايات المتحدة كانت ملتزمة بمنع تكاثر الصواريخ . فبريطانيا أيضاً عضو في نظام مراقبة تكنولوجيا الصواريخ ، وبالتأكيد إنه في ظل الظروف القائمة كان كافياً الإعلان عن التزام الحكومة البريطانية بالنظام دون ذكر الولايات المتحدة ، لكن، تقول مصادر إن إيراد ذكر الولايات المتحدة كان لأن الضغط الأميركي،الذي كان واضحاً خلال اجتماع لندن ، هو الذي أجبر بريطانيا على التحرك . كان مجلس التنمية راغباً بتقديم المنح ، وبغض النظر عن الدليل الظرفي ، كان أعضاء المجلس مقتنعين بأن ميشيل بول لم يكن عازماً على بيع مواد محظورة إلى العراق . والاستخبارات البريطانية ، التي تملك كل المعلومات عن خلفيات الصفقة ، كانت مستعدة للسماح بإكمال المشروع لأنها رأت أن الأفضل ترك العراق يشارك في مشروع يمكنها مراقبته جيداً ، من مشروع لا تستطيع مراقبته .

بالفعل ، وحسب مصدر مطلع على مجريات اجتماع لندن مع الأميركيين ، كان للاستخبارات البريطانية بالفعل مصدر معلومات داخل إدارة (SRC- Composites) . هذا الشخص ، أو « المصدر » ، كان يتعاون مع الاستخبارات منذ سنوات وحصل على عمل بالشركة بالصدفة . وقد تم توظيفه

بسبب ما يملكه من خبرة وخلفية . وكانت لندن أكيدة أنه سيقـوم بدور مصـدر معلومات من الداخل ، لإبقاء الاستخبارات على اطلاع دائم بأي شيء مشبوه . ومع ذلك كانت واشنطن قلقة من احتمال تسرب مواد صنع المخروط الأمامي ولم تكن مستعدة للمخاطرة .

كان أمراً ملفتاً أن ينجح ميشيل بول بعد فترة وجيزة في بيع مصنع لير فان مع معداته إلى (Short Brothers) ، وهي شركة إيرلندية شمالية لصناعة الطائرات والصواريخ ، مقابل 3,5 ملايين جنيه استرليني ، أرباح هذه الصفقة تم تقاسمها مع (TDG) ، وحققت (SRC) في بروكسل ربحاً بلغ 50 ألف جنيه استرليني من الصفقة بعد احتساب المصاريف التي دفعتها . هذه الصفقة أثبتت أن بول كان طول الوقت محقاً بخصوص قيمة هذه الملكية . لكن الذي أثار اهتمام الشركة الإيـرلنـديـة لشـراء المصنـع ومعـداتـه ، كـان فقط مـا أثيـر حـول المصنـع وقدراته الإنتاجية .

21

أول ما قام به بول عند عودته من بغداد ، حيث حضر المعرض ، كان معاينة شقته بعناية . لم تكن هناك علامات على أن أحداً قد دخلها منذ غادر ، وهذا ما أراحه كثيراً . وفي حين كان بول فوضوياً في مكتبه إلا أنه كان موسوساً بالترتيب في البيت ، محافظاً على كل شيء في مكانه الصحيح . وكان قادراً على أن يعرف فوراً إذا نُقل شيء من مكانه .

بعد أسبوع من عودته ، دخل بول صباح أحد الأيام ، حوالي الساعة العاشرة ، مسرعاً إلى مكتبه ، ومرة أخرى استدعى مونيك لاجتماع مغلق . كان قد أمضى الليلة الماضية خارج المدينة ، لكنه عرج هذا الصباح على شقته قبل مجيئه إلى الشركة . هناك ، وجد أن الباب الذي يؤدي من غرفة الطعام إلى الشرفة مفتوح على وسعه . ليس هذا فقط ، بل إن بعض الصناديق التي يحتفظ بها على الشرفة قد نقلت من مكانها . كان قد تحقق من الأمر ، واتصل بالمرأة التي تتولى تنظيف غرفته ، فقالت إنها لم تدخل إلى الشقة منذ أسبوع . وهو لم يفتح باب الشرفة منذ أسابيع ، منذ أخرج تلك الصناديق إلى الشرفة . وكان قد أقفل الباب من الداخل . لم يكن هناك أثر يدل على الدخول عنوة إلى الشقة ، كما أن شيئاً لم ينقل من مكانه أو يؤخذ . حتى أقل العملاء السريين خبرة وتدريباً - في حال كان الفاعلون عملاء سريين بالفعل - لا يمكن أن يتركوا وراءهم باباً مفتوحاً على مصراعيه . إذا كانت لديه شكوك قبلاً ، فإنه أصبح واثقاً الآن بأن أحداً يرسل إليه إشارة ، يُقصد بها تخويفه . لم تكن مزحة ، شخص ما كان يحاول إخافته ، يجب ربط الأمر ، قال لمونيك ، بمشروع بابل . وإذا كان عليه تخمين الجهة وراء ما يحصل فإن شكوكه ستتجه صوب الإسرائيليين . لأنهم

الأكثر احترافاً في هذا المجال . لكن كان لديه الكثير من الأصدقاء في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ، إذ كان قد أنتج قذائف لهم ، وقدم لهم استشارات مجانية كلماطلبوا مساعدته ، وكانوا قد اتصلوا به مراراً للحصول على نصائحه بشأن مشاكل مواجهتهم في بعض الأعتدة الحربية . كما كان قد أعلمهم عن مشروع بابل ولم يطلبوا منه التوقف . فما الذي يريدونه بعد ؟

كان بول واثقاً أنه إذا كانت هناك وكالة استخبارات وراء ما يحصل ، فإنها الوكالة الإسرائيلية ، الموساد ، أو الأميركية أو البريطانية . الأميركيون كانوا معادين للعراق ، ومن المحتمل أن السي . اي . ايه تريد إخافته . لكن الاستخبارات البريطانية كانت مهتمة بـه فقط لأن قطع مشروع بابل يتم صنعها في انكلترا ، وليس هناك من سبب يدفع البريطانيين لإخافته ، لأنهم قادرون على إيقاف مشروع بابل ساعة يشاؤون .

وهكذا انحصرت دائرة شكوك بول بالإسرائيليين والأميركيين . وفي أي حال ليس هناك ما يمكن فعله سوى انتظار حدوث شيء ما .

في مطلع الربيع ، كان عقد عمل كريستوفر كاولي مع بول قد انتهى ، واتفق الإثنان على الافتراق وهما صديقان . كان كاولي جاهزاً للرحيل : لم يكن يهتم بالبقاء في بروكسل كما كان عمله في المدفع العملاق قد انتهى . بول تركه يرحل آملاً أن يحفظ سر مشروع بابل . وقد أعلم بول العراقيين أن كاولي لم يعد بعد الآن معنياً بالمشروع ، وعرضاً ذكر أنه قد يكون هناك بعض الخطر من قيامه بالتحدث إلى الصحافة بشأن المشروع . لاحقاً ، أخبر بول مونيك أن العراقيين عرضوا قتل كاولي إذا كان ذلك ضرورياً . « د. بول كان خائفاً جداً على كاولي » . تقول مونيك .

طوال حياته كعالِم أسلحة ، واجه بول الكثير من السلوكات غير العادية ، لكن أبداً لم يعرض أحد أمامه قتل شخص إذا أصبح يسبب مشكلة ، وأبداً لم يكن بيته من قبل عرضة لعمليات تسلل أو غزو . بدأ ، د. بول يقلق لكونه أصبح متورطاً بعمق في علاقات خطيرة ولا يبدو أنه قادر على الإنسحاب منها . في الأوقات العادية ، كان يمكن أن يستشير ميشيل لكن الأخير كان يرفض نقاش أي شيء له علاقة بمشروع بابل .

عيّن د. بول أحد مساعدي كاولي مسؤولاً عن تنسيق استلام قطع المدفع العملاق . وكانت المهمة الأكبر أمام خليفة كاولي هي إيجاد شركة قادرة على صنع مؤخرة المدفع وأجزاء من نظامه الهيدروليكي . وكان بول يخشى أن تكون الشركات البريطانية غير قادرة على تأمين صنع هذه القطع ضمن المهلة المحددة لكثرة ما لديها من أعمال ، لذا طلب من خليفة كاولي أن يبحث في مكان آخر . فتم التعاقد مع معامل (Von Roll) في سويسرا ، ومع مصانع الفولاذ (Societa delle Fucine) في إيطاليا . وقد قيل للشركتين إن القطع ستستخدم في مشروع هندسة مدنية .

في مطلع حزيران/ يونيو 1989 ، اتصل البنك السويسري الذي يتعامل معه بول، ليخبره أنه تلقى طلباً غريباً من دائرة المحاسبة في (SRC) . فقد طُلب من البنك تقديم تفاصيل كاملة لكل الحسابات المرتبطة بـ (SRC) و(ATI) ، إلى جانب تفاصيل كل الحسابات الشخصية لكل أفراد عائلة بـول . المسؤول عن حساب بول في البنك ، رأى أن عليه الحصول على موافقة مباشرة من د. بول قبل الإعلان عن معلومات كهذه . ردة فعل بول الأولى كانت منتهى الغضب . هذا التطفل من قبل دائرة المحاسبة لديه على حساباته الشخصية وحسابات الشركة كان أمراً لا يطاق . لكنه عند البحث عن المجرم تحول غضبه إلى حيرة ، ثم إلى ذلك الإحساس المقلق بأنه بدأ يتعلم العيش مع توتر الخوف . كان هناك على الأقل عشرون موظفاً مُجاز لهم الوصـول إلى نظام كـومبيوتـر الشركـة ، فكان مستحيلاً معرفة أي منهم تقدم بذلك الطلب من البنك. نتيجة لتوسع الحساب العراقي ، قامت (SRC) بتـوظيف حوالي ثـلاثين شخصاً جـديداً خـلال السنة الماضية . كانوا مهندسين وعلماء ، رسـامين ، محاسبين ، وسكـرتيرات ، لا يكنون إخلاصاً للشركة أو لبول . ورأى بول أن من الأفضل الزعم بوجود جاسوس في المكتب . وإذا كان هناك شخص يبحث في أوضاعه المالية ، فإنهم بالتأكيد يبحثون في أعماله .

بناء لنصيحة نائب الوزير العراقي ، قـام ميشيل بتشـديد الأمن . الـطيار المتفرغ لدى الشركة أُعطي عملاً إضافياً كرئيس لجهاز الأمن . وتم ضبط الدخول إلى المبنى والتحرك بداخله ، وأقيم نظام أصبح بموجبه على من يريد الوصول

إلى مكتب د. بول المرور بثلاث سكرتيرات على الأقل . وأعطيت تعليمات للسكرتيرات للاتصال بالمسؤول عن الأمن في حال حاول شخص ما الوصول إلى بول بدون موعد مسبق . وتم التخلي عن النظام المتفلت من أي قيود ، الذي كان موجوداً في السابق ، والذي كان يسمح لأصغر رسام بالوصول إلى أجهزة الكومبيوتر التي تحتوي تفاصيل معظم ، إنْ ليس كل ، مشاريع الشركة . الآن فقط كبار الموظفين الموثوق بهم أجيز لهم الوصول إلى كل المعلومات ، أما بقية الطاقم فلدى كل واحد حق الوصول إلى المعلومات التي يحتاجها في عمله المحدد . لكن د. بول ، كان يعرف ، وقد أخبر كبار نوابه ، أنهم إذا خدعوا فوظفوا عميل استخبارات محترفاً ، فإن هذا العميل سرعان ما سيجد وسيلة لاختراق النظام الجديد . وعلى الشركة الآن ، اعتبار أن لا شيء آمن ولا سري لحظة إدخاله في الكومبيوتر ، أو عند كتابته ووضعه في الملفات .

بالنسبة إليه ، كان بول دائماً يحتفظ بأوراقه الخاصة بالمواضيع الحساسة قريبة منه . كانت هذه الأوراق دائماً في حقيبة كتف قماشية سوداء اللون يحملها حيثما يذهب . عادة كان وزن الحقيبة لا يقل عن 10 كلغ ، وكانت لا تغيب عن نظر بول أبداً .

في منتصف الصيف ، ذهب د. بول إلى العراق لمدة شهر تقريباً . بغداد كانت تواجه مشاكل كبيرة بنظام الصاروخ ذي المراحل الثلاث ، وكانت تطلب نصائحه الهندسية . هذه المرة ، عمل في ظل إجراءات أمنية مشددة ، في قاعدتين : « الاسكندرية » و « الأنبار » . كان عمله يتعلق كلياً بالمرحلة الأولى من الصاروخ . كان يُظهر للعراقيين ليس فقط كيفية ربط صواريخ سكود الخمسة مع بعض وبشكل آمن ، بل أيضاً كان يُظهر لهم كيفية تنسيق هذه الصواريخ لتأمين قوة دفع قصوى .

خلال وجود بول في العراق ، استعار ميشيل مفتاح شقة والده من مونيك . لدى والده مجموعة كبيرة من أشرطة التسجيل ، وكان ميشيل يريد نسخ بعضها قبل عودته إلى مونتريال . معظم هذه الأشرطة كانت تسجيلات لموسيقى « الكاونتري » الأميركية التي لا يحبها ميشيل ، لكن هناك بعض التسجيلات الفرنسية لأديث بياف وجاك بريل . قام ميشيل بنسخ الأشرطة الفرنسية خلال بعد

الظهر وأعاد المفتاح إلى مونيك .

عندما عاد بول من العراق في بعد ظهر يوم مشمس ، ذهب مباشرة إلى شقته . لحظة دخوله إلى غرفة النوم رأى شيئاً أثار خوفه . تراجع من الغرفة وطلب سيارة تاكسي أقلته إلى المكتب ، وهناك استدعى مونيك لاجتماع مغلق آخر . « كان بإمكاني رؤية الخوف على وجهه » تقول مونيك . طلب منها أن تصحبه للعودة إلى الشقة لإجراء كشف شامل عليها .

تقول مونيك : « كانت فقط خصلة واحدة لشعر أسود طويل ، هذا كل شيء ، كانت موضوعة عند طرف غطاء السرير ، بشكل لا يمكن أن لا تراها » . كان غطاء السرير مرتباً جداً ، مشدوداً وغير مجعد ، تماماً كما تركه بول عندما غادر قبل شهر . ولم يُمس شيء آخر في الشقة . كان ميشيل قد أعاد ترتيب أشرطة التسجيل كما كانت .

كان العراقيون قد اقترحوا على بول أن يسجّل كل الأحداث الغريبة ، وطلبوا منه تغيير روتينه ، أن يستخدم مطاعم مختلفة ويبدّل في أوقات خروجه وعودته ، والانتباه جيداً لرؤية ما إذا كان هناك من يلاحقه . النصيحة العراقية كان هدفها ضمان أمنه ، لكنها جعلته أكثر عصبية . خصلة الشعر الأسود هزته بطريقة سيئة . عند عودتهما إلى المكتب سأل بول مونيك عن كل ما حدث خلال وجوده في الخارج . عندها فقط تذكرت مونيك أن ميشيل قد ذهب إلى الشقة .

اتصل بول بميشيل . « هل أحضرت امرأة إلى شقتي ؟ » قال بلهجة حازمة . أقسم ميشيل أنه لم يفعل ، وقال إنه بقي في الشقة مدة ساعتين ولوحده . لكن د. بول لم يصدق كلمة ابنه وبدأ يصرخ . فأصبح ميشيل غاضباً مثل والده فرد عليه بحدة ، ثم كتب مذكرة ينفي فيها بقوة أن يكون قد اصطحب أحداً إلى الشقة . « شعرت بحاجة قوية للتعبير عن انفعالاتي كتابة . شعرت بخيبة أمل كبيرة لأن والدي لم يصدقني . كان يائساً لإيجاد تفسير لوجود الشعر الأسود الطويل . كنت هدفاً سهلاً ، لأني بالفعل ذهبت إلى الشقة . حتى إني قلت له ، إني لو أردت اصطحاب امرأة إلى مكان ما ، وهذا شيء لا أريده ، فإن المكان الأخير الذي قد أختاره هو شقتك » .

الحادثة سببت توتراً جديداً بيـن الأب والابن ، وفي وقت كان بول يجـد صعوبة في العثور على الأمان في أي مكان خارج العراق .

كانت حادثة الشعر الأسود الأخيرة في سلسلة عمليات الدخول الواضح إلى شقة بول . وفي وقت لاحق سيخبر البوليس البلجيكي عائلة بول أنه كان شبـه متأكد من أن عملاء أجانب كانوا في بروكسل طوال 1989 لمراقبة (SRC) . وفي حين لا يعرف أحد بالتأكيد ، إلا أنه يبدو معقولاً افتراض أن عملية مراقبة وتحذير د. بول كانت ـ مثل نظام الصـاروخ العراقي ـ من ثـلاث مراحـل . الآن كانت المرحلة الأولى قد انتهت . محاولات دفع بول للتوقف عن التعامل مع العراقيين بواسطة تهديدات غير محددة فشلت . والعمـلاء الذين شـاركوا مباشرة بهـذه المرحلة يمكن أن يكونوا قد سُحبوا عند هذه النقطة . وتم إرسال فرق أخـرى للحلول مكانهم .

قـد لا نعـرف أبـداً التفـاصيـل ، لكن مصـادر خبيـرة بـأسـاليب عمـل الاستخبارات ، ترجح أن تكون العملية ضد بول قد أديرت من بروكسل من قبل عميل كبير . هو ، أو هي ، كان يشرف على أربعة عملاء ميدانيين ، على الأقل ـ أحدهم امرأة ـ يعملون ضمن فريقين منفصلين. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن يكون العميل الكبير قد دسّ شخصاً ما، على الأرجح امرأة، للعمل ضمن طاقم (SRC) ، ربما كسكرتيرة . والآن كانت العمليـة تنتقل إلى مـرحلتها الثـانية ، الأكثر شؤماً .

في هذه الأثناء ، وبحلول أواخر الصيف كانت « شيفيلد فورجماسترز » قد أنهت الدفعة الأولى من الأجزاء العملاقة التي ستُصنع منها سبطانتـا المدفعين العملاقين . كان بول عصبياً عندما بدأت هذه القطع رحلتها إلى العراق ، لأن إيقافها ممكن حتى اللحظة الأخيرة ، مثلما حدث مع المنح الحكومية لمشروع « لير فان » . لكن أُجيز للقطع بالمرور . وصول هذه القطع أثار حماس الوزير العراقي حسين كامل ، فزادت الضغوط على بول للإسراع ببدء عمليات الإطلاق الاختبارية . لم يكن هناك مجال لذلك ، على أي حال ، لأن بول لم يكن قد حلّ بعض المصاعب الكبرى في المدفع . على سبيل المثال ، لم يكن يعـرف ما الذي يجب فعله بشأن الحسابات التي تظهر أن بارود الدسر قد يسبب صـدعاً واسعاً في السبطانات بعد كل عملية إطلاق . كان ممكناً ، كما أدرك بول ، أن

تصبح السبطانة غير صالحة كلياً بعد اثنتي عشر عملية إطلاق فقط . أحد الحلول كان تزويد السبطانات بأنابيب مبطنة تستخدم مرة عند كل إطلاق . أنابيب كهذه ستضيق سعة السبطانة ، لكنها أيضاً ستتحمل وطأة التصدع . على أي حال، فإن صنع هذه الأنابيب ستستغرق وقتاً طويلاً ، وكلفة باهظة .

كما لم يكن بول قد أنهى العمل التصميمي للمقذوف « مارتليت ـ 4 » . كان العراقيون يحصلون على مدفع لكن قذائفه لم تكن موجودة إلا على الورق . عرف بول أنه لن يكون قادراً على إنجاز العمل ضمن المهلة التي حددت لإطلاق قمر اصطناعي ، كما وعد العراقيين . ما حققه خلال وقت قصير جداً كان مدهشاً ، لكن ما وعد به كان مستحيل الإنجاز خلال الوقت المحدد ، والآن بدأت إنجازاته تأخذ طابع الفشل لأنه كان متأخراً جداً عن الجدول الزمني . للتخفيف من الضغط العراقي بالنسبة لمشروع بابل ، أصبح بول أكثر استعداداً للعمل على المشاكل التي تواجههم في برنامج الصاروخ . في الحقيقة كانوا يبتزونه . لكسب مزيد من الوقت للمدفع العملاق ، فإن عليه العمل على صاروخ المراحل الثلاث .

كان للعراقيين مخطط آخر أيضاً لبول . كانوا مهتمين جداً بـ (PRB) ، الشركة البلجيكية التي تؤمن بارود الدسر لبابل الصغير . كان بول قد أخبر نائب الوزير ، أمير سعدي ، أن (PRB) في وضع مالي صعب ، واستناداً لأقاويل وسط العاملين في تجارة الأسلحة ، فإنها معروضة للبيع . لكن ، أكثر من ذلك ، قال بول إن الحقبة الجديدة من سياسة القوى العظمى دفعت معظم الدول لتخفيض ميزانياتها الدفاعية بشكل مؤثر . المنافسة باتت أكثر حدة بين شركات صنع الأسلحة الأوروبية ، وبعضها أصبح مشرفاً على الإغلاق . الآن هو الوقت المناسب ، قال بول ، لشراء أفضل هذه الشركات ودمجها في بنية واحدة لإنتاج مصنوعات ذات نوعية فائقة . إذا تم العمل بسرعة وذكاء ، قال ، فسيكون ممكناً السيطرة على صناعة الأسلحة في غضون سنوات عدة . ونقطة البدء هي (PRB) . أحب العراقيون هذه الفكرة وأجازوا لبول للمضي بخطته ، بادئاً كما اقترح بـ (PRB) .

عندما حاول بول شراء مصنع « لير فان » ، استعان بتوجيه ونصح تيد

تايلي ، وهو رجل أعمال بلجيكي متخصص في مشاكل نقل التكنولوجيا . والآن طلب من تايلي ، وهو روديسي الأصل ، المساعدة مرة ثانية . لكن تايلي كان قد صُدم بانهيار صفقة لير فان ، وبالاتهامات التي بدأ يسمعها عن بول باعتباره بيرقاً عراقياً . يقول تايلي : « منذ اللحظة الأولى للقائي بجيري بول أحببته كثيراً . لكن عندما طلب مني المشاركة في وضع اليد على (PRB) قلت له ، انظر يا جيري ، أود معرفة الطبيعة الحقيقة لأعمالك » . أعطى بول تايلي نسخة عن كتابه وقال إنه منذ أيام عمله مع ماك غيل كان يرغب ببناء مدفع كبير قادر على وضع قمر اصطناعي في الفضاء . وأخبر تايلي أنه أخيراً بدأ ببناء هذا المدفع وعرض عليه كل التفاصيل التي أرادها . « لم يخفِ جيري سراً على الإطلاق . في الحقيقة ناقشني بالموضوع بكل التفاصيل . تذكّر ، إني لم أكن صديقاً مقرباً منه ، بل زميلاً له في الأعمال . لم يخفِ سراً بأنه يعمل للعراق وأنه يصنع مدفع قمر اصطناعي . على الأقل في بروكسل ، فإن كل العاملين في مجال تجارة الأسلحة وكل الذين يعرفون جيري ، كانوا على علم بالمدفع » .

بالصدفة، كان تايلي يعرف مسؤولين كباراً في البنك الذي يتولى عملية بيع (PRB) ، وكان تايلي قادراً على التحدث معهم بشكل غير رسمي . لكنه عندما أخبرهم بأن زبونه هو جيرالد بول ، أبدوا عدم اهتمامهم . « ضغطت عليهم كثيراً لمعرفة الأسباب ، فظهر أن لها علاقة بكون جيري قد حُكم عليه بالسجن قبل عشر سنوات » . عاد إلى بول ، وسمع منه وجهة نظره بخصوص قضية جنوب أفريقيا ، ثم اتصل بمسؤولي البنك مرة ثانية . وبعد الكثير من الضغط ، وافقوا على اجتماع يضمهم وكبار مسؤولي (PRB) وتايلي وبول . « سار الاجتماع بطريقة جيدة » يقول تايلي . وتم الاتفاق على أن يتقدم بول باقتراح رسمي لشراء (PRB) ، على أن يكون هذا الاقتراح الأساس لبدء المفاوضات . أنجز الاقتراح وقُدّم ، لكن لم ترد كلمة أبداً من البنك . « لم يتصلوا بنا أبداً » يقول تايلي ، وعندما كان يتم الاتصال بالبنك أو بـ (PRB) للاستفسار ، كان الرد بأن الاقتراح ما زال موضع درس .

في أيلول/ سبتمبر 1989 ، أعلنت (PRB) أنها أصبحت تابعة لـ « استرا هولدينغز » ، وهي مجموعة بريطانية صغيرة لصنع الذخائر والألعاب النارية . في

البدء لم يصدق بول ذلك ، فهذه . الشركة البريطانية كانت صغيرة جداً ولا تملك الخبرة لإمساك أعمال (PRB) . وقد استنتج أنهم قبلوا عرض استرا بدل عرضه لأسباب سياسية لا علاقة لها بالأعمال .

وأدرك بول أنه خسر هذه الصفقة بسبب روابطه مع العراق . لكن الذي لسعه أكثر هوردة فعل مسؤولي البنك حيال الحكم عليه بالسجن . فأصبح هاجسه السعي للحصول على عفو أقوى .

22

في 17 آب/ أغسطس 1989 ، وقع انفجار ضخم في « الاسكندرية » القاعدة العسكرية التي تقع على 60 كلم جنوب بغداد . وخلال الأسبوع الأول من أيلول/ سبتمبر بدأت الأخبار تتسرب إلى الخارج . أحد التقارير ظهر على صفحات الصحيفة اللندنية « ذي إنـديبندانت » وذكـر ، استناداً لمصـادر شرق أوسطية ، أن 700 شخص قتلوا بالانفجار ، بينهم مهنـدسون مصـريون كـانوا يعملون في مشروع صاروخ .

في اليوم الذي نُشر فيه التقرير ، كانت مجموعة من الصحفيين البريطانيين يغادرون لندن متجهين إلى بغداد كضيوف على الحكومة العراقية ، للقيام بجولة في العراق ورؤية ما تحقق في عملية إعـادة الإعمار بعـد الحرب . بين هؤلاء الصحفيين كان فارزاد بازوفت ، وهو إيراني في الواحدة والثلاثين من العمر ، ويعيش في لنـدن حيث يعمل مـع صحيفة « ذي أوبـزرفر » كصحفي حـرّ غير متفرغ . كـان بازوفت يائساً لتحقيق سبق كصحفي يخوله الحصول على موقع له بين طاقم الصحيفة ، وكصحفي غير متفرغ كان يعيش على حافـة الفقر . في مطلع ذلك الصيف ، كان بازوفت قد أقام علاقة مع ممرضة بريطانيـة في الواحدة والخمسين من العمـر ، اسمها دافني بـاريش . كانت باريش متعلقة بـالشرق الأوسط ، فقبلت عرضاً للعمل في مستشفى عراقي . وقد خطط بازوفت للقائها في بغداد .

عند وصوله إلى بغداد كان بازوفت على علم بشأن الانفجار الذي وقع في « الاسكندرية » . حكومة صدام حسين كانت ترفض التعليق بأكثر من القول بأن التقارير التي تتحدث عن 700 قتيل كانت محض هراء . مصادر دبلوماسية غربية

أكّدت حصول انفجار ما ، لكن أحداً خارج المؤسسة العسكرية السرّية جداً ، لم يكن قادراً على معرفة سببه وحجمه . بازوفت رأى في هذا الانفجار السبق الصحفي الذي يحتاجه . فإذا استطاع إثبات وقوع عدد كبير من الضحايا ، وأن للإنفجار علاقة بأسلحة نووية أو كيماوية ، فإن ذلك كفيل بأن يؤمن له العمل كواحد من طاقم الأوبزوفر .

سأل المكتب الإعلامي التابع للحكومة العراقية عن الانفجار فردوه بفظاظة ، كما رفضوا أخذه إلى الاسكندرية . عند هذه النقطة ظهرت باريش مع وسيلة نقل خاصة بها ، سيارة إسعاف صغيرة . وهذا ما حدث لاحقاً ، حسب رواية باريش : « العديد من الصحفيين الموجودين في بغداد ذهبوا إلى موقع الانفجار . فارزاد تقدم بطلبات عديدة للذهاب إلى الموقع وقالوا له أن يأخذ سيارة تاكسي ، وهو أمر لم يرد القيام به ، لأن سائقي التاكسي ، حسب تجربته ، لا يهتمون أبداً بإيصاله إلى المكان الصحيح . فقلت إني سأصحبه إلى هناك ، بما أن لدي يومي إجازة . ذهبنا إلى هناك ونظرنا إلى الموقع من الخارج ثم عدنا أدراجنا . رأى فارزاد كومة تبدو كأنها رماد فحم على طرف الطريق وقال إنه يريد أخذ بعضها . أعطيته قنينة ليضع فيها عيّنة . والتقط أيضاً حجراً صخرياً وحذاء عتيقاً . قلت لنفسي ، هذا ما يفعله الصحفيون ، ولم أعتقد أن هناك شيئاً غريباً في ذلك » . في بغداد تحدث بازوفت علناً عن عمله البطولي ، وبسرعة وصل كلامه إلى مسامع الشرطة السرية العراقية . في 15 أيلول/ سبتمبر ألقي القبض على بازوفت وباريش ووجهت إليهما تهمة التجسس لصالح إسرائيل .

ليس هناك أي شك بأن بازوفت قد ذهب إلى منشأة عسكرية حساسة في محاولة لإيجاد معلومات كانت الحكومة العراقية ترغب أن تظل مخفية . وليس من شك أنه أخذ عينة من التراب والتقط بعض النفايات من على جانب الطريق ، كما ليس من شك أيضاً بما كان ينوي فعله بهذه العينات ـ كان سيرسلها إلى مختبر لتحليلها لمعرفة ما إذا كانت تحتوي أثراً لغبار نووي أو كيماوي متساقط نتيجة الانفجار .

دفاع بازوفت ارتكز دائماً على الحافز ، فقد ادعى أنّه كان يقوم بتحقيق صحفي مشروع ، لكن من وجهة النظر العراقية فإن ذلك يوازي تماماً التجسس .

الطريقة التي نظر فيها صدام حسين إلى هذه القضية ، هي أن بازوفت حاول جمع معلومات سرية بنيّة استخدامها بطريقة تجعلها في متناول أعداء العراق . ليس مهماً عند صدام أن هذه المعلومات قد تقع بيد الإسرائيليين كنتيجة لنشرها على الصفحة الأولى للأوبزرفر .

في دولة كالعراق ، فإن المتهمين بالتجسس دائماً يكونون مذنبين ، والعقوبة هي الموت . وهكذا ، فإن الصحافة الغربية تعاطت مع اعتقال بازوفت وباريش ، كدراما ممكنة التبرير ، وأصبحت برامج صدام العسكرية عرضة لهجوم متزايد . هذه الحادثة بكل تفاصيلها حظيت باهتمام كبير من د. بول . ومن مجمل ما قرأه على صفحات « انترناشيونال هيرالد تريبيون » و « فايننشال تايمز » ـ الصحيفتان اللتان يقرأهما يومياً في بروكسل ـ ومما قاله له العراقيون عندما سألهم ، اقتنع بول بأن بازوفت كان بالفعل جاسوساً أكثر مما هو صحفي ، وإنه كان يقوم بعمل إضافي لقسم ما من الاستخبارات البريطانية ، وأنه على الأرجح سيعاقب بالسجن لمدة طويلة . أما باريش ، فكانت غبية ، فقط ، وأنها ستحصل على عقوبة بالسجن لمدة قصيرة . لكن في هذه الأثناء ، تركز الاهتمام على قاعدة الاسكندرية ، حيث كان بول يساعد العراقيين في برنامج صاروخهم .

سأل بول أمير سعدي عن الانفجار ، فقال له إن حادثاً سيئاً وغير عادي قد وقع . كان بول يعرف أن العراقيين يحرصون على إجراءات الأمان في « الاسكندرية » ، التي كان يجري فيها تحضير البارود الداسر للقذائف كما كانت تجري اختبارات على وقود صاروخي . حتى في مصانع المتفجرات الأكثر حرصاً تقع حوادث . ما حصل ، قال سعدي ، أن كمية من المواد الشديدة الانفجار انفجرت بسبب حادث نتج عن خطأ في التوصيلات الكهربائية . في لحظة وقوع الانفجار صادف مرور مركبة محملة بالكثير من المتفجرات ، مما أدى إلى وقوع انفجار ثان . وكما كان بول يعرف جيداً فإن معظم مباني « الاسكندرية » مؤلفة من طابق واحد وممتدة باتساع بحيث تنحصر الأضرار في المبنى الأساسي ، الذي يقع فيه حادث ، وبالطريق الذي يؤدي إليه ، وكما كان بول يعرف جيداً أيضاً ، فإن عدد العاملين في تصنيع المواد الشديدة الانفجار ليس كبيراً ، لذا فإنه اقتنع

بكلمة سعدي بأن عدد الذين قتلوا لا يزيد عن العشرين .

ومع ذلك ، فإن أخبار الانفجار واعتقال بازوفت وباريش ، زادت التوتر والضغط الذي بدأ بول يشعر به نتيجة عمله مع العراقيين .

في تشرين الأول/ أكتوبر تلقى بول اتصالاً من صديق إسرائيلي في باريس ، طلب عقد اجتماع في مكتب بول في بروكسل ، في وقت لاحق من الأسبوع . كان الرجل مرتبطاً بالإسرائيليين الذين كان بول قد أعلمهم في وقت سابق عن مشروع بابل ، وقد شعر بالارتياح لأنه أخيراً سيسمع منهم رأيهم حيال ذلك .

ثلاثة إسرائيليين جاءوا إلى الاجتماع. يقول لويس بالاسيو : « أغلق بول الباب ، وكان الاجتماع خاصاً كلياً . لم يكن موجوداً غير الإسرائيليين وبول . دام ساعة أو ساعتين ، وعندما انتهى خرج الجميع بوجوه طويلة . لم يخبرني بول عن غاية هذا الاجتماع ، لكن لم يكن تخمين ذلك صعباً » .

بالاسيو ومسؤولون كبار في (SRC) كانوا مهتمين بالاجتماع . لاحقاً أخبر د. بول ابنه ميشيل أن الإسرائيليين كانوا على علم بكل ما يفعله. بالاسيو وآخرون مقتنعون بأن الأسرائيليين أرادوا هذا الاجتماع لإخبار بول أنهم على علم بمساعدته العراق في برنامج الصاروخ ، « على الأرجح أنهم طلبوا منه التوقف » يقول بالاسيو ، ويضيف : « لا تستطيع أن تأمر بول لفعل شيء ما . إنه لا يتلقى أوامر . وما كان ليعطيهم أي ضمانات » .

مصادر في الاستخبارات الأميركية توافق على احتمال قيام الإسرائيليين باستخدام هذا الاجتماع لتذكير بول بأن إسرائيل تعتبر امتلاك العراق لصاروخ بالستي تهديداً لأمنها . يقول أحد هذه المصادر : « لم يوجه الإسرائيليون أي نوع من التهديدات . إلى مستوى معين كان الاجتماع ودياً جداً على الأرجح . لكن كان بإمكان بول أن يعرف أنه يتلقى إنذاراً » .

مهما كان قد حصل خلال الاجتماع ، فإنّ الأكيد هو أنه قد سبب توتراً معيناً ، لأن كل الذين كانوا مقربين من بول عرفوا بحصوله . « بعد الاجتماع فوراً ، عندما غادر الإسرائيليون ، كان بول يضحك لأن هناك بعض الزوار

العـراقيين في الطابق الثـاني وكان المـوظفـون منشغلين بضمـان عـدم التقـاء المجموعتين » تقول مونيك جامينى .

كان لويس بالاسيو قد أقام علاقات واسعـة خاصـة به في أوسـاط تجارة الأسلحة ، في إسبانيا ، في تشرين الثاني/ نوفمبر ، بعد حـوالي أسبوعين من اجتماع بول مع الإسرائيليين ، كان بالاسيـو يعمل في مكتبـه ، في مدريـد ، عندما تلقى اتصالا من « مصدر » فلسطيني اقترح عليـه عقد اجتمـاع بينهـما . الفلسطيني لديه اتصالات مع تجار أسلحة معروفين . وكان محترماً كشخص لديه معرفة واسعة بالعالم الخفي للشرق الأوسط. خلال الاجتماع، قال الفلسطيني لبالاسيو إنه سمع بأن الإسرائيليين قرروا «مسح» د. بول. لم يقدم تفاصيل. أما كيف عرف الفلسطيني شيئا كهذا فإن على بالاسيو التخمين . هل يمكن أن يكون الإسرائيليون قد استأجروا قاتلاً عربياً للقيام بهذا العمل ؟ إذا أرادوا قتل بول ، فإنهم قد يفضلون استخدام شخص ما لا يمكن ربطه بتل أبيب .

« لم يكن شيئاً يمكن تجاهله » يقول بالاسيـو . « في اليوم نفسـه الذي حصلت فيه على هذه المعلومة كتبت إلى بول أخبره بكل ما سمعته وأن المصدر موثوق به . نصحته بأن يحمل هذه المعلومة إلى سعدي ليسأله رأيه . وأذكر أني أنهيت رسالتي طالباً منه الانتباه جيداً على نفسه » .

بعد أيام قليلة من رسالة بالاسيو ، كان بول في العراق مرة أخرى ، وحسب اقتراح بالاسيو عرضها على سعدي . نائب الوزير قال لبول أن لا حاجة للقلق لجهة تعرضه للاغتيال على يد الإسرائيليين . « إذا قتلوا أحد رجالنا ، عندها قد نقتل أحد رجالهم فلا يعود ممكناً وقف هذه الدورة ، بل ستستمر وتستمر مع قتل مقابل قتل » ، قال سعدي ، على بول أن يكون حذراً ، وأن تستمر الاحتياطات الأمنية المشددة في بروكسل . لكن ، استنتج سعدي ، لا حاجة للقلق .

سعدي كان مخطئاً ، كان هناك سبب كاف جداً للقلق . في ذلك الأسبوع نفسه ، كان رجلان ، متوسطا الحجم أسودا الشعر وبشرتـاهما زيتونتيا اللون يتقدمان من مكتب الأعمـال المسؤول عن إدارة مجمع شيـريدريـو للشقق في أوسـل ، حيث يسكن بول . كانا يبحثان عن شقة للإيجار ، وقالا إن المساحة

ليست مهمة بقدر ما يهمهما الموقع ، وإنهما يحبان المنطقة ويريدان شقة في شيريدريو . كانت هناك شقة صغيرة ، من غرفة نوم واحدة ، خالية في المبنى الذي يقع على يمين المبنى حيث يسكن بول ، وأبدى الرجلان رغبتهما بالحصول عليها . تركا إيجار شهر كتأمين وقدما مراجع للتعريف بهما ليتحقق منها المكتب خلال الوقت اللازم لتحضير عقد الإيجار . وحتى ذلك الحين طلب الرجلان الحصول فوراً على مفتاح الشقة وعلى مفتاح باب الأمن الرئيسي ، بحجة تسهيل دخول وخروج مهندس الديكور الذي سيكلفانه بالهندسة الداخلية للشقة فوراً ، وذلك لكسب الوقت . كانت تلك آخرة مرة ترى فيها إدارة شيريدريو هذين الرجلين ، وكانت مفاجأة للإدارة عندما تحققت من المراجع التي قدماها فتبين أنها مزيفة . شرطة بروكسل ستقتنع لاحقاً ، بأن هذين الرجلين عقدا صفقة جيدة : إيجار شهر للشقة مقابل مفتاح الأمن الذي يُستخدم لفتح الأبواب الأمامية لمباني شيريدريو الثلاثة .

بول لم يتجاوب مع التحذيرات المباشرة ، والآن كانت العملية الاستخباراتية قد دخلت مرحلتها الثالثة والأخيرة .

في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر طار بول إلى مونتريال ومن هناك اصطحب ميمي برحلة بالسيارة إلى واشنطن لحضور حفل عشاء تكريمي على شرف الجنرال « آرت » ترودو . خلال الرحلة ، التي استغرقت عشر ساعات ، أخبر بول زوجته للمرة الأولى عن مشروع بابل . « قال إنه بنى هذا المدفع للعراق ليصبح قادراً على إطلاق قمر اصطناعي . قال جيري إن إطلاق قمر اصطناعي سيمنح العراقيين كل الاحترام الذي يحتاجون لقيادة العالم العربي . قال إنها وسيلة سلمية لإيصال العراقيين إلى القمة » . قال بول لميمي إن العراقيين وحدهم لديهم الرؤية اللازمة « لدفع العرب إلى دخول القرن العشرين » . جعل الأمر يبدو وكأنه مشارك في مهمة إنسانية تاريخية .

قال بول لميمي إن العمل على مشروع بابل يسير جيداً . تقول ميمي : « فوجئت بأنه يظن أن بالإمكان إنجازه بهذه السرعة . في حين أن تطوير (HARP) استغرق وقتاً طويلاً . لكنه قال إن العراقيين قد ملّوا الحرب وأنهم لا يريدون غير السلام . . وكان مؤمناً بأن إطلاق قمر اصطناعي سيكون قوة

للسلام » . فرحت ميمي بفكرة أن جيري يعمل من أجل السلام .

كان مقرراً إقامة حفل العشاء في نادي «شيفي شايز كاونتري » ، حيث كان بول وميمي ينزلان دائماً عند وجودهما في واشنطن . في فترة بعد الظهر ، قبل موعد العشاء ، ذهب جيري لرؤية صديقه القديم . كان الجنرال بحالة صحية متردية لكن ذهنه كان ما يزال حاداً ، كما في السابق .

كان بول وترودو قد تحدثا كثيراً عبر الهاتف خلال الشهور الستة الماضية . وكانا قد اتفقا على ضرورة تسليط الأضواء بشكل واسع على فكرة المدفعية الجبارة، وبطريقة تتيح المجال أمام مشاركة دول الناتو التي ترغب بذلك . وقاما بإعداد مقال يفصّل احتمالات التوصل لنوع جديد من المدفعية بالاستناد إلى مشروع (HARP) ، دون التطرق لذكر مشروع بابل . تحت اسم الجنرال ترودو كان المقال سيظهر في عدد كانون الأول/ ديسمبر من مجلة (ARMY) التابعة للمؤسسة العسكرية الأميركية ، تحت عنوان : « مشروع (HARP) : فكرة حان زمانها ؟ » .

الآن كان لدى الجنرال نسخة أولى من المجلة . في المقال يقول ترودو إنه مع إزالة صواريخ بيرشينغ وكروز من أوروبا الغربية ، هناك حاجة ملحة لتقوية قوة الردع الأوروبية التقليدية . وهذا ممكن ، يقول المقال ، باستخدام مدفعية بعيدة المدى تستند إلى مدافع (HARP) القديمة التي طورت في الستينات من قبل بول وشارلز مورفي . كان بول قد زود ترودو بنتائج أبحاثه الأخيرة للعراقيين ، والتي تظهر أن مدفعاً مصنوعاً خصيصاً ، بسبطانة يبلغ قطرها 40 سم وطولها 30 متراً ، قادر على إطلاق قذيفة ذات دفع صاروخي مساعد ، بحمولة تبلغ 270 كلغ ، إلى مسافة « مذهلة » تصل إلى 1850 كلم ، وأن حمولة تبلغ 90 كلغ يمكن إطلاقها بدقة إلى مسافة تصل إلى 3200 كلم . وكتب ترودو « يخامر المرء شعور بأن دراسة تمهيدية يمكن أن تكون على طاولة قيادة الناتو خلال وقت قصير جداً » .

لم يخبر بول ترودو عن العراقيين . وفي الحقيقة كان هناك القليل لإخباره . فمنذ أن لفت نظرهم إلى احتمالات بناء مدفع حربي عند القيام ببعض التعديلات على بابل الصغير ، انهمك بالعمل على صاروخ القمر الاصطناعي

العراقي إلى حد إهمال فكرة المدفعية العملاقة . ومثل « مارتليت ـ 4 » لم يكن هناك شيء موجود خارج الورق والحسابات .

كان حفل العشاء مناسبة اجتماعية ناجحة جداً ، وتم تقديم الزوجين بول إلى مجموعة من الضباط العسكريين الأميركيين المتقاعدين ، الذين دعوهما لحضور مباراة بايسبول ستنظم في شباط/ فبراير المقبل بمناسبة « ثلاثاء المرفع » في نيو أورليانز . في منتصف الحفلة قبل جيري الدعوة . لكنه كان قد بدأ يعيد التفكير بالأمر وهو يقود السيارة خلال رحلة العودة إلى مونتريال .

لم يكن هناك شيء آخر للتحدث عنه خلال الرحلة ، على أي حال ، كشف جيري أنه بعد لقائه مع ترودو ، في اليوم السابق ، التقى « بعض الأشخاص » الذين أخبروه أن هناك دليلاً جديداً يتعلق بإدانته بقصة جنوب أفريقيا . وحسب ما قاله بول ، فإن هذا الدليل يؤكد أن القذائف التي كان يفترض أن تكون قد شحنت إلى جنوب أفريقيا من مونتريال ، لم تغادر أرصفة الميناء إطلاقاً . هذا التطور ، قال بول ، يكفي لإسقاط قصية الحكومة ضده . لأنه إذا تبين أن القذائف لم تغادر كندا أبداً ، فلا يعود هناك أساس لمعظم الاتهامات التي وُجهت إليه . وهذا سيكون كافياً للتقدم بالتماس لإعادة فتح القضية التي رُفعت بحقه وإسقاطها . لم يعد بول الآن مهتماً بالحصول على عفو ؛ الآن أصبح راغباً بجلاء القضية كلياً ، مع اعتذار تقدمه الحكومة له . لم ترغب ميمي بسؤاله عن مصدر هذا الدليل الجديد ، أو عن « الأشخاص » الذين التقاهم . تقول ميمي : « كان ينزعج ويهتاج عند التحدث عن إدانته بقضية جنوب أفريقيا ، إلى حد كنت دائماً أتجنب هذا الموضوع وأحاول تغييره » .

بعد يومين عاد بول إلى بروكسل ، وكان في مكتبه في (SRC) في 5 كانون الأول/ ديسمبر 1989 ، عندما أعلن العراق أن « العبد » ، صاروخ إطلاق القمر الاصطناعي ذا المراحل الثلاث ، قد تم اختباره في ذلك اليوم في قاعدة « الأنبار » للأبحاث الفضائية . وقد بث التلفزيون العراقي فيلماً يصور عملية الإطلاق . هذا الحدث كان مفاجأة للغرب . لم يكن أحد يتوقع أن يكون العراقيون قد بلغوا هذا الحد من التقدم . وبعد ثلاثة أيام أعلنت وكالة الاستخبارات العسكرية الأميركية أن الصاروخ العراقي لا يبدو بالفعل قادراً على

وضع قمر اصطناعي في المدار . المتحدث بلسان وزارة الخارجية الأميركية ، ريتشـارد بوشيـر ، قال : « كنـا مهتمين منذ وقت طـويـل بـالتـأثيـرات المخلّة بالاستقرار الناتجة عن انتشار صواريخ بالستية وتكنولوجيا الصواريخ في مناطق متوترة كالشرق الأوسط » . سيث كاروس ، وهو خبير بالقدرات العسكريـة في الشرق الأوسط ، لدى كلية « الحرب البحرية » في بروفيدنس ، رود آيلاند ، أشار إلى نقطة معبّرة : « الحقيقة البسيطة هي أنك إذا كنت ستبني صاروخاً يمكنه وضع قمر اصطناعي في المدار المنخفض للأرض ، فإن لديك صاروخاً بمدى عابر للقارات » . بكلام آخر ، فإن الصاروخ القادر على إطلاق قمر اصطناعي هو أيضاً صاروخ بالستي قادر على ضرب أي مكان في الشـرق الأوسط من أماكن سرية في أي مكان من العراق .

مـع ذلك فـإن تجربـة « العبد » لم تكن ذاك النجـاح البـاهـر كمـا أعلن العراقيون . فقط المرحلة الأولى من الصاروخ عملت بشكل صحيح ، كما ظهر على شاشة التلفزيون ، رافعة إياه إلى ارتفاع 12 ألف متر . المرحلتان الثـانية والثالثة فشلتا في تحقيق الانفصال . كان مقرراً تأمين الدفع في المرحلة الثانية بواسطة محركي صاروخين طراز « سكود ـ ب » ، أما الثالثة فكانت من تصميم برازيلي ، وبرأي بول لم تكن جديرة بالثقة . المشاكل في انفصال المرحلتين الأولى والثانية كان يمكن حلها بدون صعوبة كبيرة ، لكن المـرحلة الثالثـة من الصاروخ فكانت تحتوي أخطاء جوهرية لم يعتقد بول أن بالإمكان تصحيحها . لذا فإن هناك حاجة قبل إجراء تجربة ثانية ، قال بول لمساعديه المقربيين ، لإعادة تصميم المرحلة الثالثة من الصاروخ . قد يستغرق وقتاً طويلاً تصميم كل شيء من جديد ، لذا اقترح بـول على العراقيين ، عنـدما زار بغـداد في كانـون الأول/ ديسمبر ، أنه قـد يحاول إقنـاع الصين لبيعهم جهازاً للمـرحلة الثالثـة . كانت الحكومة العراقية قد جربت لكن الصينيين رفضوا الطلب ، لكن بول قال إن لديه بعض الاتصالات الشخصية الوثيقة بالمؤسسة العسكرية الصينية ، وإن تدخله قد يغير الأمر . في الواقع ، لم يكن لبول اتصالات كهذه . نتيجة عمله على النظام المدفعي لبكين أصبح على صداقة مع بعض المسؤولين الكبار ، لكن لم يكن لديه أي تأثير على السياسة المتبعة .

كانت هناك مشكلة أخرى بالصاروخ العراقي . فهو يستخدم وقوداً سائلاً لا يمكن مقارنته بكفاءة الوقود الجاف . كان العراقيون يمتلكون تسهيلات صنع الوقود الجاف للصاروخ . لكنهم لم يجدوا أحداً يبيعهم المكونات . مرة أخرى ، قال بول إنه قد يطلب المساعدة من الصينيين .

إحدى أكبر مشاكل بول هي أنه لا يستطيع كبح نفسه عن المبالغة بأهميته . بالتأكيد كان العراقيون يعرفون أن لا تأثير لديه على السياسة الصينية تجاه مسألة حساسة كبيع قطع صواريخ ، لكن حسين كامل كان سعيداً لتركه يحاول .

لم يكن بنيّة بول التورط أكثر بالصواريخ العراقية . في الواقع ، كان قد بدأ التفكير بأن عليه ربما الإنسحاب . وبدون أن يعي ذلك ، كان قد غطس أكثر في الوحل العراقي .

23

رجع بول إلى مونتريال لقضاء إجازة عيد الميلاد عام 1989 ، وعاد إلى بروكسل لقضاء رأس السنة الجديدة . وفي مطلع كانون الثاني / يناير سافر إلى العراق ليجد أن معظم أجزاء سبطانة مشروع بابل قد جرى تسليمها . وقد تم نقلها إلى موقع يقع شمال بغداد ، بمحاذاة جبل مكحول ، قرب قرية « بايجي » على ضفاف دجلة . كانت تجري عمليات حفر ضخمة في جانب الجبل . كان بول قد خطط بالأصل ليتم رفع سبطانة المدفع العملاق بواسطة كابلات وهيكلية فولاذية تشبه الجسر المعلق ، لكن الاختبارات على الكومبيوتر التي قام بها فريق (ATI) في بروكسل أظهرت أن هذه الوسيلة لن تمنع السبطانة من الانبعاج والالتواء عند كل عملية إطلاق . بدل ذلك سيتم بناء المدفع داخل هيكل صلب . وسيُلف كل أنبوب على كرسي تحميل ، على أن يُرفع الهيكل الكلي إلى جانب الجبل ، بحيث أن أقل ارتفاع للأرض سيؤدي إلى رفع السبطانة ؛ وبهذا سيكون سهلاً تمهيد الأرض وفق ارتفاعات تؤمن للسبطانة زاوية 45 درجة كحد أقصى .

عند كل إطلاق للمدفع ، ستكون هناك قوة ارتداد بحدود 30 ألف طن . هذا الحمل الارتدادي سيتم نقله إلى الوراء عبر اسطوانات تخفيف الصدمة إلى اسطوانات الارتداد إلى عوارض الدعم وأخيراً إلى قاعدة من الإسمنت المسلح ستكون بعمق 60 متراً . قوة الارتداد يمكن أن تكون سرعتها 12 كلم بالساعة ، لكن كل الـ 30 ألف طن الناتجة عن هذه الحركة يجب إيقافها في مدى مترين ونصف المتر . « يمكنك أن ترى ضخامة المشاكل الهندسية إذا قارنت المدفع بقطار طويل يسير وراء قاطرة كبيرة » يقول كريستوفر كاولي . « القطار لا يسير بسرعة ، فقط بمعدل 12 كلم بالساعة ، لكن تخيل أن يضطر للتوقف في مدى

مترين ونصف المتر دون أن يخرج عن السكة » . وتخيل أيضاً حجم الداسر اللازم لإطلاق هذا المدفع : عشرة أطنان لكل طلقة . كانت الخطة أن يتم إطلاق الصاروخ الحامل للقمر الاصطناعي باتجاه جنوب شرق فوق طول العراق وفوق العربية السعودية والمحيط الهندي باتجاه المدار . كان بول قد قرر أن هناك تيارات هوائية تهب في الاتجاه الصحيح المساعد . لكن كان ما يزال « مارتليت ـ 4 » موجوداً فقط على الورق ، ولم يكن هناك تقدم عملي بالنسبة للمدفعية الجبارة . كان متوتراً إزاء احتمال أن يقطع العراقيون المدفوعات الشهرية ، وللحفاظ على ثقتهم شدد بول أمام سعدي أنه سيكون في الصين خلال أسابيع وسيحاول التفاوض بشأن الحصول على صاروخ للمرحلة الثالثة .

سأله سعدي باهتمام عن همومه الأمنية وبدا سعيداً عند معرفته أن الأحداث الغريبة داخل شقته قد توقفت . لكن بول لم يكن مرتاحاً مثل سعدي . كان لديه إحساس مقلق بأن الإنذارات قد توقفت فقط لتنتقل إلى مرحلة أخرى . والآن كان يعرف سبب هذه الإنذارات ، فهي لم تكن لها علاقة بمشروع بابل أو بأي نوع من المدفعية ، وإنما لها علاقة ببرنامج الصاروخ العراقي . كان بالاسيو قد أوضح له مدى خطورة هذا البرنامج ، والآن عرف أن بالاسيو كان محقاً . لكن العقود العراقية كانت تبقي شركته واقفة على قدميها وبدونها ستفلس .

في شباط/ فبراير عاد بول إلى كندا وطار بصحبة ميمي إلى نيو أورليانز لحضور احتفالات ثلاثاء المرفع . كان الطقس سيئاً للغاية ، مما أدى إلى إلغاء رحلات عدة فوصلا متأخرين على موعد عشاء الليلة الأولى . استمرت العاصفة يوماً ثانياً فألغي العرض الرئيسي . مع ذلك كان هناك احتفال كبير في تلك الليلة ، وقد استمتعا بما يكفي ليكونا سعيدين لأنهما قاما بهذه الرحلة . وضعا خططاً أكيدة لتمضية أسبوعين معاً في البيت ، في إسبانيا في نيسان/ إبريل المقبل . عادت ميمي إلى مونتريال في حين توقف بول في واشنطن في طريقه إلى بروكسل « للقاء بعض الأشخاص » . خمنت ميمي أن للأمر علاقة بقضية جنوب أفريقيا والقذائف التي كان مفترضاً أنها بقيت في مونتريال ، فلم تطرح أي سؤال .

بعد حوالي الأسبوع ، كان بول في بكين ، حيث اجتمع بمايكل تشانغ ،

صديقه القديم من لندن . كانا ذاهبان إلى منشوريا لفحص أنظمة المدفعية التي كان بول قد صممها ، ولبحث إمكانية إبرام عقد جديد . يقول تشانغ : « كنت أعلم أن بول يعاني من الإرهاق . كان متعباً جداً وقلت له في وقت سابق من تلك السنة أن يجري فحصاً طبياً عاماً . عندما رأيته في ردهة الفندق في الصين سألته ما إذا كان قد أجرى الفحص العام . فقال إن كل شيء على ما يرام ، وقلت ، أوه ، إذن لن تموت ، فأجاب : « لن أكون أكيداً بهذا الشأن » .

شيء ما في صوت بول أثار مخاوف تشانغ ، لكن من القواعد الأساسية التي أنجحت العلاقة بينهما هو أن أياً منهما لم يكن يطرح على الآخر أسئلة تدقيقية . لذا ذهبت ملاحظة د. بول بدون التوقف عندها .

كان الصينيون راضين بأنظمة المدافع التي صممها لهم بول ، وكانوا منفتحين لمناقشة عروض جديدة . كان بول قد أحضر معه المقال الذي نشرته مجلة (ARMY) وألح على القيادات العسكرية الصينية درس فكرة مدافع طويلة المدى كالتي يتحدث عنها المقال . لكن الصينيين لم يستطيعوا تصديق أن مدافع كبيرة كهذه ، بسبطانات بهذا الطول ، يمكن أن تكون متحركة ، وأصروا أن نصبها في أماكن ثابتة سيجعلها عرضة وبسهولة لهجوم مضاد ، خلال يوم أو يومين في أي معركة . لكنهم احتفظوا بنسخة عن المقال ووعدوا بدراسته أكثر .

انتقل بول الآن إلى مشاكل الصاروخ العراقي وسأل مسؤولين عسكريين صينيين عن إمكانية بيع العراق صاروخ المرحلة الثالثة لنظام « العبد » . قال الصينيون أن ذلك ليس وارداً على الإطلاق . لسبب أساسي ، كشفوه لبول بسرعة ، هو أن العراق لم يدفع مقابل المعدات الحربية التي تسلمها قبل وقت طويل . كما أن هناك عوامل سياسية يجب أخذها بعين الاعتبار ، وأهمها العلاقات مع الولايات المتحدة . كانت فترة من العلاقات الحارة جداً قد انتهت في 4 حزيران/ يونيو 1989 ، عندما ارتكبت قوات صينية مجزرة قاسية بحق آلاف الطلاب الصينيين غير المسلحين في ساحة « تيان مين » . ومنذ ذلك الحين ، تحاول بكين تدريجياً إعادة بناء العلاقة ، وفي المناخ السائد فإن بيع صاروخ إلى بغداد لا يمكن أن يكون إلا خطوة إلى الوراء . وبرغم هذا الرفض الحازم لطلبه ، فإن بول مضى بسؤال الصينيين عن إمكانية تزويد العراق

بالمكونات اللازمة لصنع وقود جافة . ومرة أخرى رفضوا .

وعندما جلس بول وتشانغ معاً في فندق، في مكان ما من منشوريا، التي وصفها تشانغ بـ « الثغرة الأكثر عتمة في الجحيم » بدأ بول يبوح ببعض مخاوفه العميقة ، وقال لتشانغ إنه خائف . يقول تشانغ : « قال لي عدة مرات ، يجب أن تساعدني للخروج من العراق » .

أخبر بول تشانغ أن كل العمل الذي يقوم به للعراق كان متأخراً عن المواعيد الزمنية المحددة ، جزئياً على الأقل ، بسبب أن العراقيين لديهم القليل من القدرة التقنية ولا يستطيعون تجميع المشاريع مع بعض حتى لو كانت كل القطع في مكانها . وقال إنهم قد أشركوه في محاولة حل مشاكل صاروخهم . قبل عدة شهور كان تشانغ قد اطلع على رسالة التحذير التي تلقاها بول من بالاسيو ، وكانت نصيحته أن يذهب بول فوراً إلى الإسرائيليين ، وليس إلى العراقيين ، لبحث المشكلة . والآن ، سأل بول ما إذا كان قد فعل شيئاً بهذا الخصوص ، فذكر بول له الاجتماع الذي عقده مع الإسرائيليين دون أن يعطي أية تفاصيل .

ثم أخبر بول قصة أقلقت تشانغ للغاية . قال إنه خلال وجوده في واشنطن ، بعد مغادرته نيو أورليانز ، « عُرِّف إلى شاب يعمل في البنتاغون » وإن هذا الشاب قال له إنه في خطر . فوجىء بول بأن الشاب يعرف الكثير عن مآضيه ، بما في ذلك كل قضية جنوب أفريقيا « بدأ أن الشاب يقول لي إنه في وقت ما كانت هناك خطة لقتلي ، وإنّ عليّ أن أكون حذراً جداً جداً » قال بول .

يقول تشانغ : « أخبرت بول أن هذا المسلك يجعله أخطر أكثر فأكثر بالنسبة للإسرائيليين . كنت خائفاً جداً عليه . بدا أنه أساء فهم ما قيل له في واشنطن . ظن جيري أنهم يقولون إنه كانت هناك خطة لقتله قبل عشر سنوات ، في فترة قضية جنوب أفريقيا . أعتقد أنهم ما كانوا يقولون ذلك إطلاقاً . اعتقد أنهم كانوا يقولون إن هناك خطة لقتله الآن . كان جيري يتلقى إنذاراً آخر . كل هذا الحديث عن أن جيري سيُقتل ، كان الجميع يعرفونه على ما يبدو . كان يتلقى الكثير من الإنذارات ولم يكن يفعل شيئاً حيالها » .

خلال رحلة الإياب الطويلة من الصين إلى بروكسل ، قرأ بول في صحف

بريطانية ، أنه قبل يومين ، في 15 آذار/ مارس أعدم العراقيون فارزاد بازوفت شنقاً . (دافني باريش ، الممرضة البريطانية التي اعتقلت مع بازوفت ، حكم عليها بالسجن مدة 15 عاماً ، لكن أطلقت في تموز/ يوليو 1990 بعد توسط رئيس زامبيا ، كينيث كاوندا ، لصالحها) . لاحقاً قال بول لميشيل ، إنه حتى برغم يقينه بأن بازوفت كان جاسوساً إلا أن شنقه كان غلطة رهيبة ، ستسبب إدانة دولية للعراق بالتأكيد . وقد أصبح بول الآن أكثر تصميماً على الابتعاد عن نظام صدام حسين ، لكنه لم يكن يعرف كيف سيفعل ذلك .

أفرط بالشراب على متن الطائرة على أمل أن يستطيع النوم ، لكنه لم يستطع . والأرجح أنه فكر بالإنذارات التي تلقاها وبكلام سعدي عن أي طرف لا يقتل رجال الطرف الآخر لأن ذلك يؤدي فقط إلى الرد . حسناً ، ها قد قتل العراق بازوفت .

عند وصوله إلى بروكسل لم يذهب بول مباشرة إلى شقته . كان ميشيل في بروكسل في نهاية ذلك الأسبوع وحاول الاتصال به هاتفياً بشكل مستمر . كان بول قد أصبح يخاف من شقته بحيث كان يبحث عن أي سبب للبقاء بعيداً عنها ، وفي داخل مكاتب (SRC) كان الكلام أنه أصبح يقيم مع هيلين غريغوار .

عندما تمكن ميشيل أخيراً من الوصول إلى والده ، في وقت لاحق خلال الأسبوع ، قال د. بول إنه بقي في الشقة طوال نهاية الأسبوع لكنه كان يتناول حبوباً منومة ، ولعله كان نائماً عندما رنّ جرس الهاتف .

قبل شهرين من ذلك ، سمع لويس بالاسيو أن أبو ظبي ، كانت تبحث في السوق عن نظام مدفعي . كانوا يريدون النموذج الجنوب أفريقي لمدفع بول عيار 155 ملم الذاتي الحركة ، ولكن لأسباب سياسية لم يكن بإمكانهم التعامل مع بريتوريا . بالاسيو تحدث مع مسؤولين عسكريين في أبو ظبي ووجد أن لديهم علاقات مع مصنع ، أصحابه ألمان ، في تركيا حيث يمكن صنع المدفع . كانوا مهتمين بشراء خطط تصميم من بول . عندما أخبره بالاسيو عن هذا التطور ، في كانون الثاني/ يناير بدا بول متحمساً جداً ، مع أنها « كانت ما تزال صفقة بعيدة عن متناول اليد » . في الأوقات العادية ، ما كان بول ليظهر اهتماماً إلا متى

أحرزت الصفقة تقدماً ملحوظاً . لكن عندما أخبره بالاسيو انهما مدعوان لتفقد المصنع في تركيا بدا بول متحمساً جداً للذهاب ، وكان أمراً غير مألوف « أعتقد إنه أراد الابتعاد عن بروكسل ، وأن يقضي أقل وقت ممكن هناك » يقول بالاسيو .

التقى بول وبالاسيو في مطار هيثرو، في لندن، في صباح 19 آذار/مارس 1990 ، ليطيرا معاً إلى أنقرة . كان الوقت باكراً على إقلاع طائرتهما فجلسا في قاعة الانتظار لتناول القهوة ، وفجأة رفع بالاسيو عينيه ليرى رجلاً يبتعد بمعطفه . « صرخت عليه فرجع واعتذر قائلاً إنه قد أخذ المعطف الغلط ، لكن عندما نظرت إلى المعطف الذي تركه وراءه وجدت أنه لا يشبه معطفي أبداً . وظننت أن ذلك كان متعمداً وأننا نخضع لمراقبة استخباراتيه » . عند وصولهما إلى أنقرة تبين أن حقيبة ثياب بول « مفقودة » . « لم تكن مفاجأة لي » ، يقول بالاسيو « لقد تأكدت فقط مما كنت أظنه قبلاً : إننا مراقبان » .

كانت هناك اجتماعات في تلك الليلة مع الزبون المحتمل ، وفي اليوم التالية أعار بالاسيو بول قميصاً نظيفاً وقاما بجولة على المصنع . وكانا مدعوين للعشاء في الليل . « وُجدت حقيبة بول في لندن ـ إذ لم تغادر أبداً ـ لكن في ذلك المساء قال بول إنه يشعر بالتعب بحيث لا يمكنه تلبية دعوة العشاء وإنه سيقضي الليل في غرفته ، في الفندق ، ليعمل على بعض الأوراق التي أحضرها معه . كان يتكلم عن القيام بكتابة مذكرات الجنرال ترودو ، وأظن أنه كان يعمل على ذلك » .

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي عادا من أنقرة إلى لندن ، وترك بالاسيو رئيسه في مطار هيثرو وأسرع للحاق بالطائرة المتوجهة إلى مدريد ، في حين ذهب بول لأخذ حقيبته من شركة الطيران ، وصل إلى بروكسل عند بعد الظهر لكنه لم يذهب إلى شقته بل أمضى الليل مرة أخرى في مكان ما .

في اليوم التالي ، 22 آذار/ مارس كان في المكتب في وقت مبكر ، وفي حوالي الساعة العاشرة وصل كريستوفر غومبلي . قبل ستة أيام استقال غومبلي من منصبه كمدير إدارة « استرا هولدينغز » ، الشركة التي وضعت يدها على (PRB) في أيلول/ سبتمبر الماضي .

تحدث غومبلي وبول حتى الظهر ، ثم ذهبا لتناول الغداء ، وعادا ليمضيا معظم فترة بعد الظهر في نقاش عميق . خلال النهار اتصل د. بول بميشيل في مونتريال ثلاث مرات على الأقل . قال لميشيل ان غومبلي يبحث عن المساعدة في خطة لمقاضاة (PRB) في المحاكم البلجيكية . ظل بول يشعر بالأذى والغضب للطريقة التي تعاملت بها (PRB) مع عرضه لشرائها ، فكان راغباً بمساعدة غومبلي .

في تموز/يوليو الماضي كانت « استرا هولدينغز » قد جمعت 33 مليون جنيه استرليني من خلال طرح أسهم للبيع ، وذلك لتمويل خطة توسع إلى الأسواق الأجنبية . حوالي 21 مليون جنيه استرليني أنفقت لشراء (PRB) على أساس ما قيل لها بأن الشركة ستحقق أرباحاً بحدود 3 , 2 مليون جنيه استرليني في عام 1989 ، ولكن مع انتهاء السنة ، بدل أن تحقق (PRB) أرباحاً بلغت خسائرها 12 مليون جنيه استرليني ، مما هدد مستقبل استرا . كانت (PRB) ، التي يبلغ عدد عمالها 300´ شخص موزعين على خمسة مصانع ، قد بيعت إلى استرا بواسطة شركة تدعى (Gechem) ، وهي شركة متفرعة من المجموعة البلجيكية العملاقة (Société Générale de Belgique) . في آذار/ مارس 1990 كانت « استرا » قد اقتنعت أنه تم بيعها شيئاً عديم القيمة وأن (Gechem) لم توفر كل الحقائق المناسبة في وقت البيع . من جهتها ، ادعت (Gechem) أن الفرصة كانت متسعة أمام « استرا » للحصول على المعلومات الكاملة عن (PRB) قبل إنجاز الصفقة .

الآن كان غومبلي جالساً في مكتب جيرالد بول يشرح وضعه ويظهر عوزه . شعر بول بالأسى على غومبلي ، ورأى أيضاً الفرصة للرد على (PRB) لعدم كشف الحدود الفعلية لمتاعب الشركة المالية . وفي وقت متأخر من بعد الظهر استدعى بول مونيك جامينى إلى مكتبه .

تقول مونيك : « في أي وقت كان د. بول يريد إعطاء المال لأحد بدون أن يعرف ميشيل أو ستيفن ، كان يستخدمني لأني كنت أمسك ميزانية (ATI) وليس لولديه صلة بها . لكني أيضاً كنت أشعر بالمسؤولية تجاه المال وكنت أريد إنقاذ د. بول من نفسه . استدعاني د. بول إلى مكتبه وقال ، مونيك هذا الشاب الفقير

لديه الكثير من المتاعب في عمله . أريدك أن تعطيه 15 ألف جنيه استرليني . فقلت له ، هذا مستحيل ، علينا مستحقـات الرواتب وليس لـدينا فـائض بهذا الحجم . لكن د. بول قال ، حسناً دبري المبلغ بسـرعة لأنـه بحاجـة إليه في الأسبوع المقبل . سيكون عليكِ إيجاده . حتى ذلك الحين ليس لديه حتى ما يكفي لعودته إلى انكلترا . ثم ذهب د. بول إلى جاكيته وأخرج حزمة كبيرة من المال . كان دائماً يحمل مبلغاً كبيراً من المال . وأعطى غومبلي حوالي 2000 دولار ، وغادر الأخير المكتب . بعد ساعة طلب د. بول من مونيك إيصاله إلى البيت .

24

اليوم الأول من الربيع كان بارداً ورطباً في بـروكسل ، مـع غيوم رمـادية منخفضة . خيمت العتمة باكراً ، وعند الساعة السابعة والربع كان الليل قد خيم كلياً عندما غادر د. بول ومونيك مكاتب (SRC) .

قبل أن يضع معطفه الأزرق الواقي من المطر ، تلك الليلة ، أمضى دقيقة في الحمام يرتّب هندامه . كان قميصه وربطة عنقه مـرتبين جيداً ، على غيـر عادة ، عندما سأل مونيك ما إذا كان مظهره جيداً ، تتذكر : « كان دائماً غير مرتب عند نهاية النهار . ولم يكن يبالي . لكن في تلك أراد أن يبدو مرتباً ، وهكـذا عرفت أنه لا بد ذاهب لرؤية هيلين » .

عندما خرجا إلى الشارع أحكم بول معطفه الواقي من المطر حول جسمه ، وكانت الحقيبة القماشية السوداء تتدلى بثقل من كتفه . كانت هناك ريح غربية باردة ، فتذمر من المطر اللعين الذي يجعل المرء منقبض الصدر ، وهما يثبان لتجنب بريكات المـاء على أرض الموقف . دفـع د. بول حقيبتـه إلى المقعد الخلفي لسيارة مونيك ، رينو ستايش ، وصعد إلى المقعد الأمامي إلى جانب السائق . مع انتهـاء ساعـة انصراف المـوظفين والعمال من أعمـالهم ، كانت الشوارع خالية تقريباً .

عادة كانت مونيك تقود السيارة نزولاً في شارع « ستالي » باتجاه ساحـة جورج مارلو ، لكن كانت هناك أشغال عامة عند تقاطع الطرق ، بالإضافة إلى أنها ظلت منتبهة لنصيحة العراقيين لاختيار طرق متنوعـة . لذا قـادت السيارة عبـر الطرقات الفرعية والساحات التي تعطي « أوسـل » طابعها المميز . لم تكن في

عجلة ، برغم أن د. بول كان يبدو متحمساً للوصول إلى البيت . من الواضح ، فكّرت ، انه كان متأخّراً على موعده . لكن مونيك كانت تريد التحدث معه بشأن غومبلي والغاية من إعطائه هذا المبلغ الكبير من المال .

« لا نستطيع تأمين ذلك » قالت له « بالإضافة إلى أن لا معنى لذلك . لن نستفيد شيئاً إذا ربح الدعوى ضد (PRB) ». لكن بول كانقد حزم أمره مصمماً على المضي قدماً . « حدثت بيننا مشاجرة تقريباً » تقول مونيك . « كانت مسألة شرف بالنسبة لبول. كان قد قال له إنه سيعطيه المال، وهو سيفعل ذلك». بدأ بول برفع صوته فتراجعت مونيك ، وهي تفكر أن من الأفضل انتظار يوم آخر ، عندما يكون بمزاج أكثر تجاوباً .

كان قد سافر كثيراً خلال الأسابيع القليلة الماضية ، فخشيت مونيك أن لا يكون لديه في الشقة ما يأكله . « لم يفكر أبداً بالطعام في المكتب ، وتقريباً كنت أجبره على الأكل . كان يمكن أن يمضي النهار كله دون تناول شيء غير الحلويات والشوكولا . لذا سألته إذا كان يريد الذهاب للتسوق » . كان ما يزال نكد المزاج بعد المشاجرة بينهما ، فقال إن لديه كل شيء يحتاجه . لكن بعد برهة أضاف : « ليس لدي خبز » فأوقفت السيارة عند أول مخبز صادفاه ونزلت لشراء نوع الخبز الذي يفضله .

كانت مونيك قلقة لأن بول كان يبدو متعباً جداً . كان على هذه الشاكلة منذ فترة طويلة ، بفعل الضغط الكبير الذي يتعرض له . كانت أسفاره وكثرة أعماله قد بدأت تنهكه . وعلى مدى الشهور القليلة الماضية كان يدوّن على عجلة بعض مشاعره الدفينة . على قصاصات ورق موضوعة في جارورمكتبه ، أو متروكة فوق خزانة الثياب في غرفة النوم ، كان بول يحتفظ بيوميات غير منظمة . « جسمي يتوجع » كتب بعد رحلة إلى العراق . في ورقة أخرى كتب لنفسه « إني متعب للغاية ، لا أدري إذا كنت أستطيع تجاوز هذا اليوم » .

كانت مونيك سعيدة لأنه سيذهب مع ميمي لقضاء إجازة في الشهر المقبل . وهي الآن بدأت تندم لأنها ذكرت غومبلي ، فقد أزعجته في وقت لا يحتاج فيه لمزيد من الإزعاج . حاولت أن تفرحه بمناداته بـ « بابا بول » وهو اسم

دلع يحب أن تناديه به . كانت متعلقة جداً برئيسها .

كان بول يحب المواقف الكوميدية والنكات العملية ، كتلك الورقات من فئة 1000 فرنك التي وزعت في المكتب وكان عليها صورته في الوسط بشكل متقن . كانت متعته الحقيقية تدبير وتخطيط المقالب المدروسة لإثارة الضحك . ومعظم الذين عملوا مع بول يتذكرون قبل كل شيء ، قبل المعاش المرتفع والحرية المهنية ، قبل الإلحاح على اختراق الحدود العلمية ، قبل كل هذا يتذكرون المرح .

وبينما كانت السيارة تعبر الشوارع الضيقة المؤدية إلى أوسل الهادئة ، حيث يسكن بول ، اخبرته مونيك عن « مدام د. » .

« مدام د. » في منتصف عقدها الثالث ، طويلة ونحيفة وأنيقة ، كانت قد تقدمت للعمل لدى (SRC) في العام الماضي . ميشيل رفض طلبها . كان قد اكتشف ، على حد قوله ، أن لها سمعة بالسعي إلى الترقية من خلال مواهبها في السرير ، ستكون عامل إفساد ، قال ميشيل . عندما غادر ميشيل بروكسل ، تقدمت « مدام د. » بطلب للعمل في الشركة من جديد ، وهذه المرة حصلت على الوظيفة . قالت مونيك لبول إنه أثناء وجوده في تركيا دعتها « مدام د. » للغداء معها . وأصرت « مدام د. » على طلب المزيد والمزيد من النبيذ حتى ترنحت من السكر . الآن كانت السيارة قد انعطفت باتجاه جادة فرانسوا فولي ، حيث يقع المبنى الذي يسكن فيه بول . لم تستغرق الرحلة أكثر من 15 دقيقة . وقبل توقف السيارة أمام مدخل المبنى أطلقت مونيك قنبلتها . « مدام د. » ، غاوية الرجال المشهورة ، العابثة المعدومة الأخلاق ، طلبت من مونيك إقامة علاقة غرامية معها . . . كانت سحاقية .

انفجر د. بول بالضحك ، إنها بالضبط من نوع القصص التي يحبها والتي تصلح موضوعاً للهزل في اليوم التالي . « انتظري فقط حتى نصل إلى المكتب غداً » . قال ضاحكاً .

كانت مونيك ما تزال تتذكر تلك الأحداث التي حصلت الصيف الماضي ، عندما كان شخص ما يدخل إلى شقة « بابا بول » . كانت ما تزال خائفة عليه .

وكانت تشعر أنه ما زال غير مطمئن للمكان . عندما سيتحسن الطقس ، قالت مونيك لنفسها ، لعلنا نجد له مكاناً آخر يعيش فيه .

« انظر ، لديك الكثير لتحمله ، ربما عليّ مرافقتك إلى فوق » عرضت مساعدتها . « لا ، لا ، لا » قال بول . أدركت مونيك أن هيلين ربما كانت فوق وهي تنتظره .

خرج د. بول من السيارة ، وسحب حقيبته الثقيلة من على المقعد الخلفي وعلقها على كتفه وتأبط كيس الخبز . كان عليه بذل مجهود ليخرج مفتاحه من جيب بنطلونه لفتح باب الأمن .

راقبته مونيك وهو يدخل إلى البناية ويسير باتجاه المصعد ، كان ما يزال يضحك من قصة « مدام د. » مع مونيك .

شقة د. بول تحمل الرقم 20 ، في الطابق السادس . ولعله خلال الوقت الذي استغرقه المصعد للوصول إلى الطابق السادس كان يخطط لنكتة عملية لليوم التالي .

المبنى حديث الطراز ، حسن الذوق ورحب . وكان هناك مصعدان ملاصقان للحائط الخلفي للمبنى ، وكان بيت المصعد ناتئاً إلى داخل رواق كل طابق بحيث توجد في كل جانب فجوة مساحتها متران مربعان .

في الطابق السادس كانت جدران الرواق من الطوب الأحمر الجاف والسجاد ذات ألوان خريفية دافئة . أبواب الشقق صفراء اللون .

عندما صعد بول كان الرواق معتماً، لكن باب المصعد كان عند فتحه ينير أوتوماتيكياً ضوءاً . كان بول متأخراً دقيقة أو اثنتين عن موعده ، وكان على الأرجح مستعجلاً .

انعطف مباشرة باتجاه الشمال . في هذه اللحظة خرج شخص ما من الفجوة على الجانب الآخر من المصعد . كان هذا الشخص ينتظر هناك بصمت ، في العتمة ، وكان مخفياً كلياً عن بول لحظة خروجه من المصعد ، وكان هذا الشخص يحمل الآن مسدساً مزوداً بكاتم للصوت عيار 7,65

ملم بيده .

الاحتمال الأكبر أن بول لم يره ولم يسمعه حتى . في كل الاحتمالات ، مات وهو ما يزال يضحك من نكتة مونيك الصغيرة .

خمس رصاصات أطلقت من مسافة متر ، ولم يكن الفارق بين الطلقة والأخرى غير ثانية . الرصاصة الأولى اخترقت مؤخرة جمجمة بول واجتازت دماغه وخرجت من أعلى جبهته . الرصاصات الثلاث التالية أصابت أعلى عموده الفقري ورقبته . الرصاصة الأخيرة أطلقت على الرأس مرة ثانية .

من بين الشقتين الأخريين في الطابق ، كانت واحدة مأهولة ، لكن أحداً لم يسمع شيئاً . امرأة تسكن في الطابق الخامس جفلت من الصوت الذي أحدثه وقوع جسم بول وحقيبته . ظنت أن أحداً يقوم بتحريك الأثاث .

يعتقد البوليس أن القاتل غادر عبر الممر المؤدي إلى الدرج . لم يزعج نفسه بالنظر إلى جيوب بول ، حيث كان هناك مبلغ ضخم من المال . لم يكن هناك مجال للظن بأنها عملية سرقة . كانت جريمة تحمل رسالة . نزل القاتل على الدرج إلى بهو الطابق الأرضي .

تجنب الخروج من الباب الأمامي للمبنى ، واستعمل مخرجاً خلفياً ، خرج منه إلى الحدائق وسار عبر الظلال في تلك الليلة الربيعية ، وابتعد عن المجمع السكني ليختفي وسط شبكة من الشوارع الضيقة . ولعله صادف سيارة متجهة إلى حيث ارتكب جريمته ، سيارة تقل هيلين غريغوار .

أوقفت السيارة ، ولجت إلى المبنى مستعملة مفتاحها الخاص ، وصعدت بالمصعد . عندما رأت جسم بول مكوماً على الأرض صرخت . الجيران في الطوابق السفلى سمعوا الصرخة .

بحالة هستيرية دخلت إلى الشقة وركضت مضطربة إلى الهاتف . ظنت أن بول أصيب بنوبة قلبية . اتصلت بالطوارىء طالبة سيارة إسعاف أولاً ، ثم اتصلت ببوّابة المبنى راجية إياها الذهاب إلى الباب الأمامي فوراً لانتظار المسعفين . ثم هرعت إلى جيري بول وأمسكت وجهه بيديها ، وهي تتحدث إليه بالفرنسية .

لاحظت الدم على جبهته فظنت أنه بسبب ارتطام رأسه بالحائط الطوبي وهو يقع . عندها فقط تذكرت أن طبيب بول الخاص يسكن في المجمع نفسه .

وصل المسعفون أولاً . وبانطباع أن بول أصيب بنوبة قلبية، انحنى مسعف فوقه وبنعومة حرك قدمه . ولحظة فعل ذلك تدحرجت خرطوشة فارغة من تحت ساق بول جفل المسعف وتراجع إلى الوراء . في اللحظة نفسها وضع مسعف آخر يده وراء رأس بول لتثبيته بوضع مريح أكثر ، وعندما سحب يده كانت مغطاة بالدم . وعندما حرك الجسم قليلاً ظهرت ثلاث بقع كبيرة من الدم على السجاد . ارتبك المسعفان وأخذا يحاولان إنعاش قلب بول .

عند هذه النقطة وصل طبيب بول . مرر يده على الجبهة المجروحة وعرف فوراً إنها فجوة رصاصة ، وان مريضه وصديقه كان ميتاً .

اتصل الطبيب بالبوليس .

كان التوقيت ممتازاً ، التنفيذ دقيقاً ، والمجرم محترفاً . د. جيرالد فينسنت بول جثة هامدة على سجادة خريفية الألوان ، في الطابق السادس في مبنى شقق سكنية ، في الضاحية الجنوبية لبروكسل . أحد أعظم الأدمغة ، كان قد فُجِّر للتو حتى لا يبقى يعمل لصالح الآلة الحربية لصدام حسين .

لم يتخذ بول الكثير من الاحتياطات الأمنية ، كان يعمل علناً من مكتبه . لم يكن هناك حراس ، ورغم أنه عاش ومات في سبيل المدافع فلم يكن ليحمل مسدساً صغيراً ، بل يعلق وردة على طية سترته . كان هدفاً سهلاً .

الصحافة البلجيكية احتاجت يوماً لتناول القصة بسرعة . في 24 آذار/ مارس أوردت (La Libre Belgique) فقرة واحدة في إحدى صفحاتها الداخلية . تحت العنوان البارد : « قتيل أميركي » .

25

بعد وصول الشرطة إلى شقة جيري بول ، اتصلت هيلين بمنزل ستيفن . كان ستيفن في العراق ، يفاوض بخصوص دفعات لمشروع « بيرد » ، لكن زوجته ، جوهان ، أسرعت إلى مسرح الجريمة . منذ غادر ميشيل إلى مونتريال ، أصبح ستيفن أكثر قرباً من والده وأصبح مشاركاً أكثر في المعاملات مع العراقيين . خلال عام 1989 أمضى 105 أيام في العراق .

اتصل البوليس البلجيكي بمنزل ميشيل في مونتريال ، فتكلموا مع زوجته ، دانيل ، كان ميشيل في مكتبه الصغير القريب من المنزل ، فقادت دانيل السيارة وسط الثلوج لتخبر زوجها أن والده قد اغتيل . « كانت أسوأ لحظة في حياتي » يقول ميشيل .

كان منتصف الليل تقريباً في العراق ، عندما اتصل ميشيل بستيفن في فندق الرشيد ، في بغداد . كان مترنحاً من النعاس عندما أمسك سماعة الهاتف ليسمع صوت أخيه يقول : « مات الوالد » .

« إذا كانت مزحة ، فإنها ليست مسلية » قال ستيفن . « هل تظن اني قد أمزح بأمر كهذا ؟ » أجاب ميشيل : « لقد أُطلق عليه النار في رأسه » .

أُصيب ستيفن بصدمة ، لم يستطع الكلام ، لم يستطع التفكير . سمع ميشيل يقول إنه سيقوم بإجراءات السفر لتأمين عودته إلى بروكسل . ولم يكن هناك شيء آخر يُقال . الشهور القليلة الماضية كانت من أحلى أيام حياة ستيفن . فللمرة الأولى بدأ والده يصغي إليه . كانا يتبادلان الحديث بالفعل ، يزدادان اقتراباً من بعض ، وكان ستيفن بأمس الحاجة لذلك .

قام ميشيل بالرحلة التي تستغرق عشرين دقيقة إلى منزل والدته في سان برونو . كانت خارج المنزل تتسوق ، تشتري إطاراً لصورة لبول . كانت الصورة مأخوذة له منذ أيام (HARP) لكنها لم تكن قد رأتها من قبل . كانت إحدى الصور التي ظهرت عندما كان ميشيل يجمّع مادة كتابه .

« عرفت أن شيئاً ما غير طبيعي عندما رأيت ميشيل » تتذكر ميمي . أخبرها ، فانهارا في حضن بعضهما .

كان لـ (SRC) مهندس بريطاني المولد في بغداد ، وبعد دقائق معدودة من اتصال ميشيل ، وصل المهندس إلى غرفة ستيفن حاملاً قنينة ويسكي . أصر على البقاء مع ستيفن بقية الليل ، وكان ستيفن ممنوناً . لم يكن يريد التكلم ، لكن كان جيداً وجود شخص ما في الغرفة . عندما غفا المهندس حوالي الساعة الرابعة صباحاً ، غطاه ستيفن ببطانية .

حوالي الساعة السابعة صباحاً وصل سعدي . كان يقود سيارته المرسيدس الخاصة ، وكان لوحده . وضع يده حول ستيفن وساعده بحمل حقائبه . ارتاح ستيفن لوجوده . خلال الطريق إلى المطار قال سعدي ان الوزير ، صهر الرئيس ، مصدوم وغاضب ، وأكد لستيفن أنه إذا احتاجت عائلة بول لأي شيء فإن الحكومة العراقية مستعدة للقيام بما تستطيع للمساعدة . أجهش ستيفن بالبكاء . بعد صمت طويل ، قال سعدي : « كان علينا أن نعرف أفضل . كان يجب أن يكون هناك أمن أكثر . . . كان علينا مراقبة والدك وحراسته » . وقد ذكّر ذلك ستيفن بحوار مع والده قبل عدة شهور . سأله ستيفن عن التهديدات وعن الرسالة التي تلقاها من بالاسيو . فأجاب د. بول إنه ليس جيداً وجود حراس « إذا أرادوا قتلي ، سوف يقتلونني . لا أستطيع منعهم » . وتذكر ستيفن أن والده كان يبتسم .

كانت الساعة السادسة والنصف مساءً عندما وصل ستيفن إلى بروكسل . تحريان بلجيكيان كانا بانتظاره عند سلم الطائرة ، واتجها به فوراً إلى المقر الرئيسي للشرطة . مفتش بارد ، عديم المشاعر ، قال لستيفن ان عليه الإجابة على بعض الأسئلة ، لكن قبل أن يبدأ ، هل هناك شيء يريد معرفته . سأل

ستيفن عن كيفية موت والده . قال المفتس أنه استلم للتو تقرير التشريح ، وأن د. بول قد أصيب بخمس رصاصات أُطلقت عليه من الخلف . « عندما سمعت ذلك ، عندما سمعت أنهم أطلقوا على أبي خمس مرات ، كأن تياراً كهربائياً سرى في كل أنحاء جسمي . وبدأت أبكي » لم ينتظر المفتش أن يستعيد ستيفن هدوءه ، بل استمر بقراءة نتائج التقرير . ليس هناك شك ، بأن الذي قام بالعمل محترف . لم يرَ أحد شيئاً ، لم يسمع أحد شيئاً .

استجوب البوليس ستيفن لمدة ثلاث ساعات قبل السماح له بالذهاب إلى منزله . وقد استمروا بالضغط عليه للحصول على تفاصيل عن طبيعة العمل الذي يقوم به بول للعراق . « إننا صغار جداً » ظل ستيفن يقول لهم . « نحن لا شيء . نحن جزء ضئيل ، عملنا تافه » .

لم تكن هيلين غريغوار ، ذات فائدة كبيرة للشرطة . الضابط الأول الذي وصل إلى المكان ، كان من وحدة مكافحة المخدرات . وقد اشتبه بأن تكون للجريمة علاقة بالمخدات ، خاصة عندما رأى المبلغ الضخم الذي كان يحمله د. بول . كان هذا الضابط فظاً بكل معنى الكلمة مع هيلين . كانت الساعة التاسعة مساء عندما ظهر عملاء الاستخبارات البلجيكية . قالوا إنها عملية قتل « سياسية » وإن الأمل ضئيل جداً بإمكانية حلها . في هذا الوقت ، كانت هيلين تجد صعوبة في تذكر شيء مما حصل . لم تستطع تذكر كيف وجدت د. بول أو أيا من التفاصيل . كانت تكرر باستمرار أنها تأخرت على موعد العشاء ، وانها لو جاءت في الموعد بالضبط لعلهم ما كانوا قتلوه لأنها ستكون موجودة ، أو لعلهم قتلوها هي أيضاً .

اجتمعت عائلة بول في بروكسل ، لكن جثمان جيري نقل إلى مونتريال ليدفن هناك . كان هناك 600 شخص خلال الجنازة ، بينهم أساتذة من 16 جامعة مختلفة . على شاهد ضريحه حفروا الشعار الذي تبناه كأنه له : « عندما يغفو المنطق ، تُطبق العدالة بشكل سيء » .

لعل ذلك صحيح جداً بالنسبة لجيري بول . كان رجل تكنولوجيا ، غير قادر على التعامل مع السياسات . « الأمور التقنية كانت تسيّره » يتذكر صديقه د. الفريد راتز . « كان قادراً على فهم أنه يمكن وجود عوائق تقنية يجب التغلب

عليها . لكنه لم يكن قادراً على فهم لماذا يجب أن تكون هناك عوائق سياسية أو إدارية . أو لماذا يجب السماح بأن تعرقل مشاريع من قبل جهلة . أفكاره كانت دم حياته ، لذا كان مقتنعاً بالسعي لتحقيقها بأي وسيلة ممكنة » .

يضيف راتز : « ما بدا يوماً أنه قد يستسلم للبيروقراطيين . مات دون أن ينحني . مات رجلاً حراً . كم واحد منا يمكن أن يقال عنه هذا ؟ » .

رفضت الاستخبارات البلجيكية إخبار ستيفن عما كانت تحتويه حقيبة د. بول القماشية . يعتقد ستيفن أن الحقيبة ، التي أخذها عملاء الاستخبارات البلجيكية معهم ، كانت تحتوي كل الرسوم والحسابات الهامة لمشروع بابل ومارتليت ـ 4 . والأرجح أن الحقيبة كانت تحتوي أيضاً العقود ذات الصلة بهذه الأبحاث لأنهم لم يستطيعوا العثور عليها في أي مكان . فبعد اشتباهه بوجود جاسوس في المكتب لم يعد د. بول يترك شيئاً هناك . ووجدت الشرطة في الحقيبة سجلاً بالأحداث الغريبة التي حصلت في الشقة ، فتم استجواب مونيك جامينى مدة طويلة بعض الشيء عن الحوادث التي ناقشها معها بول .

في 28 آذار/ مارس ، بعد ستة أيام من جريمة قتل بول ، أعلن مسؤولو الجمارك في لندن ونيويورك عن نجاحهم في عملية معقدة كشفوا فيها محاولة عراقية لتهريب أربعين جهازاً أميركي الصنع ، يستعمل لإشعال قنابل نووية . هذا الجهاز الذي يُسمّى « المكثّف » ، هو من المعدات التكنولوجية العالية المحظورة ، ويحتاجه العراق لتطوير أسلحته النووية . كان قد تم شراء الأجهزة بطريقة غير شرعية في كاليفورنيا وتم شحنها إلى العراق عن طريق بريطانيا ، وعلى الطريق قام عملاء الجمارك بإبدال المكثّفات الحقيقة بأخرى مزيفة . وعندما ظهر أفراد شبكة التهريب العراقية ، الموجودون في لندن ، لاستلام هذه المكثّفات ألقي القبض عليهم . بلغ عدد المعتقلين ، في الولايات المتحدة وبريطانيا ، ستة بالإجمال . وهذه الاعتقالات ، التي جاءت تتويجاً لعملية سرية دامت 18 شهراً ، سرعان ما ربطتها وسائل الإعلام باغتيال د. بول . صحيفة بريطانية زعمت أن بول « كان الشخص الوحيد القادر على ملاحظة أن العملاء قاموا بإبدال الأجهزة الحقيقية بأخرى مزيفة مشابهة » . الفكرة وليدة خيال صحفي محض ، لأن بول ما كان يعرف الكثير فيما يتعلق بالالكترونيات ، كان لا يعرف

شيئاً عن المكثِّفات . كما أن أحداً ، من المتورطين مباشرة في عملية التهريب لم يشر إلى أن بول كان على علاقة بهذه الخطة بأي شكل .

مع ذلك فإن الاتهامات سلطت الأضواء على روابط بول مع العراق . في الوقت نفسه ، زعم محللون عسكريون ، وبالتحديد في إسرائيل ، أن العراق ما كان قد بذل هذا الجهد للحصول على المكثِّفات ما لم يكن قد أصبح متقدماً في برنامجه النووي . وبدأ الخبراء يعيدون النظر بتقديرات للموعد المرجح لامتلاك العراق أسلحة نووية .

قبل حادثة اعتراض المكثِّفات المهربة كان المحللون في الغرب يرجحون عام 1989 كموعد . لكن الآن فإن محللين في واشنطن وتل أبيب كانوا يقولون ان صدام سيضع أصبعه على الزر النووي في وقت لا يتعدى عام 1992 . وقد أعيد التذكير بأن آخر مرة كان فيها صدام قريباً من امتلاك أسلحة نووية تعود إلى عام 1981 ، وقامت إسرائيل يومها بقصف المفاعل . الآن كان هناك إجماع على أن صدام يعمل على برنامجه النووي في منشأة سرية تحت الأرض، وكثرت التوقعات باحتمال قيام إسرائيل بالتحرك ضد هذه المنشأة . في 2 نيسان/ إبريل وجه صدام ضربته الوقائية على شكل تهديد مخيف : أنه سيزيل « نصف إسرائيل » بأسلحة كيماوية متطورة إذا أرسلت تل أبيب طائراتها إلى أراضيه مرة أخرى . في اليوم التالي تحديداً أطلقت إسرائيل « أفق ـ 2 » ، قمرها الاصطناعي الثاني للتجسس ، إلى المدار . كان العراقيون على علم بـ « افق ـ 2 » وكان أحد أسباب ضغطهم على بول للمساعدة في برنامج الصاروخ ذي المراحل الثلاث رغبة صدام بمجازاة الإنجاز الإسرائيلي . وقد أصبح الأمل ضعيفاً جداً الآن .

في 11 نيسان/ إبريل ، بعد حوالي عشرين يوماً على اغتيال د. بول ، صادرت الجمارك البريطانية ثمانية أجزاء من سبطانة مشروع بابل . كانت القطع موضوعة داخل صناديق ضخمة ، وجاهزة للنقل من على أرصفة « تيسايد » ، شمال شرق انكلترا ، وكانت الدفعة الأخيرة من 52 جزءاً التي تؤلف السبطانتين للمدفع العملاق . المؤكد أن الـ (M16) قد أعلمت الجمارك البريطانية بشأن أجزاء السبطانة ، وأن الـ (M16) قد حُثت للقيام بذلك من قبل الموساد . الوكالتان البريطانية والإسرائيلية ، كانتا على علم بشأن مشروع بابل ، منذ بدايته

تقريباً . وكانتا تعرفان أنه بموت د. بول فإن المشروع انتهى ، إذ ليس بإمكان العراقيين الاستمرار به لوحدهم حتى لو كانوا يملكون كل القطع اللازمة . لأن المدفع لم يكن الجزء الأكثر أهمية في مشروع بابل . هناك العديد من المهندسين في أنحاء العالم ، مثل كريستوفر كاولي ، قادرون على تصميم المدفع . سر مشروع بابل كان « مارتليت ـ 4 » . كان د. بول واحداً من علماء قليلين قادرين على تصميم هذا النوع من المقذوف . ولم يكن د. بول قد أنهى العمل عليه . كان موجوداً على الورق وحتى أنه لم يكن كاملاً . فحتى لحظة موته لم يكن بول قد حل بعض أصعب مشاكل مارتليت ـ 4 . ستيفن الذي بحث الأمر مع والده ، يقول إن مشروع بابل كان سيحتاج لعشر سنوات أخرى قبل أن يصبح قادراً على إطلاق قمر اصطناعي .

ويبدو الآن أن العراق لن يتابع أبداً ، على الأرجح ، هذا المشروع . على أي حال ، وفي حال لم تُقلص ميزانية برامج الفضاء الأميركية فإن المدفع الأميركي سيكون قيد الخدمة قبل نهاية هذا العقد .

مع تقدم التحقيق الذي بدأته الجمارك البريطانية ، بشكل مستقل عن الاستخبارات البريطانية ، أُلقي القبض على بيتر ميتشيل ، مدير إدارة سابق لدى والتر سومرز ، وعلى كريستوفر كاولي ، ووجهت إليهما تهمة تصدير معدات محظورة . وزُعم أن الإثنين كانا يعرفان بالضبط ما يقومان به عندما أصبحا متورطين في مشروع بابل . وبدأت الجمارك أيضاً تحقيقات معمقة حول أحد عشر مهندساً بريطانياً على الأقل ، بعضهم كان موظفاً لدى بول ، والبعض كان يعمل في الشركات التي صنعت قطع المدفع . لكن في تشرين الثاني / نوفمبر 1990 أسقطت كل التهم وأغلقت القضية .

قرار عدم المضي بالقضية-اتخذته مستويات رفيعة في حكومة مارغريت تاتشر . السبب يبدو واضحاً . كان بإمكان الدفاع عن المتهمين القول ان الحكومة البريطانية كانت على علم بالبداية بمشروع بابل ولم تفعل شيئاً لإيقافه . حجة كهذه ـ وكاولي يقول ان بالإمكان دعمها بدليل موثّق يتضمن رسائل من الحكومة البلجيكية ترجع إلى نهاية 1988 ـ كان من شأنها التسبب بإحراج كبير لداونينغ ستريت .

لماذا سمحت الحكومة البريطانية بصنع سبطانات مشروع بابل في بريطانيا ، وسمحت أيضاً لـ (SRC) والحكومة العراقية ببلوغ تلك المسافة القريبة من امتلاك مصنع لير فان ؟ الإجابة تكمن في اقتصاديات التجارة . في الوقت الذي اغتيل فيه د. بول ، كانت بريطانيا تبيع ما قيمته 450 مليون جنيه استرليني كبضائع إلى العراق سنوياً ، بحيث يبلغ فائض الميزان التجاري 357 مليون جنيه استرليني لصالح بريطانيا . ومع ثروة العراق النفطية الهائلة ، كان مبرراً التوقع بأن هذا الوضع سيتحسن أكثر . لدى العراق أموال طائلة لإنفاقها على إعادة الإعمار بعد الحرب مع إيران ، وحسب كلمات كريستوفر كاولي : « كل حكومة أوروبية كانت تريد حصة من الكعكة » . ريتشاد مورفي ، أبرز دبلوماسي معني بشؤون الشرق الأوسط معظم الثمانينات في وزارة الخارجية الأميركية يقول : « كلنا رأينا العراق في حقبة ما بعد الحرب بوصفها سوقاً قيمة جداً لأوساطنا التجارية . بإمكانياته فإنه يشكل سوقاً هائلة لحظة يرتاح فيها من عبء الديون التي تراكمت عليه خلال الحرب . . . ومعظم الخبراء توقعوا أن يحصل ذلك في غضون ثلاث إلى خمس سنوات » .

بريطانيا تنبأت أن تحقق تجارتها مع العراق فورة انتعاش عام 1995 ، حيث سيكون زبوناً رئيسياً . داونينغ ستريت لم ترغب بإزعاج بغداد .

لكن هذه الرؤية تغيرت في 2 آب/ أغسطس 1990 ، عندما غزا صدام الكويت . قبل نهاية الشهر كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها ـ بقيادة بريطانيا ـ يرسلون قواتهم الجوية والبرية إلى الخليج لإرجاع العراقيين إلى الوراء . مجلس الأمن الدولي أجاز الحرب وفي 16 كانون الثاني/ يناير ، ومع إصرار العراق على رفض الإنسحاب ، طارت أمواج من الطائرات الحليفة شمالاً .

كانت للولايات المتحدة وحلفاؤها سيطرة كاملة على الجو، وعلى مدى الأربعين يوماً التالية استمرت ، ليلاً نهاراً ، عمليات قصف وتدمير المواقع العراقية . في 24 شباط/ فبراير شنت الولايات المتحدة وحلفاؤها حربهم البرية ، وفي غضون مئة ساعة كانوا قد حطموا ما بقي من جيش صدام وأخرجوه من الكويت . لحق بالعراقيين ما يقدر بـ 100 ألف ضحية وتفاوتت نسبة التدمير من 30 بالمئة إلى 60 بالمئة في وحدات الجيش العراقي . مدفعية صدام البعيدة

المدى ـ الأربعمئة مدفع المصنوعة استناداً لتصاميم بول ـ بالكاد أطلقت نيرانها ، ليس لأن رماة المدفعية كانوا غير أكفاء فقط بل لأنهم كانوا مفقودين . وهذا لا يعني أن المدفعية قد خسرت موقعها كـ « ملك ساحة القتال » ، بل يؤكد ببساطة أنه عندما يمتلك طرف تفوقاً ساحقاً في الجو فإن القوات البرية لا تستطيع المجاراة .

لكن أحداً لم يكن ليتوقع هذه التطورات حتى 19 نيسان/ إبريل 1990 ، بعد أربعة أسابيع على اغتيال والده ، عندما قام ميشيل بإغلاق مكاتب (SRC) وحلّ الشركة . كل الموظفين حصلوا على مستحقاتهم ، الممتلكات تم بيعها ، وحاولت عائلة بول أن تتماسك . سددت مونيك جامينى الديون ثم أغلقت (ATI) وحسابات مشروع بابل . كانت قادرة على إرسال 187 ألف دولار إلى عائلة بول . ترك بول وراءه حوالي 300 ألف دولار ، معظمها على شكل بوالص تأمين . كان العراق بطيئاً في تسديد فواتيره ، وأمضى ستيفن أسابيع في بغداد محاولاً الحصول على الديون المستحقة . كان ستيفن في بغداد عندما غزا صدام الكويت ، فغادر بسرعة ، وبعد اجتماع للعائلة تقرر شطب كل ما يستحق للشركة من ديون .

في حديثه الأخير مع سعدي ، أُخبر ستيفن أن الاستخبارات العراقية قد تحققت وباتت مقتنعة بأن د. بول قد اغتيل على يد عملاء للموساد . أكثر من ذلك ، قيل لستيفن إن الإسرائيليين ما كانوا ليقدموا على هذا العمل بدون استشارة السي . اي . ايه. لأن د. بول كان مواطناً أميركياً والإسرائيليون يعتمدون كثيراً على المساعدة الأميركية .

بعد أسابيع قليلة ، اتصل مسؤول في الاستخبارات النمساوية ، رجل يرغب بأن يظل مجهول الإسم ، بعائلة بول عبر وسيط . كان صديقاً قديماً لبول . في الواقع ، كان بول قد أرسل إليه نسخة عن كتابه مع إهداء حار في أول الكتاب . قال النمساوي لعائلة بول ، إنه قام بتحقيقات خاصة واكتشف أن الموساد وراء مقتل د. بول ، لكنهم ناقشوا الأمر قبل ذلك مع مسؤولين في السي . اي . ايه. على الأقل ، فإن بعض هذه النقاشات ، قال النمساوي ، تمت في فرانكفورت .

في حوارات خاصة تقول مصادر في الاستخبارات البريطانية والبلجيكي
أيضاً إن الجريمة كانت من عمل الموساد . السي . اي . ايه تقول إنها لا تعرف
شيئاً عن الموضوع . لكن مسؤولاً في السي . اي . ايه ، وافق على الكلام بشرط
عدم ذكر اسمه ، يقول إن اليقين العام في أوساط وكالات الاستخبارات الغربية هو
أن الموساد أعطت الأمر لقتل بول . فعلت ذلك لتحذير علماء أجانب آخرين من
مغبة مساعدة العراقيين في نظام صاروخ ، يمكن أن يستخدم في نهاية المطاف
لإطلاق شحنات نووية أو كيماوية ضد أهداف في إسرائيل . هذا المسؤول يصر
على أن الموساد لم تُعلم واشنطن قبل الاغتيال .

الذي حصل ، يقول هذا المسؤول ، هو هذا . الإسرائيليون لم يكونو
يريدون قتل بول . أرادوا إخافته وإيقافه عن العمل على نظام الصاروخ . عملو
جهدهم لجعل بول يعرف أنه بخطر ، وأملوا أن يكون ذلك كافياً لإقناعه
بالتقاعد . عملاء أميركيون في أوروبا سمعوا أن بول يتعرض للتهديد فناقشوا ذلك
مع زملائهم الإسرائيليين . « عملاء يتحدثون إلى عملاء ، كان الأمر
كله إشاعات » .

لكن شخصاً في واشنطن كان على علم بالإشاعة ، لأنهم حذروا بول ،
قبل شهر من مقتله .

هذا التحذير، الآن بتنا نعرف ، كان فرصة بول الأخيرة . كان يمكن أن
ينقذ حياته لو أنه تقاعد فوراً . لكن لم يكن أمامه الوقت الكافي للتفكير بذلك ،
لأن فريق التنفيذ كان في مواقعه مع أوامر للقتل عند توفر فرصة مضمونة . موقع
العملية كان قد تقرر قبل أسابيع ، الرجل الذي سينفذ الاغتيال تموضع للعمل
بانتظار اللحظة المناسبة ، على الأقل طوال شهر . وأغلب الظن أن أربعة
أشخاص شاركوا مباشرة بالعملية في تلك الليلة . واحد لمراقبة مبنى (SRC)
بانتظار خروج بول ومونيك ليبث إشارة إلى الآخرين ، أحد أفراد الفريق ربما كان
جالسا وراء مقود سيارة واقفة قرب المبنى ، وآخر ربما كان متمركزاً في بهو الطابق
الأرضي . وتولى إرسال إشارة إلى القاتل بأن بول في طريقه إلى شقته وحده . لو
كان برفقة أحد أو كانت هناك أدنى مخاطرة بوجود شخص آخر لكان على الأرجح
قد تم تأجيل العملية .

كل أفراد الفريق الميداني غادروا بلجيكا في الليلة نفسها على الأرجح ، وسالكين طرقاً متنوعة ـ بالقطار والسيارات والطائرات ـ في حين تم وضع سلاح الجريمة في أحد البيوت الآمنة ليعاد إلى المكتب الرئيسي بواسطة الحقيبة الدبلوماسية .

من الواضح أن معظم ما تقدم هو افتراضي ، لأن الموساد لن تعترف أبداً بارتكاب عملية اغتيال . لكن شيئاً مشابهاً للسيناريو أعلاه قد حصل . بالطبع ، ما زالت هناك أسئلة بلا أجوبة وخيوط مقطوعة . على سبيل المثال ، لماذا احتاج فريق التنفيذ لمفتاح لباب الأمن في تشرين الثاني / نوفمبر بينما مطلع السنة بدا أن لديهم القدرة على الوصول ليس فقط إلى المبنى بل فعلياً إلى شقة بول . وإلى أي حد كانت الولايات المتحدة على علم بالعملية ؟ هل كان بإمكان السي . اي . ايه وقفها ؟ وهل اختارت أن لا توقفها ؟

يقول ميشيل : « لا نعرف بالتأكيد من قتل والدي . لكن من بين الأشياء التي أجدها مؤذية جداً ، أن وسائل الإعلام على ما يبدو تظن أنه إذا كان الإسرائيليون مسؤولين وأنهم إذا قتلوه لأنه كان يعمل للعراق ، فإن ذلك حسن . بكلمات أخرى ، ان لديهم نوعاً من الحق للقيام بذلك . الآن لو قتل العرب مواطناً أميركياً أو كندياً ، لأي سبب ، لكان هناك هيجان ولكان هناك تحقيقات . الأميركيون ، الكنديون ، لم يفعلوا شيئاً لحل جريمة قتل والدي . لكأن أوتاوا وواشنطن قد وافقتا على القتل . إذا كان ذلك صحيحا، فإنه يثير الإشمئزاز . ليس لأحد الحق بأن يطلق النار على والدي من الخلف » .

جالسة في المستنبت الزجاجي وراء منزلها في سان برونو ، بعد سنة تقريباً من موت زوجها ، كانت ميمي تكشف أفضل جوانب جيري . قالت : « بغض النظر عمن تكون ، فقد كان ليعطيك الانطباع بأنك مهم . كان دائماً يجد الوقت لسماع مشاكل الآخرين ، وإذا كان بإمكانه فعل شيء للمساعدة ، فإنه يقوم به . وهناك شيء آخر لا يمكنك أن تنساه . كان يحب الضحك » .

« بالنسبة لإحباطاته ، حسناً ، قد أقول أنه لم يكن صبوراً . كان يريد فعل الكثير في وقت قصير . وكان يثق بالآخرين بسرعة لذا كان سهل الخداع » .

ميمي ، التي حضنتها عائلتها والتفت حولها ، تعافت من الصدمة بشكل جيد . « أخبرني بول مرة أنه على لائحة تصفية ، لكنني لم أعرف أنه كان جاداً » تقول . « لم تكن لدي أبداً فكرة حقيقية بأن حياته كانت في خطر » . لم يخبرها شيئاً عن التهديدات الأخيرة . « أعتقد أنه أراد حمايتي . لم يردني أن أقلق » . تزور ميمي المنزل في هاي ووتر مراراً وتستمر في تنمية موهبتها في الرسم بالألوان المائية . وقد احتفظت بالبيت في إسبانيا ، وأمضت مع صديقتها هيلين غريغوار إجازة هناك في الشتاء بعد مقتل جيري .

هيلين تقيم بشكل منتظم قداساً لراحة نفس جيري في بروكسل . اشترى ميشيل بيتاً كبيراً من الطراز الحديث على الشاطىء الجنوبي لمونتريال ويتطلع لبدء عمل جديد . يقول إنه لن يعمل أبداً في ميدان السلاح مرة ثانية . بقي ستيفن في بروكسل حيث يدير شركة كومبيوتر .

أما مايكل تشانغ فعبّر عن رأي فلسفي ، إذا أشار إلى أن بول مات فوراً بدون معاناة الألم . « والأهم أن ذلك حصل قبل غزو صدام حسين للكويت ، لقد أُبعد دون أن يُضطر لمواجهة التبعات المريعة المحتملة لأعماله » . مع غزو الكويت ، كان ممكناً أن تسلط وكالات الاستخبارات الأضواء على عمل بول للعراق ، ولكان عرضة لانتقاد كبير ، ولكانت شركته أُغلقت . وتم إيجاد وسائل لمقاضاته . د. بول ما كان قادراً على تحمل كل ذلك . يقول تشانغ « إذا كان الواحد مؤمناً ، فإنه قد يظن ان اللّه كان لطيفاً معه » .

بينما هو ينظف مكتب والده وجد ميشيل ورقة نسخ عليها د. بول قصيدة . خط يد بول يكون أحياناً رديئاً بحيث لا يمكن قراءته ، أما هذه فكانت مكتوبة بكل ترتيب ، وكل كلمة واضحة . كانت الورقة تحت لبادة فوق الطاولة التي كانت مغطاة كما دائماً بملفات كبيرة لمواد تقنية . لكن برغم كثرة الوثائق الموجودة فوق الطاولة ، فإن ميشيل لاحظ أن الطريقة التي وضع فيها والده هذه الورقة ، كانت لتسهيل الوصول إليها .

القصيدة كانت « أنشودة الأخ سن » لسان فرانسيس اسيسي ، أو انها بالفعل الأنشودة التي تذكرها جيري بول بعد خمسين عاماً من حفظ أبياتها في

مدرسته الداخلية اليسوعية ، في كينغستون . صياغـة الأبيات الأخيـرة لم تكن صحيحة بالكامل ، لكن روح القصيدة كانت محفوظة بشكل ممتاز . لعله كان يستعملها كصلاة . كتب جيري بول :

المجد لك يا رب
لهؤلاء الذين يسامح وأحدهم الآخر في حبك
وللذين يتحملون المرض والمحن .
مباركون الذين يعيشون بأمان .

فهرست



William Lowther

ARMS AND THE MAN

Dr. Gerald Bull, Iraq and the Supergun

Translated by

Fouad HOTAIT

EDITIONS 2000
Paris



مـدفع عمـلاق قـادر على لعـب دور الصـاروخ في إيصـال قمـر إصطنـاعي إلى الفضاء؟ تبدو الفكرة وكأنها خارجة من إحدى روايات جول فيرن العلمية الخيالية وهي كذلك في جانب كبيرٍ منها خصـوصا لجهة شخصية الرجل الذي هيمنت عليه طوال ثلاثة عقود .

د . جيرالد (جيري) بول لم يكن عالماً عادياً ، فحيث كان العلماء يحاذرون في المضي أبعـد مما لـديهم من معطيات ملمـوسـة ، كان بـول يغامـر ، يتخيل ، ثم يعمل لتأكيد صحة آرائه . شخصية كهذه لا بد أن تثير الكثير من الغبار حولها . الذين كرهوه ربما كانوا أكثر من الذين أحبوه ، فـرجل مثله ، لا يلتزم بالقواعد المفروضة يطأ باستمرار عتبات المحرمات العلمية والسياسية ، فلم يكن مفاجئاً أن ينتهي بـــرصـــاص الإغتيـــال على يـــد الموســـاد .

إنها قصة «حيـاة» مدفع عملاق من خـلال قصة حيـاة الرجل الذي آمن بـالفكرة حتى صـارت هاجس حيـاته ، ثـم سببـاً لموته .

سيرتان ذاتيتان في سياق واحد ، حيث تتـداخل العواطف والإنفعالات مع الفولاذ وحشوات الدفع وبدايات عصر الفضاء . يجمعهما خيـط واحد : الغرابة . غرابة فكرة المدفع العملاق في زمن تبـوأ فيه الصاروخ والقذيفة الصـاروخية المرتبة الأولى في سباق تسلح الحرب الباردة ، وغرابة أطوار ، التي أوصلته في نهاية المطاف إلى العراق سعياً وراء حلمه !

